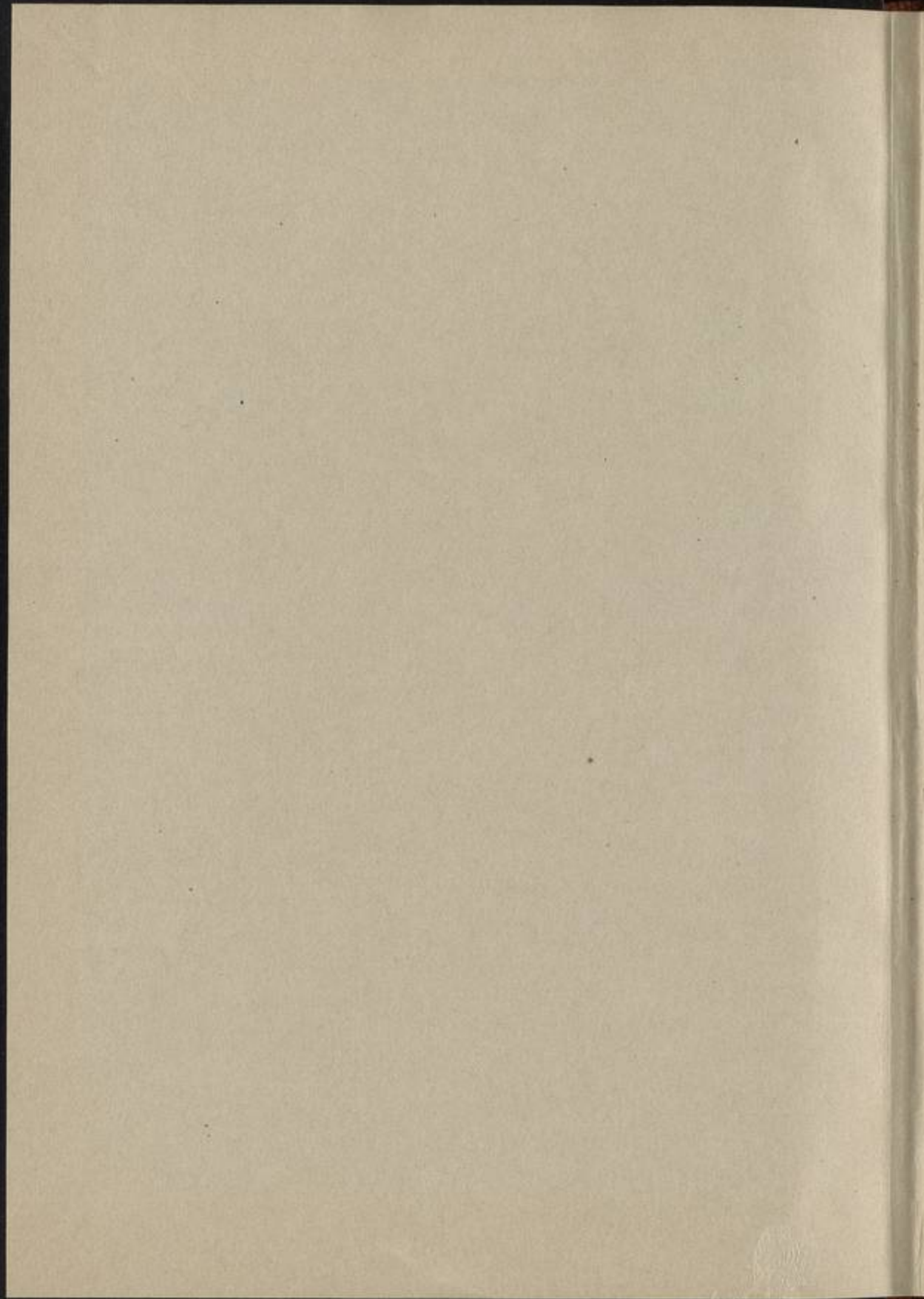
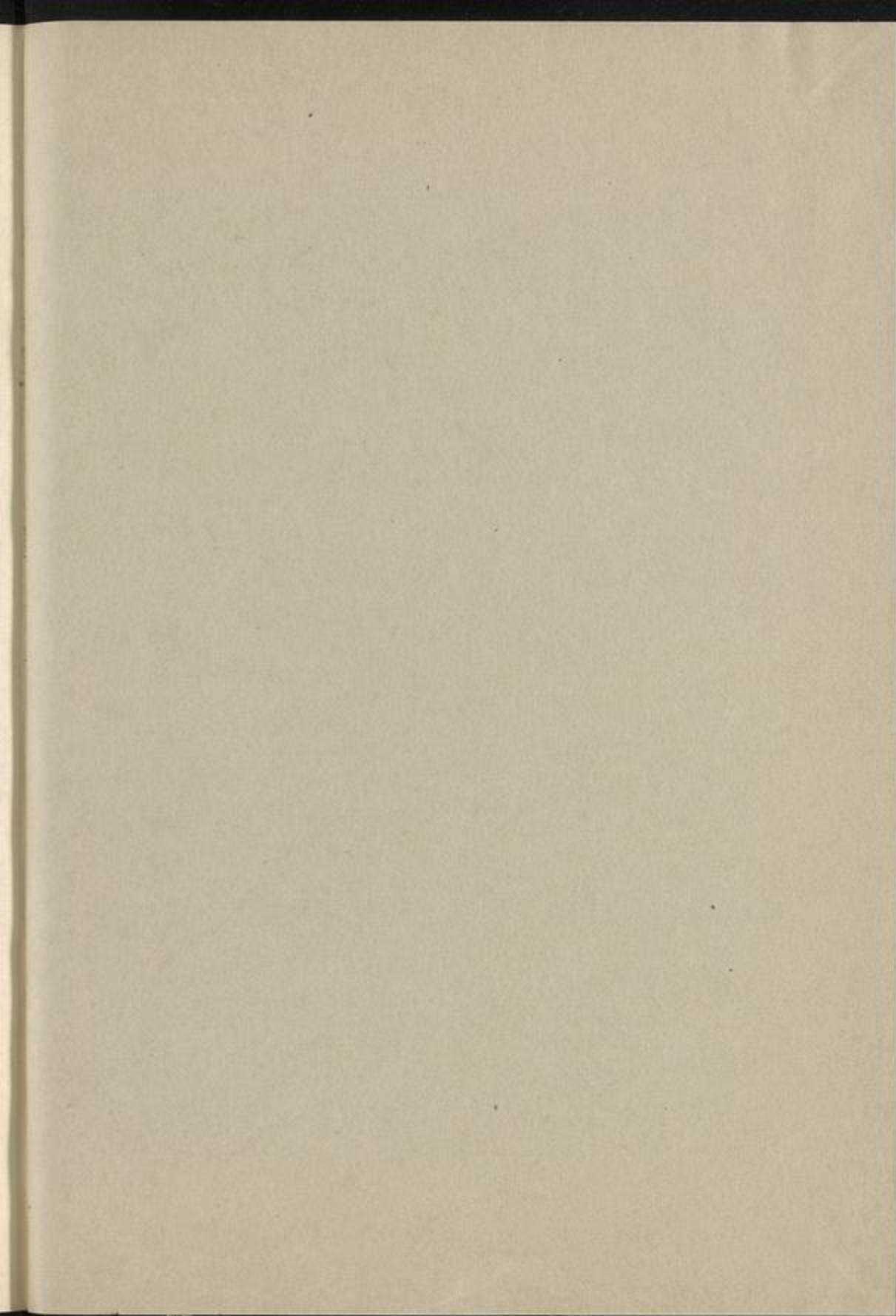


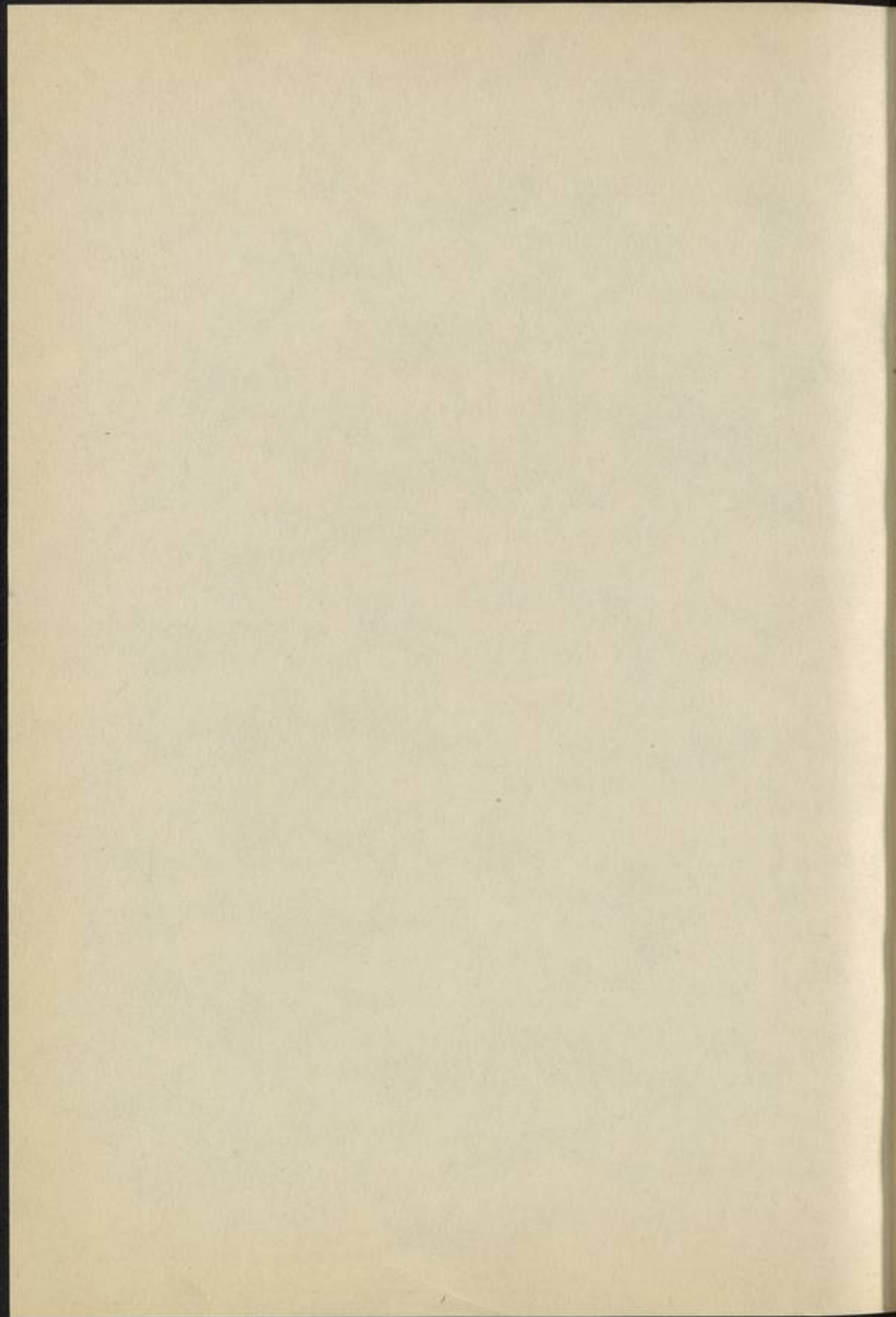
Columbia University
in the City of New York

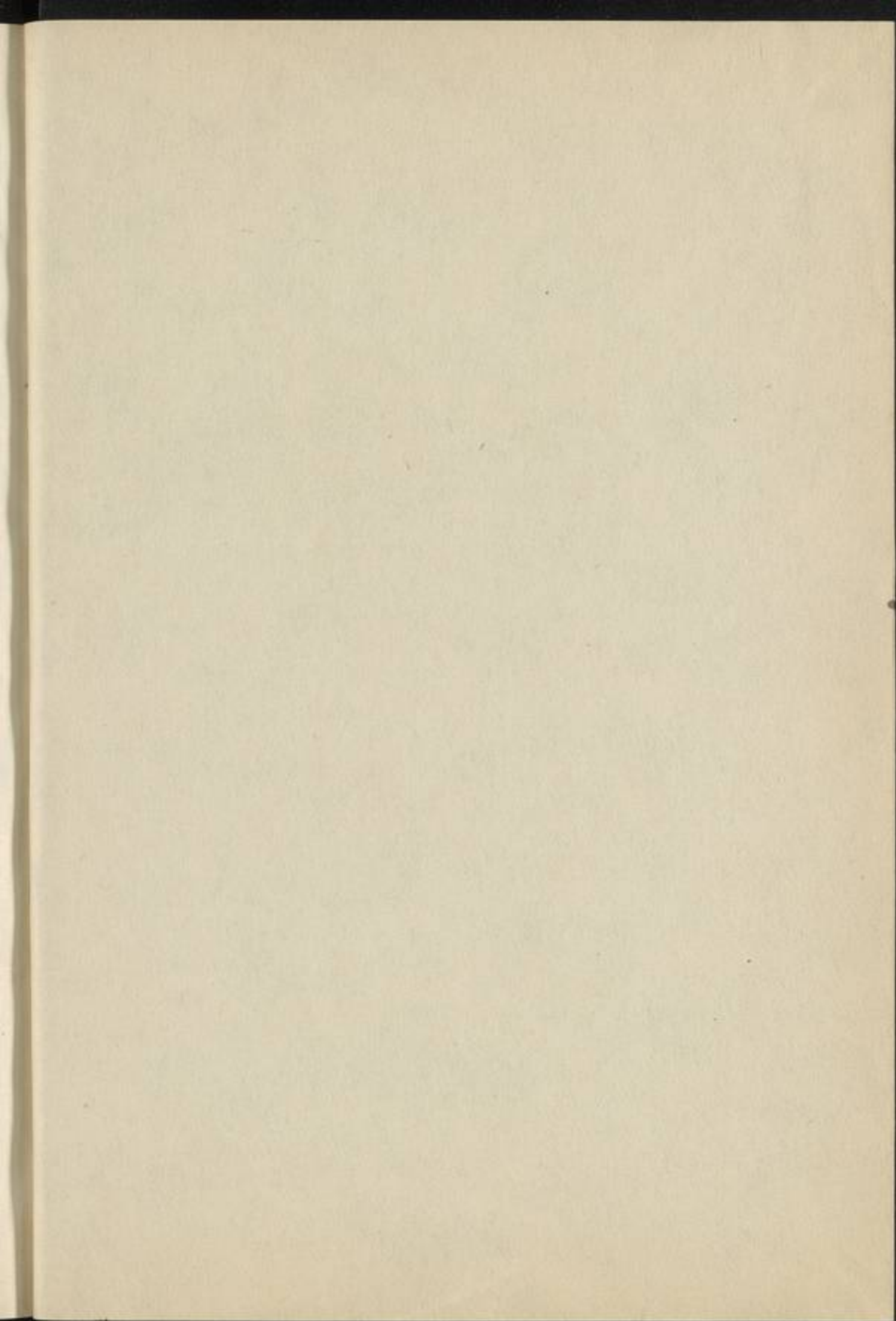
THE LIBRARIES











شَفَاءُ الصَّدُوقِ

بِقِيسِ سُوْرَةِ النُّوْرِ

تأليف

إبراهيم بن محمد بن الحسين

المدرس بكلية أصول الدين

ALBNUJOO
VTIENIVINU
YIARALI

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

طبع بمطبعة الأرشاد لصاحبها (أمين عبد الرحمن الجزيري)

893.7K84

DJ4

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

فهرس كتاب

شفاء الصدور - بتفسير سورة النور

صفحة

١	المقدمة
٤	الكلام على البسمة
٤	ما يفيد لفظ اسم
٧	وجه تقديم الرحمن على الرحيم
٧	الفرق بين صيغتي رحمن ورحيم
١٠	معنى السورة والآية والانزال والفرض
١٢	معنى لعل في القرآن
١٤	الزنا ... تفضيح أمره والعناية باقتلاعه
١٧	حد الزنا واختلاف الفقهاء في تقديره
٢٠	النسخ وأقسامه
٢٤	نكاح الزناة والزواني
٢٥	أقوال العلماء في معنى الزاني لا ينكح الآية وسبب النزول
٣٣	حكمة تقديم الزاني في الآية الأولى والزانية في الثانية
٣٤	حد القذف
٣٦	وجه الاقتصار على المحصنات مع شمول الحكم
٢٧	حكمة الاقتصار على القذف بالزنا

صفحة	
٣٨	آثار القذف
٣٨	معنى التوبة الحقيقية
٤٣	التلاعن وحكمته وسبب النزول
٥٣	قصة الافك وسبب نزول الآية
٥٨	ماحتوته القصة من الخير للمؤمنين
٦٩	الوعيد على حب شيوع الفاحشة في المؤمنين
٧٥	التحذير من مسالك الشيطان في مثل هذه المواضع
٧٨	تقديم مرضاة الله على رضا النفس وسبب نزول ولايات تل أولو الفضل
٧٩	فضل أبي بكر رضى الله عنه
٨٦	الوعيد الشديد على رمى المحصنات الغافلات
٨٨	معنى اللعن في الدنيا والآخرة
٩١	اختلاف المفسرين في المراد من المحصنات الغافلات
٩١	نكتة طريفة في عقاب القاذف
٩٢	سنة الله في شأن الخبيثين والخبيثات والطيبين والطيبات
٩٥	آداب دخول منازل الغير
٩٦	سبب النزول
٩٧	طرق الاستئذان
٩٨	ترتيب السلام والاستئذان
١٠٠	بيان أن حجر أرباب الأعمال كالمنازل في حكم الاستئذان

صفحة

- ١٠٠ عموم حكم الاستئذان للبيوت التي ليس فيها أحد
 ١٠١ حق المستأذن عليه وواجب المستأذن
 ١٠٢ بيان أن الحوادث الخطيرة تبيح الدخول بغير إذن
 ١٠٢ لاجناح في غشيان البيوت العامة
 ١٤٠ النهي عن النظر الى الأجانب
 ١٠٥ كلمة جامعة في السفور والحجاب وشرح حال المستهترين
 ١٠٨ معنى العورة في الرجال والنساء
 ١١٤ نهى النساء عن النظر الى الرجال والتعرض لهن بأبداء الزينة
 ١١٥ إفادة الآية التشديد في الحجاب
 ١١٨ معنى نسائهن والتابعين غير أولى الاربة
 ١٢١ الترغيب في النكاح والرفق بالأرقاء
 ١٢٤ أزمة الزواج وأسبابها الأربعة
 ١٢٧ السبب الأول انحطاط الآداب وفيه مقارنه بين الحضارتين
 الشرقية والغربية
 ١٣٤ السبب الثاني التغالى في المهور والتنافس في الجهاز
 ١٣٦ السبب الثالث إعنات الأزواج في المطالب
 ١٣٦ السبب الرابع زعم صون النسل عن المتاعب
 ١٤١ حكم العاجز عن مطالب الزواج
 ١٤٢ حكم مكاتبه الرقيق وحكمتها
 ١٤٥ تفضيح استغلال الأماء في الجاهلية

صفحة

- ١٤٧ عدم دلالة الآية على تعطيل مفهوم المخالفة
- ١٥١ الكلام في تفسير قوله تعالى : الله نور السموات والأرض
- ١٥٢ معنى النور وأقسامه ومرتبته من الاعمال
- ١٥٤ كلمة للامام الغزالي في معنى النور
- ١٥٦ مثل النور الالهي
- ١٦٢ انقسام الناس في الاستفادة من النور الالهي
- ١٦٥ صون المساجد عمال يليق بها
- ١٦٥ المراد بذكر الله في الآية الكريمة
- ١٧٢ نظرة في الآيات السابقة جملة
- ١٨٢ مثل من لم يهتد بنور الله وهو القعم الثاني الذي لم يستفد
من النور الالهي
- ١٨٤ معنى السراب وموقع التشبيه به في الآية
- ١٨٧ آيات الله الكونية
- ١٨٩ معنى تسميح العالم كله لله وتسميح الطير ونحوه
- ١٩٣ مظهر آمار القدرة الالهية في إزجاء السحاب وتصريفه
- ١٩٦ جلاء الآيات الحية على القدرة الربانية
- ١٩٩ مراوغة المنافقين بعد وضوح اليقين

صفحة	
٢٠٠	سبب الزول
٢٠٨	دلالة الآية على عظم قدره ﷺ
٢٠٩	شرح حال المخلصين في إجابة الدعوة الالهية
٢١٣	وصف حال المنافقين في إجابة الدعوة نفاقا
٢١٨	وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكنين في الدين
٢٢٢	توجيه المؤمنين لافضل الطاعات بعد انضاح الآيات
٢٢٣	فضل الصلاة وسر اقتران الزكاة بها كثيرا في القرآن
٢٢٥	آداب المخالطة في عشرة الأسرة
٢٢٨	سبب الزول
٢٣٤	حكم الفواعد من النساء
٢٣٦	رفع الحرج في شأن مداخلة الأقارب والعاجزين لمن يتصل بهم
٢٤٤	من الايمان ملازمة الجماعة في الأمر العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ،
وأرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات
إلى النور ، وأيده بالكتاب الكريم تبياناً لكل شيء وشفاء لما في
الصدور . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ما تعاقبت ظلمة ونور
أما بعد فقد ورد مجلة نور الاسلام (مجلة الأزهر) — وأنا من الكذابين
فيها — سؤال عن تفسير قوله تعالى: «الله نور السموات والأرض» الآية
فعهد لي بالاجابة عنه ، فنظرت وإذا الآية في سورة النور معقبة لآيات
تتعلق بتنظيم الحياة المنزلية ، وتصون روابط الأسرة ، وتحفظ أواصر
القرابة ، وتبين الحقوق والواجبات في المعاشرة ، والاختلاط بين الجنسين
الرجال والنساء ، وذلك كله دواء شاف وعلاج ناجع لما أصابنا في هذه
الآونة من أمراض في هيئتنا الاجتماعية، حلت روابطنا ، وفككت
عرانا . فخداني ذلك إلى الشروع في تفسير السورة بتمامها مما يصل بي
إلى تفسير الآية الكريمة المسئول عنها (الله نور السموات والأرض) .
ولم أر في ذلك إبعاداً مؤثماً للسائل ، فما اتعدت قليلاً عن طلبته إلا
إكمالاً لفائدته وفائدة القارئین وفائدتنا معهم إن شاء الله تعالى .

ولقد نشرت المجلة ذلك التفسير في أعدادها تباعا . وقد كنت بذلت في تحصيله — يعلم الله — جهدا استطاع . فأخصت زبدة ما اخترته من كلام أئمة التفسير ، وضممت إليه ما فتح الله عليّ به أثناء التدبر في آيات الذكر الحكيم ، مما نشرح له صدرى ، وراق في نظرى ، وهدبه فكرى ، وصغت ذلك كله في قالب يناسب ذوق أهل عصرى ، وخصصت بالبسط والاسهاب مواضع لها أكبر مساس بحياتنا الاجتماعية ، وتداوى أمرنا الخلقية ، وتهذب عاداتنا القومية ، وتعديل اعوجاجنا السرى في طبقاتنا المختلفة فأنحلت به روابط الأمة الموثلفة ، فأصابنا التخاذل والتدابر ، وأصبح شعارنا الشكوى والتلاوم ، وضعف فيما بيننا أداء ذلك الواجب الذى كنا به خير أمة أخرجت للناس ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولقد صرفت ما استطعت من قوتى في إحماض النصيح لأمتى ، وبذلت ميسورى ارضاة ربى وإراحة ضميرى ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولقد رأيت لذلك بعد نشره محسن قبول لدى المصنفين ، وكبير تشجيع لى على الدأب فى هذا الأسلوب الرزين الرصين ، واتجهت إلى رغبات كثيرة وأسئلة متواليه من أهل الفضل الذين حسنوا بى الظن ، ممن سبقت لى بهم معرفة ولقيا ، ومن عتمدت صلتى بهم على غير تلاق لا شترا كنا فى خدمة العلم والابن — والعلم رحم بين أهله . رغبوا إلى أن أجمع متفرق هذه الكلمات فى كتراب واحد يجمع شتاتها ويضم شملها وينظم لأنثها — ونظم اللاسى ، ويجلوزينتها ، بل قد يزد من قديتها — فرأيت ذلك أصون لها

وأعون على الانتفاع بها ، ورجوت من الله أن يكون لي من وراء ذلك نفع
 في ديني وزلفى إلى ربي . فاعتمدت عليه وعزمت على نشرها بمجموعة بين يدي
 القراء ، سائلاً المولى القدير أن يجعلها من عمل الخير ، يوم تجد كل نفس
 ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء توذلو أن بينها وبينه أمدا
 بعيدا وسميتها «شفاء» ، الصدور بتفسير سورة النور»

اللهم إنا نرجو رحمتك ، ونخاف عذابك . ونحذر بطشك . اللهم إن
 الترفيق منك والمرجع اليك ، ولا إله غيرك ولا خير إلا خيرك ، فوفقه للماتجبه
 وترضاه ، وانفع بها كل من طالعها ، وانفعني بها في ديني ودنياي وعاقبة
 أمري ، إنك على كل شيء قدير !



سورة النور

هي السورة الرابعة والعشرون وآياتها ثنتان وستون
وقيل أربع وستون وهي مدنية إجماعا . واستثنى بعضهم آية :

« يا أيها الذين آمنوا ليستبذنكم الذين ملكت

أيمنكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم »

والاكثر على أنها مدنية أيضا

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

لقد كثرت الكلام في تفسير البسمة حتى أفردتها بعض الأفاضل
بمؤلفات قائمة بذاتها واقفة عند حدها . ولست بصدد الافضة والاطالة
بسردها النقول المتعارفة لدى الجمهور ، ولكنني أجترى بأقرب حدود
الفائدة ، سهلا الله لنا ، ويسر لنا سبلها :

البسمة

(بسم الله) الباء هنا للاستعانة ، وليست هي الباء التي
تسمى بـاء الآلة مثل التي تذكر في قولك : كتبت بالقلم أو قطعت
بالسكين ، فان معناها في المثالين المذكورين مقصور على أن مدخولها
كالتسم أو الشرط لما تعلق به من الأفعال . وإنما هي لتبيين المستمد
الأول والمنشأ الحقيقي للفعل الذي تعلق به ، فهي بمثابة الباء التي تسمعها

في الاستعمالات التي من هذا القبيل — تسمع مثلا بعض القضاة حين ينطق بالحكم يقول : «باسم الملك حكمت المحكمة بكذا» ، ومعناه أن القاضي كأنه يقول : إني بحسب شخصي لأملك على هؤلاء الخصوم نيتيا ولا إثباتا ، فإذا سلطت عليهم ومكنت منهم فذلك إنما هو مستمد من صاحب السلطة العليا ، وإذا خضعوا لي فأنا هم قد خضعوا لها ، فالقوة التي مكنت بها من إصدار هذا الحكم إنما هي هذه الجهة . ومثلها يقول بعض الحكماء لمن رأى منه إجراما : «باسم القانون أقبض عليك» . معناه : إني في سلطتي وهيمنتي عليك ووجوب خضوعك لي أستمد قوة من جهة لا قبل لك بمعارضتها والخروج عايبا ، فهي الجهة التي لا تناوأ ، ومصدر الهيمنة التي يجب الخضوع أمامها ، وتسايم القياد لمن التجأ إليها .

على هذا النحو نفهم معنى الباء في قول المبتدئ في أمر من الأمور : «باسم الله» : فعناه ، أشرع في عملي مستمدا القوة والتأييد للنفوذ فيه وإتمامه حسبما أريد من مصدر جميع القوى وواهب كل القدر ، ومسخر جميع العوالم ، ومدبر كل الأمور ، فأنا نافذ في فعلي بقدره لا قبل لأحد بمعارضتها ولا الوقوف في وجهها . كيف وأنا أعمل عملي باسم الله وواهب القوى والقدر ، ومسخر الشمس والقمر ، والمهيمن على جميع البشر ؟ رأيت كيف تكون هذه البداية شادة من عزم صاحبها ، مثبتة من إرادته ، مؤيدة لقوته . فهذا من حكمة طلب الشارع البدء بها في كل أمر خطير ذي بال .

ولعلك ترى أن هذا المعنى الذي شرحناه لا يدركهم باستعمال الباء إلا إذا قرنت

بلفظ الاسم ، وأتينا إذا أتينا بالياء بدون ذكر الاسم عقبها لتفيد هذا المعنى الذى نشير اليه . واعتبر إن شئت أمثال هذه العبارات : « تجبى الأموال باسم فلان » « تجمع التبرعات باسم فقراء المدينة » « تجمع الاكستات باسم الجمعية الخيرية » ، فانك تجد المعنى فيها وفي أمثالها على ماشر حناه لك . ولاتوهم أن معنى الباء هنا هو معنى اللام في قولك إنها تجمع للفقراء أو للجمعية ، كلا فان اللام يشار بها الى الغاية التى يقصد العمل من أجلها . وأما الباء فانها تشير الى أنه يستمد القوة فى مطالبته ، من تلك الجهة التى لها فى النفوس أثر خاص ، ولو لاها ما استطاع أن يدور جها را على الناس يستجديهم ويستندى أكتهم ، فقد كان له من الحياء ما يمنعه أن يعرض وجهه على الناس بهذه الصورة ، إذ لو لا أنه يجمع باسم الفقراء ويستمد القوة فى المطالبة من الاستناد اليهم وأنه يصد معوتهم ، ما كان له أن يتصدى للطلب من هؤلاء العطاء وما كان ليؤبه له أو يلتفت الى طلبه .

أرأيت أن زيادة لفظ (اسم) تفيد معنى لا يستفاد إذ لم تكن هذه الزيادة ؟ وعلى ذلك لا يكون هنا عمل للقول إن الاستعانة بالذات لا بالاسم فكيف يقال : باسم الله ، ولم لم يقل بالله . ولا حاجة أيضا الى البسمت فى أن الاسم عين المسمى أو غيره ، فكل ذلك بمعزل عما يقصد فى مثل هذا التركيب ، فان الغرض من ذكر الاسم فى مثل هذا هو الرجوع بالذهن الى ما وقر فى نفوس السامعين من تمجيد واحترام وقوة ورهبة لصاحب هذا الاسم . وكان لفظ الاسم الغرض منه تحضير المسمى فى نفس السامع بكل ما يتصل به من معانى التبجيل والتعظيم .

ولفظ الجلالة اسم للذات الأقدس الجامع لكل صفات الكمال: من صفات تزيه وصفات تمجيد، فهو مشعر بالعظمة والقدرة والسلطان، والقوة العظمى التي لا تجارها قوة ولا تعارضها قوة. فلا غرو أن اختير من بين أسمائه الحسنى للبدء به استمداد للقوة والتأييد.

واختيار اسمي (الرحمن الرحيم) بعده لأن المستعين يطلب العون من القوى المتين استرحاماً لا استحقاقاً، فهو ينادى بلسان حاله: إني أطلب العون وأستمد القوة والحول والطول من باب الاسترحام، وهو الرحمن الرحيم الذي لا يظن على من استرحمه برحمته.

وأما هاتان الصيغتان (رحمن) (رحيم) فقد كثرت الكلام في بيان الفرق بينهما، واشتهر أن معنى الرحمن المنعم بالنعمة الجليلة العظمى: كنعمة الوجود والايان والتكريم وأمثال ذلك. والرحيم المنعم بالنعمة الدقيقة التي تعتبر كالتميم للأولى: كتنسيخ عمل جزئي، وتتميم حالة فرعية مما يتساهل في أمره. وعلى ذلك يكون ذكر الرحيم بعد ذكر الرحمن من باب التتميم، ويكون البدء بالأهم ثم يكمل بما يفيد الاستغراق لكل النعم، وأنه مصدر جميع النعم ما جل منها وما قل. وهو معنى حسن وإن كان يلوح أن أحسن منه أن يرجع في تفسير هاتين الصيغتين إلى ما كثرت إرادته والاشارة إليه في استعمالتهما.

إن هاتين الصيغتين (فعالان وفعيل) من صيغ الصفة المشبهة، أي أنهما يدلان على الذات باعتبار ثبوت وصف لها وقيامه بها، وهذا معنى غير ماتفيدة صيغة فاعل، وهو إيجاد الفعل وإحداثه، إلا أن بين الصيغتين فرقا

يظهر من تتبع استعمالهما، فنجد لفظ فعلا ن يدل على ذات اتصفت بوصف يبدو عليها آثاره ، مثل قولك فرحان وغضبان وسكران وتعبان وأمثالها ، وصيغة فاعيل تدل على الذات المتصفة بوصف قد تأصل فيها تأصل الملكات الراسخة ، مثل كلمة كريم وبخيل وشحيح وشريف ونبييل ؛ فانك تعبر بكريم مشيرا الى تأصل صفة الكرم فيه وورسوخها في نفسه بقطع النظر عن كونه يعطى الآن أو لا يعطى ؛ ومثل البخيل وشحيح ، حتى لقد يتبرع الشخص أمامك بشيء له خطر وتقول إنه رغما عن ذلك هو شحيح بخيل وإنما يتبرع لغرض في النفس ظهر أو لم يظهر ؛ في حين أن آخر لم يتبرع وتقول إنه مع هذا كريم وربما منعه مانع من التبرع كضيق ذات يده أو اشمزازه من الأسلوب الذي يستعطي به أو مماثل ذلك ، ولكنك لا تشير بكلمة فرحان أو غضبان الى شخص سجيته الفرح أو الغضب ، الأ ترى الفرق بين قولك غضبان وغضوب مثلا ؛ الأ ترى أنك تقول إنه غضبان مع أنه ليس بغضوب ، أو إنه ليس بغضبان مع أنه غضوب ، فلا بد لذلك من سبب ؛ ومماثل ذلك ، تريد أنه تبدو عليه آثار الغضب وليست ملكة الغضب متأصلة فيه ، وفعول وفعيل أخوان .

إذا عرفنا هذا استطعنا أن نزل عليه ما نفهمه من صيغتي رحمن ورحيم ، فيكون معنى رحمن من تتجلى آثار رحمته وتبدو للعالم مظاهرها في كل أنحاء الوجود ؛ فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وهو رب العالمين ؛ يتعهد الجميع بآثار إحسانه وفضله . ومعنى رحيم من كانت الرحمة فيه متأصلة راسخة ؛ لا من تكون الرحمة فيه معتملة متكلفة ، ويكون

البدء بالرحمن لأنه دال على مظاهر الرحمة التي تبدو فتعرفها النفوس، ثم يستدل بها وتكررها على أن الاحسان والرحمة ثابتة راسخة كثبوت الملكات الراسخة في النفوس؛ والله المثل الأعلى، والافهو لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء؛ ولا يعبر في جانبه بالملكات، ولكنه التقريب في التمثيل للشرح والتوضيح؛ ويكون تقديم الرحمن على الرحيم من باب تقديم الدليل على النتيجة، فان ظهور الآثار على كثرة اطراد، دليل على تأصل الوصف عند صاحبه. ثم يكون اختيار وصف الرحمة في البداية — على ما سبق تقريره — تربية معنى التعلق النفسى بالمعونة الالهية؛ وأن يرجوها بمقدار ما يلاحظ رحمته عز وجل، فيكون ذلك أشد لهمة، وأمضى اعزيمته، وأرجى أن يمد بالعون منه جل جلاله حتى يبلغ عمله كماله المطلوب له.

و... ١٠٠... ١٠٠... ١٠٠... ١٠٠...
 (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينت لعلكم

تذكرون):

السورة جملة من القرآن الكريم مستقلة بذاتها، ذات بداية ونهاية معلومتين شرعاً بالتوقيف. وهي تشتمل على آيات أقلها ثلاث. وأصل تسميتها من السور وهو البناء الذي يحيط بالمدينة، لأنها تحيط بالآي المشتملة هي عاينها إحاطة تحدها ولا تدع باباً للزيادة عليها ولا للنقص عنها. أو من السورة بمعنى المنزلة والمرتبة، فإن كل سورة من القرآن من قرأها وفهمها حق فهمها فقد وصل إلى منزلة من العلم ومرتبة حقه أن يعنى بها ويغتبط باحرازها. وكلا الوجهين فيه حكمة لتقسيم القرآن سوراً، فإن القارىء إذا حفظ جملة مستقلة بمبدئها ونهايتها حق له أن يستريح إلى ما أحرز ويبتهج بما نال، إذ تم جملة صالحة للوقوف عندها قد جعل لها الشارع معنى مستقلاً عما قبلها وما بعدها. وللنفوس عادة استراحة حين وصولها إلى تمام شيء تعالجه وإن كان سيليه آخر من نوعه، كالمسافر يقطع مرحلة فيتنفس بالراحة ثم يستأنف السفر بنشاط جديد. وكذلك تسر النفس إذ تشعر أنها أحرزت منزلة خاصة، وحازت مرتبة معينة من الفضائل والفوائد والأحكام قد جعل لها الشارع قيمة معينة بما جمع من أحكامها وآياتها نسق واحد. فكل من حاز مرتبة منها فقد أحرز شيئاً كاملاً يبعث سروره ويوجب غبطته.

والانزال الوحي من الله تعالى إلى نبيه، على لسان جبريل أو بدونه

كما قال جل شأنه: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا). والتعبير بالانزال أو بالتنزيل، لأن مصدر هذا الوحى هو العلى الأعلى، فكل ما سواه فهو نازل. ومعلوم أن العلو هو العلو الرتبى، إذ ليس للبارى جل وعلا مدن ولا جهة، أو لأن الملك الذى ينزل به ينزل من جهة السماء، وهو من الملائكة على. وذلك علو حسى. ومعنوى أيضاً، باعتبار علو منزلة الملائكة عامة على الانسان فى الجملة، وذلك لا ينافى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الإطلاق والفرض الحزبى فى الشيء، والقطع غير المستأصل، ومنه قيل لموضع القوس من الوتر فرض، سمي به الأمر الجازم لما فى الحزم من الثبات وعدم المحو، ومنه جاء قوله تعالى فى بيان الجزم فى الأمر: (فاصدع بما تؤمر) أى بلغ ما وحي اليك بلا غا جازم مؤثراً أثراً ثابتاً لا يمحي كالصدع فى الزجاج، وعلى كل حال فمعنى القطع فى تحميم الأمر مستفيض بأى لفظ ورد كالبت والجزم. والآيات جمع آية، وفى الأصل العلامة والأمرة، تقول: آية ما بينى وبينك أن أشير بكذا أو أرسل كذا، وأكثر استعمالها فى الشئون ذات الخطر. فهى بهذا تفارق السمة والعلامة، وتطلق على العبرة لأنها علامة ودليل على عظمة قدرة الخالق وعلو سلطانه وقهره، وإطلاقها على الجملة من القرآن الكريم، لأنها بما احتوت عليه من إعجاز أو حكمة بالغة أو خبر عن غيب أو مماثل ذلك، علامة على صدقه صلى الله عليه وسلم فى أنه إنما يبلغ عن ربه. والبيّنات جمع بينة، من بان بمعنى اتضح، ووضوحها إما فى ذاتها

وإما في دلالاتها على ما قصد منها وما أقيمت شاهداً على صحته ، ومنه
 البيئنة بمعنى الشهادة ، لأنها واضحة الدلالة على صدق ما قامت عليه .
 و(لعل) في أصلها الترجي ، وهو توقع أمر مرغوب فيه ، أو للترقب
 وهو توقع أمر مخوف مكرره ، وهذا المعنى محال في حقه جل شأنه ، فتحمل في
 كلامه عز وجل على التعليل ، أي أن ما بعدها علة لما قبلها ، فهي كاللام
 التعليلية ، إلا أنه يفرق بين مواقعها ومواقع اللام ، بأن اللام وكى
 وأمثالهما تقع في القرآن العزيز وفي بليغ الكلام لبيان العلة المؤدية إلى
 المعلول حتماً ، وأما لعل وعسى فانهما اللعالية بمعنى التهيئة للحكم المعلن بها
 وتيسير أسبابه ، ويبقى لتحقيقه توجه المخاطب أو اختيار من تعلق به
 الحكم . ومحصل ذلك أن التعليل باللام يكون في العلة المكتفية
 بنفسها ، والتعليل بعسى ولعل للعلة المتوقفة على اختيار المختار ، وقد
 تستعملان بمعنى الترجية ، أي حمل المكافئين على الترجي ، كقوله تعالى
 (عسى ربكم أن يرحمكم) والتذكر معناه استحضار معلومات كاملة في
 النفس غائبة عنها

بدأ جل شأنه هذه السورة الكريمة بما هو متحقق في كل سورة ؛
 وهو (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات) فمما من
 سورة من سور القرآن الكريم إلا وهي سورة أنزلها جل شأنه وفرضها على
 عباده ؛ فرض الأذعان لها والتصديق بما فيها ، والعمل بما احتوت عليه
 من أحكام إن كانت من سور الأحكام ، واعتقاد أنها من عند الله ، وأنزل
 فيها آيات بينات ، وإنما اختص هذه السورة بهذه البداية لتربية الاتقيا

في نفس سامعها ، والتفطن لما سياتي عليه فيها ، تنويها بشأنه وتعظيمه ،
 مثل ذلك — والله المثل الأعلى — مثل أن تقول لمخاطبك في أمر تعنى به
 فضل عناية وتهتم به عظيم اهتمام ، تقول له : « كلمة أقولها لك » أو « موضوع
 ألقىه اليك » أو « مسألة عرفها لك » وما من كلام تحدث به مخاطبك إلا
 وهو من هذا القبيل ، وإنما تريد بذلك أن تسترعي انتباهه وتوجه
 اهتمامه . وكذلك إذا تحدثت إلى عظيم في شئون شتى ثم أردت أن تعرض
 لأمر أنت به جدمهم فتقول له « كلمة أريد أن أقولها » فانك ترى منه
 حينئذ ما يدل على أنه أعطاك إصغاء خاصاً ، فتقولها وأنت واثق من
 إحرارها سمعه وانتباهه .

وإنما عني في هذه السورة بذلك لأنها جاءت في شأن من أخطر شئون
 الحياة ، وهو صون الحياة المنزلية مما يهددها من أخطار الأمراض ،
 وتنظيم الخلطة بين الناس على وجه يكفل الخير ويبعد عن الشر ، فقد
 تضمنت حكم من لم يحفظ فرجه من زانية وزان . ومن هذا يظهر سر
 مناسبة هذه السورة لسورة (قد أفلاح المؤمنون) التي فيها قوله تعالى :
 (والذين هم لفروجهم حافظون) فكانها عود على بدء ، وإن بيان شأن
 الفروج وأحكامها ، وما يجب أن يراعى في حفظها ويحتاط به لصونها
 بياناً شافياً وافياً ، لأنه من أخطر أمور الحياة وأشدّها تعلقاً بنظامها
 ودوام سعادتها . ثم بين ما يجب للأبضاع من الحرمة والصون ، حتى عن أن تنال
 بقذف بالكلام ، ورتب الأحكام الشديدة على القذف ، وساق قصة الافك
 ببسط الآداب والأحكام المتصلة بتلك القصة ، تنبيهاً على عظم خطره . وتلا

ذلك الأمر بغض البصر ووصون الأجسام عن التبذل والتكشيف. وأمر النساء بالاحتشام والتستر، وكل ذلك من توسيع الحجب الذي تجب صيانتها في سبيل صون الفروج وحفظها، ثم الأمر بالاستئذان حذرًا من مفاجأة النظر لما لا ينبغي أن يطلع عليه، ثم الأمر بالانكح، وأمر من لم يقدر بالاستعفاف، والنهي عن إكراه الفتيات على البغاء، وهكذا من الارشادات التي لا تستقر السعادة في منزل لم يكن مستمسكًا بها أتم استمساك، وجاء بعد ذلك وما يتعلق به قوله جل شأنه: (اللهم نور السموات والأرض) على ما يتضح وجه الجلال فيه إن شاء الله تعالى ومما يزيد أحكام هذه السورة عناية فوق ما تقدم أنها تعالج مرضًا قوي الاستحكام في النفوس؛ قوى التأثير فيها، قوى المأخذ والأسباب المؤدية إليه؛ وذلك هو طغيان القوة الشهوية في الإنسان حتى تخرج به عن الحد الذي رسمه لها العليم الحكيم؛ وحسبك من قوة هذا الشر أنه شريعتعاون فيه نفسان على نفس كل منهما التفسد عليه عقله ودينه. فالرجل مثلاً يداعب المرأة ويخاتلها حتى يسلب منها عفافها ويعبت بصيانتها وعصمتها، ونفس المرأة وما جبلت عليه من شهوة مستحكمة فيها تساعد ذلك الرجل الصائل على نفسها، لأنها هي تشاركه في هذا الأرب، فتتعاون نفسها ونفسه الشريرتان على ما فيها من عاطفة خير من حياء أو دين، أو حمية لعرض أو أسرة؛ وعاملان ضعيفان يغلبان قويا؛ فما بالك برغبتين قويتى الحياة واليقظة يتسلطان على عامل الحياء أو الدين الذى يضعف رويداً رويداً، حتى يتوارى ويستنم مغلوباً على

أمره ، لكثرة المداعبات أو المخاتلات التي كل مرة منها تترك في النفس أثراً سيئاً يبعدها عن الخير ويقربها إلى الشر . وكما تقول في مداعبة الرجل للمرأة حتى يغيبها على نفسها تقول في مشاغلة النساء للرجال بالتعرض والتبرج ، والصدقارة والذنو أخرى من وسائل الشيطان وحبائله . ولا تنس خطرات الشيطان بينهما وسفارته لهما حتى يحيك الشرك ويقتنص الزريسة بل الزريستين ، بما يلقيه في روعهما من تسهيل الخطر واغتنام الفرص ، وهكذا تغفل النفس عن دينها وأدبها وربها . وهنا يجيء قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أي أنه لا يمكن أن يكون حاضر الايمان مستحضراً لما يعتقد من عقيدة راسخة في نفسه ؛ فلو أنها حضرت في ذهنه حينئذ لاستحال أن يقترب من تلك المعصية ؛ فانه حينئذ لو لم يمنعه الخوف من العقاب ، لمنعه الحياء من على الجنب .

وانظر تعجيب الحريري في قوله : « تستحي من مملوكك ، وأنت بمرأى مليكك ! » فهل تظن أن الرجل الذي يستخزي حين يطلع خادمه على خشه ؛ وتضيق رغبته المستحكمة لسماع صوت يخشى أن يكشف سره ولو لم يملك شيئاً من أمره - أترادى مستحضر في ذهنه أن الله مطلع عليه يعلم سره وعلايته ، ولا يخفى عليه منه شيء ؛ أليس هذا غافلاً إلى درجة تشبه الإنكار عن علم ربه وقدرته ؛ حكى أن رجلاً عثر بامرأة فامتنعت عليه ؛ فقال . ماذا تخشين ولا أحد يرانا سوى الكواكب ؛ فقالت : فأين مكوكها ؛ فكاد يصعق ، وفر هارباً منها ، ألا يعطيك

هذا معنى واضحاً لحديث « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ؟
 هذا في قوة داعية الزنا وعوامل اقتحام هذا الحى المصون . أما
 آثاره السيئة وتناججه الممقوتة فأكثر من أن تحصى ، وأظهر من أن
 تشرح . وناهيك بجريمة يرتكبها صاحبها وهو جذلان مسرور ،
 بينما يجنى على نفسه باغضاب ربه وتعرضه لشديد عقابه ، وعلى خليلته
 بهتك عرضها وتعريضها لاقتراف كبيرة وهى لاهية مسرورة ،
 وتدنى شرف أمرتها وإلحاق العار بأهلها ولم يقتروا من جرمها
 شيئاً ، ثم الجناية على الجنين الذى قد يولد بينهما فيعرض للقتل وهو
 الغالب ، أو الضياع والنفرة منه ، والعار الملازم واحتقار كل من عرفه ،
 أو الجناية على بعلها إن كان لها بعل ، وعلى أولاده باقحام شخص غريب
 بينهم يشاركهم بلا حق فى رزقهم وشرفهم واستهم وكل خواصهم . ثم
 يتبع ذلك آثار وأحكام لا يعلمها الاعلام الغيوب . فاذا نظرت الى الاضرار
 الصحية وما أثبتته الطب من مضار الزنا مما أفردت له التآليف ، تبين
 لك الضرر مجسماً

وبعد فان هذا الأمر الممقوت متى وقع فيه شخص مرة استمر أه
 وأحب التنقل فيه ، فلا يزال يحيك شركه لا يقاع الأبرياء فى وهدته
 حتى يتفاقم الشر ويزيد الضرر ، وكلما جاء عامل جديد فتح به باب من
 الشر جديد ،

هذا شىء من نتاجه السيئة ، وذلك شىء من عوامله ودواعيه
 القوية . فهل يستغرب أن يكون الأسلوب فى علاجه هو أن تجمع

الأذهان وتسترعى النفوس لما يلقى عليها في شأنه من الأحكام المفصلة والآيات البيّنات لعلكم تذكرون؟ أجل: إن ذكر الأحكام الزاجرة على الوجه التفضيلي، وتنوع الأساليب المنبهة لما فيه من مزلق للنفوس الغافلة، ومسالك للشيطان والأهواء، مدعاة للذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين

وقد قرىء فرضناها بالتشديد؛ إما على معنى فصاننا فرائضها تفصيلاً يعين على الذكرى، وإما على معنى أكثرنا فيها من الفرائض والأحكام، أول كثره المفروض عليهم بكثرة الأحوال التي تمس هذه الأحكام وتتعلق بها، وهي أحوال لا تكاد تخلو أسرة بل فرد منها ومن التعرض لها. وقولنا: «يعين على الذكرى» يوضح لك التعليل في لعل، وأنه غير التعليل باللام وكى ونحوهما.

حد الزنا

قال تعالى: « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »:

الزنا: الفجور المنكر. ولا نقول الفجور المعروف، فهو أبعدهما يكون عن المعروف. ويعرفه الفقهاء بأنه الإيلاج في القبل أو التمكين منه سواء حصل من الرجل أو المرأة، فكل من الموج والممكن يسمى زانياً. والجلد: الضرب، وأصله إصابة الجلد واستعمل في مطلق الضرب

أصاب الجلد أو كان على حائل ، بشرط ألا يمنع الألم . وقيل : الجلد الضرب بالجلد كسوط ونحوه . والأخذ الحيازة . والرأفة الشفقة والتلطف في المعاملة ورقة القلب ، أو هي أبلغ الرحمة التي هي رقة القلب . ومعنى هذا التعبير التحذير من أن تؤثر الرأفة في العزيمة فتصرف الشخص عما صمم عليه . وأصل ذلك أن الآخذ يستولى على المأخوذ وينطلق تصرفه فيه حسبما يريد ، فكان الرأفة إذا أثرت فيه على وفق مقتضاها وصرفت عزمته عن وجهتها تكون قد استولت عليه وأخذته ، ومثل ذلك : لا تأخذه في اللومة لأثم . أى أن اللوم لا يؤثر فيه ولا يتصرف في إرادته كما يتصرف الحائز فيما يحوزه . وهو من أبلغ الأساليب في التعبير

وقوله تعالى : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » من باب إلهاب الحمية واستنهاض العزيمة ، وتقرير التصميم باسناده إلى أعز شيء في النفس وهو الإيمان ، كما تقول لمخاطبك : إن كنت رجلا فلا ترتكب ما يخل بشرف الرجال ، وكقولهم : الرجل المهذب لا يبصق في الطريق ، وهو شائع في الاستعمال ، وليس معناه أن ترك ذلك مكفر مناف للإيمان . والطائفة الجماعة المحيطة بالشيء ، من الطواف وهو الدوران حول الشيء . وقد اختلف الفقهاء في تحديدها هنا : فمنهم من قال : أربعة ، ومنهم من زاد ، ومنهم من اكتفى في التشهير بواحد

وهذا أول الأحكام التي تشتمل عليها هذه السورة الكريمة ، والتي مهد لها بهذه البداية العظيمة في أول السورة الشريفة . وقد بدأ به لأنه أهم ما تنبه النفوس إلى خطره ، فهو الخطر الأكبر في هذه

المواضيع ، وما قرر منه هو المقصود الأعظم في هذا التشريع ، وبقية الأحكام الآتية شرعت من أجله وفي طريق تحقيقه ، فهو مركز الدائرة والنقطة الجوهرية ، وما حوله كحصى يرمى لرعايته ، ويصان توصلاً لصيانتها

وقد جاء في حكمه عقوبة دنيوية غير العقوبة الأخروية ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى — تلك هي عقوبة الجلد لغير المحصن ؛ والمحصن هو من وطئ في زواج شرعي صحيح . فحده الرجم بالحجارة حتى يموت . وفي الجلد فوق أنه مؤذ معنى الاحتقار وإسقاط منزلة الزاني عن معنى الانسانية ، وإحاقه بالحيوانات العجائز التي لا تعرف التأديب إلا بالضرب . ولا ينفع معها زجر ولا نصيح ، ولا بيان محجة ولا إقامة حجة ، فكأنه تجرد عن الانسانية والنهم باللسان ، ولم يبق له الاضرب الجلد وإبجاعه ، فهو الوسيلة الوحيدة لفهمه كالبهائم ، وكما يقول القائل :

العبد يقرع بالعصا والحمر تكفيه المقالة

وهل العبد إلا متاع في المعنى ملحق بالحيوانات العجائز ؟ وزادت الآية في التعذيب معنى آخر يدرك النفس الانسانية للزانيين إن بقيت لهما نفس إنسانية ، وهو معنى التشهير والفضيحة : فجعل ضربه أو ضربهما أمام طائفة من الناس ، ليكون الخزي والعار أبلغ وأكمل في حقهما ، وكان الناس قد شهدت تجريدهما من إنسانيتهما فلا حق لهما في إعادة الاعتبار ودعوى الافتخار . وزاد بعض الفقهاء في ذلك تغريب عام ، استناداً للحديث الشريف «البكر بالبكر جلد مائة

وتغريب عام « وهو زيادة في السنة على ما أفادته الآية . ومثله لا يسمى نسخاً لأن النسخ هو إلغاء حكم ثبت ، وهذا زيادة حكم لم ينف ، فان إثبات حكم لا ينفي ثبوت حكم آخر معه

وبعض الفقهاء يرى أن الاقتصار في مقام البيان يفيد الحصر ، فيكون مدلول الآية أن حد الزنا للمحصن هو الجلد لا غيره ، فإذا جاءت زيادة كتغريب أو غيره كانت نسخاً لحصر الحد في الجلد المفاد بالآية ، والنسخ لا يكون إذا كان المنسوخ أقوى من الناسخ ، وليست السنة الأحادية في قوة الكتاب فلا تنسخه ، فاقتصروا في الحد على الجلد ولم يضيفوا اليه التغريب . هذا في حد الزاني غير المحصن ، وأما المحصن فحدّه الرجم كما سبق . وقيل حده الجلد مع الرجم . والأول رأى جمهور الفقهاء ، والثاني ، وهو الجمع بين الجلد والرجم للمحصن ، رأى الظاهرية ورواية عن الامام أحمد ، وعنه رواية أخرى توافق الجمهور وهي الاقتصار على الرجم في حد المحصن . وقد روى عن علي أنه جمع في محصن بين الجلد والرجم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الثيب بالثيب جلد مائة ورمى بالحجارة » أو « ورجم بالحجارة » . فاذا قيل بالجمع بينهما في حد المحصن فلا يكون هناك نسخ الاعلى رأى من يرى الزيادة على الحكم نسخاً ، لأنها نسخت قصر الحد على الجلد المستفاد من الاقتصار في مقام البيان على ما سبق

وأما اذا جرينا على رأى الجمهور من قصر حد المحصن على الرجم وحده فيكون في الآية نسخ أو تخصيص ، لأن الزانية والزاني عام

للمحصى وغيره ، وقد خرج عنه المحصى بحكم آخر وهو الرجم ، فيكون تخصيصاً . وبعضهم يرى التخصيص نسخاً لازالة عموم الحكم ، وبعضهم لا يراه لبقاء الحكم في البعض ويقصر النسخ على إزالة الحكم بالكيفية . وتفصيل ذلك في علمى الفقه والأصول ، وإنما الذى يعيننا من هذا هو بيان المخصص لعموم الآية أو النسخ لها ، فمنهم من يرى تخصيصها أو نسخها بالسنة التى تواترت معنى وإن كانت تفاصيلها آحاداً ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالرجم فى عدة وقائع . والسنة المتواترة تنسخ الكتاب ، بل السنة الآحادية متى صححت يجوز التخصيص بها عند القائلين بأن هذا تخصيص لا نسخ

ومنهم من يرى أن النسخ هنا بالكتاب ، وذلك أنه كان فيما أنزل قرآنا آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها ، وهى « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والنسخ كما يكون للحكم يكون للتلاوة ، ويكون لهما معاً ، ونسخ التلاوة داخل فى معنى النسخ الذى هو رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى ، أى لا بقياس ولا إجماع ، فلا ينسخ شىء منهما حكم النص . والخطاب أعم من القولى والفعلى ، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم فى باب التشريع صادر عن خطاب الله عز وجل له ، وإنما دخل نسخ التلاوة فى معنى النسخ العام الذى هو رفع حكم شرعى ، لأن معنى نسخ التلاوة رفع حكم التلاوة عنها من صحة الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب والحائض ، وحرمة مسها على المحدث ، وأمثال

ذلك . والحكمة في النسخ والكلام في جوازه مبسوط في أصول
 الفقه ، وإنما يعنيننا منه التماس حكمة لنسخ تلاوة هذه الآية مع بقاء
 حكمها ، وكأنه لاشعار النفوس أن الزنا من المحصن أمر لا ينبغي أن
 يفرض وقوعه حتى يكون حكم حده متلو على الألسنة في كل زمان
 ومكان ، بل هو من الشئون التي حقها العدم من الوجود ولزوال من
 الأذهان ، فكأنه يراد تصويره بصورة ما لا يكاد يحصل . وعلى ذلك
 تكون الآية قد نزلت فنسخت عموم الآية السابقة أو خصصتها
 على اختلافهم في التعبير ، ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال في خطبة : «إن الله بعث
 محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه كتاباً ، فكان فيما أنزل
 عليه آيات لرجم — يعنى الشيخ والشيخة الخ — فقرأناها ووعيناها»
 ثم قال : « وإني خشيت أن يطول بالناس زمان ، فيقول قائل : لا نجد
 الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وإن الرجم
 حق على من زنى وقد أحصن » وقد سمعه الصحابة وأقروه فاعتبر
 إجماعاً سكوتياً ، وهو يكفي في أنها آية نزلت . ونسخ تلاوتها
 لا يؤثر في بقاء حكمها وأنه ناسخ أو مخصص لغيره

ولقد صح ما كشف به عمر ، فجاء جماعة من الخوارج ينكرون
 الرجم بحجة أنهم لم يروه في كتاب الله . ويروى عن عمر بن عبد
 العزيز رضى الله تعالى عنه أنه لما أنكروا عليه القول بالرجم لأنه ليس
 في كتاب الله ألزمهم بعدد الركعات في الصلاة ومقادير الزكاة ،

فقالوا هذا من فعله صلى الله عليه وسلم ، فقال : وهذا من فعله صلى الله عليه وسلم . ولا يدل هذا على أن عمر بن عبدالعزيز ينكر أن آية الرجم نزلت ثم نسخت تلاوتها ، بل هو من الرجوع الى طريق أقرب الى الالتزام والاحكام . وهو الصواب في مناظرة مثل أولئك الخوارج المكابرين ومن يحذو حذوهم

وعلى الجملة فالقول برجم الزانى المحصن مجمع عليه ، ولا عبرة بشذوذ الخوارج ، واختلاف إنما هو في موضعين : الأول - أيقصر في حده على الرجم ، وهو رأى الجمهور ، أم يجمع بينه وبين الجلد ، وبه قال فريق كما تقدم . الثانى بماذا نسخت آية الجلد أو خصصت : أبالآية المنسوخة تلاوتها ، أم بفعله صلى الله عليه وسلم ؟ وذهب كثير الى الثانى ، لأن فعله صلى الله عليه وسلم قد تواتر وصار قطعى الثبوت ، وأما قرآنية تلك الآية فروايتها آحاد ، وذكروا لها فى خطبته مع سكوت الصحابة عليه فى رأيهم لا يفيد القطع

هذا وإن من يتأمل فى هذا البيان المشتملة عليه الآيه فيما يتعلق بالزجر عن الزنا وتهويل أمره ، لا يبقى لديه شك فى أنه من أشد المنكرات وأكبر الكبائر ، فانظر الى التمهيد لأحكامه بالبداة العجيبة أول السورة ، ثم إيجابه الحد الزاجر المخزى ، ثم النهى عن الرأفة فى شأنهما ، ثم ربط ذلك النهى عن الرأفة بالايان بالله واليوم الآخر الدال على أن مقتضى الايمان الغلظة فى حقها ، ثم إضافة التشهير والفضيحة بالأمر بشهود طائفة عذا بهما ، وأن تكون هذه الطائفة من المؤمنين .

انظر الى هذه المعاني في سبيل تفضيح أمره و العجب العجاب ، فكيف اذا أضفت اليه أنه خص من بين النهيات بالنهي عن قربانه بينما ينهى عن ذاتها ، ثم اقترانه بالشرك بالله وقتل النفس ، وأن ترتب على جاتها مراتب في قوله تعالى : «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً» . ثم انظر الى مراتب من الأحكام على مجرد الاتهام به من حد القذف وأمر اللعان ، ثم التشديد في طريق إثباته حتى لا يقدم الناس على الترامي بهذا الأمر الخطير بلاوجه حق ، ليس في بعضهم غليله من بعض ، الى غير ذلك من أحكام حجة ستلي عليك في بقية هذه السورة ، وكلها تدور حول العلاج والاحتياط ، لعدم وقوع هذه الجريمة الكبرى . أما شروط وجوب الحد وتحقق الاحصان فحل تفصيله فوق ما سبق كتب الفقه ، فيرجع اليها من شاء .

نكاح الزناة والزواني قال تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها

إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين):

يحسن من يريد تفهم معنى الآية الكريمة أن يكون عنده من الأناة والروية ما يساعده على استيفاء مقاله المفسرون فيها؛ وفي سبب نزولها ، وفي أحكامها : أم بسوخة أم باقية ، ثم يردد النظر حتى تطمئن نفسه الى المعنى الذي يرجعه عقله ، فقد اختلفت كلمة المفسرين في ذلك اختلافاً يبعث على عظيم التدبر والتفكير .

ولنسق ذلك في مقامين : (الأول) في سبب نزولها ؛ و (الثاني) في بيان معناها وحكمها ، وكونه منسوخا أو باقيا

المقام الأول: سبب نزول الآية — روى كثير من المنسرين أن ناسا من ضعفاء المهاجرين وفقراءهم لما وردوا المدينة وجدوا بغايا معلنات أقمن الرايات على بيوتهن ليعلم أمرهن فيقصدن لذلك ، وكن من أخصب أهل المدينة عيشا وأكثرهم خيرا . منهن من أهل الكتاب ، ومنهن إماء لبعض الأنصار أعدوهن للتكسب ، كما يعرف من قوله تعالى : « ولا تُكرهوا افتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » وكان في المهاجرين فقر شديد لخروجهم من ديارهم وأمواهم فأرين بدينهم ، وزادتهم الغربة شدة ، وكان بالمدينة غلاء ، فلما رأوا خصب هؤلاء البغايا وخيرهن حدثهم نفوسهم لوتزوجوا منهن ليكن عوناً لهم على جهد العيش حتى يجعل الله لهم من أمرهم سراً ، وكان من عاداتهن الاتفاق على من تزوجهن ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو دأبهم في كل تصرفاتهم ، إذ كان الزمن زمن تشريع ، ولم تكن الأحكام أخذت مستقرها ، ولم يكن الدين قد وصل الى هذا الكمال ، فنزلت الآية الكريمة ليمتنعوا عن ذلك ، فامتنعوا .

ولا يطعن في هذا أن مقام الصحابة وما نشعر به لهم من التجارة والاكبار يأتي أن يصدر من أحد منهم مثل هذه الخواطر المنحطة التي إن لم يمنع منها الدين منع منها الشيم وتأصل الكرامة في نفوسهم . تقول : لا يطعن هذا في الرواية لأن إياء النفوس ونفرتها تابع لاستقباح العمل وشدة

استهجانه . وللعقيدة وتأصل العادة أكبر مدخل في أمر الاستقباح أو التسامح . وكان القوم حديثي عهد بجاهلية لم تكن تنظر الى هذه المنكرات نظر من استقر في قلبه الدين كاملا ، وملكته عاداته المتأصلة . فلا جرم صح أن يحمل الفقر المدقع والغربة والشتات قوما فروا بدينهم وبينهم نبيهم يرعاهم ويتعهدهم بالهدى والارشاد، فهم في مأمن بحياطته ، صح أن يحملهم ذلك على التفكير في أية وسيلة للعيش ، فيستفهموا عن حكمها، فإن أذنوا مضوا ، وإن نهوا انتهوا ، ولا حرج في ذلك ولا نكر ، وإنما النكير على من نهاه الله فلم يرعو عن غيه . ولا تقيس وجداننا النفسى — وقد استقر الدين كاملا عندنا ودرجنا على أحكامه ونشأنا عايشا — على وجدانهم وهم في مقام تعرف الأحكام من جديد ، ليخلعوا عادة ويلبسوا خيرا منها .

وروى جماعة منهم أبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى أن رجلا يقال له مرثد كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكان بمكة امرأة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقة له قبل أن يسلم ، فذهب مرة ليحمل أسيرا كان قد وعدة أن يحمله ، فاختربأ في ظل حائط من حوائط مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فمرت به عناق فأبصرته ، فاتته اليه حتى عرفته ، فقالت: مرثد؟ قال: مرثد، قالت مرحبا وأهلا لهم فببت عندنا الليلة ، فقال: يا عناق ، إن الله حرم علينا الزنا ، فصاحت بأهل مكة تنذرهم به وتقول : هذا الرجل يحمل أسراكم ، ففر من وجهها وتبعه ثمانية نفر منهم حتى دخل جبلا من جبال مكة يقال له الخندمة ، فبدله فيه غار لجأ اليه وأعماهم الله عنه ،

ثم رجعوا ورجع الى صاحبه فحمله الى المدينة ، قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ فأمسك فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم: « يا مرثد : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين ، فلا تنكحها».

وهذا السبب لا يتجه عليه ذلك الاعتراض اتجاهه على الوجه السابق ، فان النفوس قد تفكر في ارتكاب بعض ما تكرهه وتنفر منه توصلًا الى أمر خطير يتوقف عليه ، وناهيك بتخليص أسرى المسلمين من أيدي المشركين ، واضطرار منقذهم الى الايواء لامرأة بغى تواريه ، وهو لم يقصد أن يزنى بها ، وإنما أراد أن ينكحها ليأوى اليها توصلًا لهذا القصد الشريف ، ولم ير أن يقدم على الأمر بدون أن يستأذنه صلى الله عليه وسلم . وليس توجيهاً هذا معناه أنا نقر قول بعض الناس إن الغاية تبرر الوسيلة ، وإنما وجهتنا فيه أنه لا يبعد أن تفكر النفس في ارتكاب أخف الضررين تفادياً من أشدهما ، فيبدو لها أن تزوج الزانية أخف من بقاء جماعة من أسرى المسلمين في أيدي المشركين قديفتونهم عن دينهم . على أنه لم يثبت في الأمر ، بل جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه فانهى .

المقام الثانى : معناها وحكمها — وقبل الشروع في بيان ذلك نقول :

الافقهاء مطبقون على أن المسلم ولو كان زانيا لا يجوز له أن ينكح

المشركة ، وأن المسامة ولو زانية لا يحل لها أن تنكح المشرك ، وأن الزانى يحل له نكاح العفيفة ، والزانية يحل لها نكاح العفيف .

من أجل هذا كان حمل الآية على معناها المتبادر من أن الزانى لا يحل له أن ينكح إلا زانية أو مشركة ، وأن الزانية لا يحل لها أن تنكح إلا زانيا أو مشركا - مخالفا لما أجمع عليه المسلمون من عدم تزوج المسلم والمسامة بالمشركين ، ولا يمكن أن يجمعوا على خلاف مقتضى النص الا اذا كان النص منسوخا ، فقال بعضهم : إن حكم الآية كان مقررا ثم نسخ بآية (وأنكحوا الأيامي منكم) ولا شك أن المسامة الزانية لم تخرج بالزنا من أيامي المسامين . ولا يشكل هذا بأن لفظ الأيامي عام للزواني وغيرهن ، والعام المخالف حكمه حكم الخاص لا ينسخ الخاص ، بل يحمل على ما عدا الخاص ، حتى يكون كل من الدليلين معمولا به ، ولأن دلالة الخاص أقوى من دلالة العام . تقول : لا يشكل بهذا ، لأن محل ذلك ما لم ينعقد الاجماع على مقتضى حكم العام . فانه حينئذ يتقوى بانعقاد الاجماع على مقتضاه . وهذا معنى قول بعض العلماء إن الآية منسوخة بالاجماع أى إن الآية منسوخة إجماعا ، ونسخها بآية الأيامي ، وليس معناه أن الاجماع نسخها لأن الاجماع لا ينسخ ولا ينسخ به . فانه إنما يعول عليه بعد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ينقطع التشريع وينسديه ، كما قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً »

هذا في نسخ حرمة نكاح الزانية والزانى للعفيف والعفيفة . أما تحريم نكاح المشركين والمشركت بعد أن كان حلالا فن قوله تعالى : « ولا تنكحوا

المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركه ولو أعجبتم ،
ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك
ولو أعجبكم .

هذا رأى لبعضهم . وحاصله أن الآية واردة لتحريم النكاح على
الزواني والزناة ، الامن بعضهم لبعض ، أو المشركين ، وأن ذلك نسخ
في الموضوعين ، فأحل النكاح بين الزناة والعقائف ، وبين الزواني
والأعفاء ، وحرّم النكاح بين المسامين والمشركين .

ورأى جماعة أن هذا من باب الاخبار عن الغالب من أن رغبة كل
فريق تتجه الى من يماثله في طباعه ، وشبه الشيء منجذب اليه ، فكان
مساق الآية للتحدث عما يغلب على طباع الناس من ميل الزناة الى
الزواني أو من هن شر منهم وهن الشركات ، وميل الزواني الى الزناة
أو من هم شر منهم وهم المشركون ، وأن المؤمن العفيف الحميد السيرة
والمؤمنة العفيفة لا تتجه رغبتهما الا لمن ماثلهما في الصون والعفاف والتزّه
عما يشين . وهذا المعنى وإن اختاره كثير فليس مما تطمئن النفس الى حمل
الآية الكريمة عليه ، فإن التحدث عن العادات والاخبار عنها ليس
من مقاصد الهداية والارشاد . وفرق بين هذا وبين قولهم في مواضع
كثيرة : « الآية محمولة على الغالب » فإن معنى ذلك أن الآية واردة
على معالجة حالة غالبية على الناس ، أو استئصال عادة متفشية فيهم ،
أو النهي عن أمر كثير واستفاض بينهم ، وفرق بين معالجة حالة غالبية
بالنهي أو الارشاد أو التشنيع ، وبين حكايتها والتحدث بخبرها .

والذي تميل اليه و ترجحه من بين أقوالهم في ذلك هو ما ذكره كثير من المفسرين مختارين له ، أن الآية مسوقة لتنفيذ أولئك الضعفاء من المساكين الذين حدثهم أنفسهم بالتزوج من أولئك الزواني ليستعينوا بماهن فيه من رخاء المعيشة ووفرة المال على ما هم فيه من جهد وإعدام لا يطيقون مصابرتة حتى يجعل الله بعد عسر يسراً . فلما امتأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك نزلت الآية ، ليحفظ على المؤمنين صيانتهم ، والبعد عن الأدناس ولو في سبيل أكل العيش وتحصيل القوت الضروري . ويكون المعنى أن هذا مما لا يليق بالمؤمن ، وإنما هو من سمات الزناة ، فهم الذين يميلون أو يقبلون نكاح الزواني أو من هن أخش منهن وهن المشركات . ثم أردفت تكميلاً بشرح أمر الزانية ، فهي التي تقبل أو يليق بها أن تميل الى الزاني ومن هو شر منه وهو المشرك . فالآية مسوقة للتنفيذ وبيان أن هذا لا يليق بالمؤمن المصون . وهذا غير المعنى السابق الذي حاصله أن ذلك حكاية وإخبار عما هو الغالب في الناس . ففرق بين قولك : إن هذا لا يليق الابفئة كذا ، وبين قولك : إن هذا لا يحصل غالباً الا كذا ، فالأول من باب قولهم : الكريم لا يعيب ، والخير لا يصدر منه الا الخير ، وهو ما تلححه في قولهم : كل إناء ينضح بما فيه ، وقولهم : وهل ينتظر من السفية الا الوصف بما هو فيه . ويقرب من هذا الأسلوب ما يأتي في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » على بعض التفاسير فيها كما ستطلع عليه إن شاء الله . وهذا الوجه مناسب

لقصة مرثدا أيضا . والمعنى لا ترتكب هذه الخسة ولو لهذا القصد العظيم .
ويكون محصل المعنى على هذا الوحه : الفاسق الخبيث الفاجر لا ينتظر
منه أن تتجه رغبته وميله الا لمن تشا كله وتشبهه ، فهى الأليق بحاله
والأنسب به ، وماله وللعفيفة ؟ ينفر طبعها منه ولا تشاطره خبث
سيرته . والزانية الخبيثة الفاجرة لا يليق بها الا خبيث مثلها يشاركها
في فجورها . والغرض منه تنفير ضعاف المسامين من ذلك الخاطر الذى
بدالمهم ، أوزجر مرثد عن تزوجه بعناق التى استفتى فيها رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

فهذا المعنى يتفق هو وما روى فى سبب النزول ، سواء أكان قصة
مرثد أو قصة ضعفاء المؤمنين ، ويكون قوله جل شأنه : « وحرّم ذلك
على المؤمنين » معناه أن نكاح المؤمن المحمود عند الله من زانية خبيثة
فاجرة وانحراطه بذلك فى سلك الفساق الذين يغشونها محذور عليه
محرم ، لاعلى معنى تحريم العقد على الزانية ، وإنما هو على معنى تعرضه
لارتكاب آثام ومفاسد حمة : من ضياع النسب الصحيح ، ومعاشرة
الخاطئين ، وتعود المرء مشاهدة المنكرات ، مما يضعف فى النفس روح
الحمة للدين ، فيتعود إقرار المنكر . وكذلك شأن من تزوج من
الخبث الزانى ، وقد يجرها الى مقارفة الكبيرة . ولا يقتضى هذا حرمة
عقد النكاح على الزانية أو الزانى الذى يجر الى فساده حتى يرتكب
النسخ الذى هو خلاف الأصل ، بل الحرمة حرمة الاقدام ، ولكن لو وقع
كان صحيحا .

هذا محصل كلام المفسرين سقناه على اختلافه ، ليتعود القارى التأمل
 فى معانى الآيات مستعينا بنظر من قبله ، وبينما ما يرد على بعضها من
 الاعتراض ليحسن الاختيار بعد التفكير .

وأيا ما ساكت فى تفسير الآية الكريمة فان الذى لا يختلف هو ما يفهم
 من سياقها والاثبات بها بعد آية حد الزنا الذى هو أول الأحكام المشتملة
 عليها السورة الكريمة ، فان من تدبر ما سبق فى تلك الآية من الأمر
 بإقامة الحد عليهما ، والنهى عن الرأفة بهما ، مع التعبير عنها بأنها رأفة
 فى طريق إقامة الدين ، فكانها عقبة تعترض طريق الدين ، معلقا ذلك
 على الايمان بالله واليوم الآخر ، ومعنى ذلك أن هذا مقتضى الايمان
 ونتيجته ، ثم الأمر بالتنكيل بهما وإعلان عقوبتهما ، تشهيراً بهما ،
 وزيادة فى افتضاحهما ، وأن يكون الحاضر طائفة ، ومن المؤمنين ، لأن
 الاستحياء من أهل الايمان والصالح أكل منه بالنسبة للكافرين
 أو الفساق ، بل ربما عد فى نظر الفجار من أسباب الفخار ، فكل ذلك
 يعطى صورة من عناية الشارع الحكيم بتفطيع ذلك الجرم العظيم ،
 لما عرفت فيما سبق من قوة دواعيه ، ومن كبير أثره وعظيم
 خطره ، فاذا ضم الى ذلك ما شتمت عليه هذه الآية من تفطيع أمر
 الزنا والتنفير ممن وقع فيه بأنه لا يليق أن يكون بينه وبين مؤمن صلة ،
 بل ينبغى أن يقتطع ويفر منه كما يفر من الأجدم ، وأنه لا يصح أن يرغب
 فى الاتصال به الا من شاركه فى خبثه ، أو كان مشركا لاصلة له بالاسلام
 والايان ، نقول إذا ضم الى الآية السابطة ما استفاد من هذه الآية ، بلغ

التشنيع عليه والتقبیح له والتنفير منه أعظم مبالغ وأكبره ، وكان جديرا بمن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يصون نفسه من هذه الموبقة الفاحشة ، وما أحقه أن يقال فيه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » كما جاء في الحديث الشريف !

أجل : لا يكاد المرء يصدق أن مؤمنا بالله مصدقا برسالة رسله يسمع ما قال الله في شأنه من هذه الأحكام والأوصاف ، وما ذكر في معاملة من وقع في وهدهته ، وأنه ينبذ ويقاطع ويقتطع من سجل الأسرة الإسلامية ، فلا يليق أن يتصل به إلا من كان على مثل حاله وسوء فعاله ، ثم يكون مع إيمانه وتصديقه وحضور عقله راضيا لنفسه هذا المقت وهذا الفحش الأكبر ، لالا ، لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . نسأل الله العصمة من الزلات ، وأن يغنيننا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وبفضله عمن سواه !

بقي من مباحث الآيات الكريمة بيان حكمة تقديم الزانية على الزاني في الآية الأولى ، وتقديم الزاني على الزانية في الآية الثانية ، والسر في ذلك أن الآية الأولى مسوقة لبيان حكم الزنا ، والعامل الأقوى فيه هو المرأة بما يبدو منها إذا تم من تبرج وزين ودعاية إلى نفسها بشتى الوسائل : في حركاتها وسكناتها ونظرها وإعراضها ، حتى في تمنعها ، فلا تكاد تخلو حالة من أحوالها من دواعي لفت النظر إليها ، سواء أكان ذلك عن قصد منها أم عن طبيعتها وماركب في جبلتها من تكسر ومعنى أنوثته ، وكفى بأكبر الركنين دعاية للجريمة استحقاقا للتقديم .

وأما في الآلية الثانية فالكلام في أمر النكاح والعقد ، ولا شك أن الذي يسعى فيه ويعمل على تحقيقه ويبدأ بالخطبة وأمثالها من مقدمات العقد هو الرجل ، حتى إن المرأة إذا حاولت ذلك حاولته من طريق خفي ، وتحاملت على أن تدفع بالرجل الى أن يفتح الباب من ناحيته ، ويبدأ الكلام من جهته ، فكان جديراً أن يبدأ بحكمه في مقام العقد الذي هو من خواصه ،

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)

حد القذف

الرمي : الألقاء والقذف بحجر أو سهم أو نحوهما مما يضر ويؤذي ، استعير للسب وتوجيه العيوب لما في كل من الأذى والاضرار ، بجرح اللسان كجرح اليد ، بل :

جراحات السهام لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان واختير هذا التعبير في التعبير لأن الكلمة متى أفلتت من لسان قائلها لم يملك زمامها وانطلقت لاتلوى على شيء حتى تصيب من وجهت اليه بالضرر والأذى . والمحصنات المصونات ، أصله من الحصن وهو الموضع الحصين المنيع الذي لا يوصل الى جوفه ، عبر به عن العفيفات إشارة الى أنهن مع عدم قربانهن الفحش فهن منيعات عن أن ينلن به . وسيأتي معنى الحصانة في الشرع واختلافه بحسب المواضع . والشهداء جمع شهيد بمعنى الشاهد ، وفيه معنى أنه يخبر عن شهود وعلم يقيني ، وأنه أمين على

ما يؤديه ، ويفسر الشهيد بالأمين الذي لا يغيب عن عامه شيء مما عاينه .
والجلد تقدم تفسيره ، وهو إصابة الجلد بالضرب المؤلم ، ولا يشترط
أن يكون مباشرا للجلد على العرى كما سبق في الآية المتقدمة . وأبدا
ظرف لاستغراق الزمن المستقبل . والفسق والفسوق أصله الخروج
والانسلاخ ، يقال فسقت الرطبة عن قشرتها إذا خرجت وانسلخت
عنها ، سمي به في لسان الشرع العصيان ، لما فيه من الخروج والانسلاخ
عن أمر الله ، كأنه ينبغي أن يكون المؤمن محاطا بأمر الله وملتفا بأحكامه
لا يفادره ولا يخرج عنه . وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة متصل
بالأحكام التي قبله ، متمم لما يتعلق بموضوعها .

لما بين جل شأنه ما في جريمة الزنا من عظيم الفحش وكبير
الشناعة مما لم يجتمع في جريمة أخرى من كبير الاجرام وشنيع الفعل ،
وأمر هذا شأنه يلحق العرض من الرمي به ما ينكس الرأس ويهدم
الشرف ، وكان من مقاصد الشرع الحكيم حفظ الأعراض وصون
الشرف لصاحبه ، والاحتفاظ بالكرامة وعزة النفس ، كان من مقتضى
حكيمته جل شأنه هذا التشريع الزاجر للنفوس الجاحمة التي قد يدفعها
الغضب إلى أن تصيب الناس في كرامتهم ، وتخدش شرفهم وهو أعز
عزيز لديهم ، مستهينة بما اقترفت ، ففرض لها فيما فرض من أحكام هذه
السورة الشريفة حد القذف الزاجر الرادع ، الكفيل بصيانة الأعراض
وحفظ الكرامة والشرف .

وإنما خص حد القذف بالقذف بالزنا ، لأن فيه من العار بدناءة

النفس وهتك السر وافتضح السوءات واتهاك الحرمات والدلالة على فقد الغيرة الذي هو من سمات أخس الحيوانات مافارق به كل الموبقات ، فان كان المرمى به امرأة كان فيه من جلب العار على قومها مايؤدى إلى سفك الدماء ، وقاما تغسل ذلك العار ، وإن كان المرمى به رجلا كان فيه الدلالة على أنه ليس للعرض فى نظره كرامة ولا للغيرة على نفسه سلطان ، وكان أماراة على أنه لو أصيب بما أصاب به الناس لاعتبره أمرا عاديا لا تنور له نفسه ولا يغلى له دمه ، ولذلك قيل : لا يزنى الغيور . وكفى بهذا عارا وعابا يلحق الأبناء والأحفاد ، وتبقى سيرته طوال الأحقاب .

وقد عبر فى جانب الرامين بصيغة المذكر (الذين) ، وفى جانب المرمى بصيغة المؤنث (المحصنات) ، ولا فرق بين الذكور والاناث فى الرامى والمرمى ، فمن رمى غيره بالزنا واستوفى شروط الحد وجب حده ، سواء أكان كل من الرامى والمرمى رجلا أم امرأة . وإنما اختير هذا التعبير للتغليب أما فى الأول : فمن باب تغليب الذكور على الاناث ، فانهما متى اجتمعا فى حكم عبر بصيغة الذكور تغليباً لهم عليهن ، وأيضاً فان الغالب أو المفروض أنه الغالب هو أن الرمى بهذه الفاحشة بعيد عن ألسنة النساء اللاتى ينبغى أن يحوطهن الحياء ، فلا يكاد يقع منهن هذا البذاء .

وأما الثانى وهو اختيار صيغة المؤنث فى جانب المرمى ، فلأن أكثر ما توجه هذه التهمة الشنيعة للنساء ، فهى لمن آلم وأوجع ، ولا يرمى بها

الراى إلا للنيل من المرمى بآلم ما يستطيع . وهذا لا ينافى مساواة الرجال
لهن فى حقوق العار وإصابة الشرف وتنكيس العزة ، وعلى ذلك
يكون قيد التأنيث المستفاد من صيغة الجمع بالألف والتاء لا مفهوم له ،
بل مثلهن فى ذلك الذكور ، وليس هذا من باب قياس الرجال على النساء ،
بل من باب إلغاء الفارق بين الفريقين ، ويسمى فى لسان الأصوليين بدلالة
الفحوى للقطع بإلغاء الفارق وهو الأثوثة والذكورة فى الراى والمرمى .
على أن الآية وردت فى واقعة هى رمى رجل امرأة بالزنا ، بخاء التقييد
على وفق سبب النزول ، فانها نزلت فى هلال بن أمية لما رمى امرأته
فقال عليه السلام : « البينة أو حد فى ظهرك » وإن كانت آية اللعان جاءت
نخصتها بما عدا رمى الزوج زوجته كما سيأتى

وقد أجمع الفقهاء على أن المراد بالرمى هنا الرمى بالزنا لعدة قرائن —
منها مجيء الآية بعد آية الزنا ، ومنها التعبير بالمحصنات وهن العفاف ،
ومنها قوله : (بأربعة شهداء) ومعلوم أن كون نصاب الشهادة أربعة
إنما هو فى الزنا خاصة . وقد عرفت حكمة تخصيص القذف بالزنا
بذلك من بين الرمى بالجرائم الأخرى . والمحصنات معناه العفيفات
اللاتى أحصن فروجهن ، وقد يأتى الاحصان بمعنى الزوج كما فى قوله
تعالى : « والمحصنات من النساء » فانه بمعنى المتزوجات ، وبمعنى الوطاء
فى زواج كالأحصان المعتبر فى الرجم ، فان معناه ذلك ، وليس هذا
الاحصان شرطاً فى حد القذف ، بل من قذف عفيفة سواء أكانت
متزوجة أم لا استوجب الحد ، وإنما اشترط الفقهاء فى الاحصان هنا مع

العفة الحرية والاسلام والبلوغ والعقل . واستيفاء تفصيل الأحكام والشروط واخلاف فيها يطلب من كتب الفقه .

هذا وقد ترتب الشارع على قذف المحصن أو المحصنة ثلاثة أشياء :

الجلد ثمانين جلدة ، ورد الشهادة أبدا ، والحكم عليه بالفسق : فأما الجلد فللزجر ، ولقابلة الايذاء بالايذاء . وأما رد الشهادة فهي عقوبة لسانية تشبه قطع يد السارق ، فكأنه روعى أن جزء هذا اللسان الذي اقترف ذلك الاثم العظيم أن يهدر ويقطع أثره فلا يعتد بما يقوله ويشهد به فيما بين الناس ، فهو والعدم سواء . وأما تفسيقه فهو مبالغة في الزجر ، وإشارة الى أن مالتى من جزء في الدنيا من الحد ورد الشهادة لم يعفه من اعتباره فاسقا خارجا عن أمر ربه وطاعة بآرائه . وناهيك بهذه الجزاءات دلالة على عظم الخطب وشدة الخطر . وإذا كان هذا في الرمي بالزنا والاثم به ، فكيف يكون حال مقترف هذا الجرم الفاحش الشنيع ! فهذا الحكم مع دلالاته على ماسيق له يدل دلالة بالغة على تفضيع جرم تلك الفاحشة وتبشيع أمرها ، وعناية الشارع بالتنزيه عنها والتنفير منها .

وقد أورد جل شأنه ذلك الجزاء باستثناء التائبين فقال : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » . والتوبة الرجوع الى الله بعد الاعراض عنه ، والاقبال عليه بعد الادبار ، وكفى بالمعصية إعراضا وإدبارا ، بل فرارا من حظيرة قدسه وساحة رحمته .

والتوبة في نظر علماء الأخلاق تنتظم معاني ثلاثة تؤدي الى تطهير القلب ، بل الجوارح أيضا من أدران الذنوب ، وهذه المعاني الثلاثة هي :

أولاً - علم ما في الذنب من الاضرار لإضرار النفس بابعادها عن ساحة
الرحمة ومنزلة الرضوان ، وإنه لابعاد لا يقدم عليه الاعدو نفسه ، فلا
تحصل التوبة دون أن يتحقق هذا المعنى الأول تحققا يقينيا واما حضوريا
يملك عليه نفسه ، فلا تصدر عنه الأفعال إلا وفقه ، عاما يشبه علمك أن
في هذا الطعام الذي اشتيته سما مهلسكا ، يخبرك به الطيب الثقة ، أو أن
في هذا الطريق الذي سلكته سبعا ضاريا ووحشامفترسا وقطاع طريق ،
ينبئك بذلك الدليل الصادق الذي خبر هذه الجهة وعرف ما تحتويه ،
ولا تشك في خبره ، فإذا يكون حالك ، وقد تورطت فأكلت الطعام
اشتبه ، أو سلكت ذلك الطريق تهورا ؟ أليس يدركك من الندم
ما ترتبك معه وتخور له قواك ، وتجزع على هذا الاندفاع البعيد عن
الاستبصار ؟ ألسنت تشعر حينئذ بحالة اكتئاب وجزع وحسرة على
ما فرط منك تقلب عليك لذتك ابتئاسا ، وغبظتك بالطريق الذي
تورطت فيه استيحاشا ؟ ألسنت تذهل عن كل ما يحيط بك ، وينحصر
فكرك فيما يخلصك من هذه الداهية والمصيبة التي تورطت فيها ؟

فهذا هو المعنى الثاني ، وهو الندم على ما فرط ، وليس مجرد الندم
والحسرة ويقف الشخص مبهوتا غير مفكر إذا كان من أهل البصيرة ،
كلا ، بل لا يسمى ندمًا حقيقة ويصدق في دعواه أنه ندم حتى يترتب
على ندمه أثره الصحيح ، وذلك هو المعنى الثالث ، وهو عمل
يتعلق بما مضى ، وبما هو حاصل ، وبما يستقبل من الزمن ،
فيقلع عن الاستمرار في تناول ذلك الطعام الشهي حالا ، ويعزم على

ألا يعود إليه في المستقبل ، ويعمل على تخليص معدته مما سبق منه إليها في الماضي . وكذلك يقطع السير في هذا الطريق ويعزم على ألا يخترقه مادام كذلك ، ويكرر راجعا من حيث أتى ، فيبلغى سيره في المسافة التي قطعها .

هكذا شأن التوبة من الذنوب ، فهي الاستيقان بأنه قد جلب على نفسه الضرر المهلك متابعة لشيطان هواه الذي يريده في الهاوية ، فيحيط به الندم والجزع الصحيح فرارا بنفسه مما لا قبل له به . وأين الوحوش الكاسرة وقطاع الطريق من الخلود في النار ، والتعرض لغضب الجبار ، ومحاربة القهار ؟ بل أين السموم في الأحشاء من التردى في الموبقات المهلكات عند من عرف مقدار الحياتين ووازن بين السعادتين ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعامون !

ومقياس الندم الحقيقي الذي يميزه من دعوى الندم مغالطة وخداعا — ولا تخدع النفس إلا نفسها — مقياس ذلك أن يؤتى هذه الثمار الثلاث : الاقلاع فورا عن الاستمرار في الذنب الحالى ، والعزم على ألا يعود في المستقبل أبداً ، والمبادرة إلى التخلص مما فرط منه في الماضي ، ومن ذلك أن ترد الحقوق لأصحابها . هذه هي التوبة الصحيحة المطهرة ، ومتى حصلت على هذا الوجه طهرت حقيقة ، وكانت مقبولة حتما كما وعد جل شأنه ، ووعد لا يخلف . وهذا معنى قولهم : التوبة تنتظم من علم وحال وعمل ، والعمل يتعلق بالحال والاستقبال والماضى .

تأمل هذا وقارنه بقول بعض الجهلة يلقن العاصى التوبة ، فيقول :

قل كما أقول - تبت إلى الله ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت؛ وعزمت على ألا أعود أبداً. فمثل هذا مثل أن تأمر خادمك أن ينظف ثوبك، فيقول: أحضرت الماء والصابون وغسلته وكررت غسله حتى نظف، ويكرر ذلك القول سبع مرات كل يوم وليلة والثوب على حاله، فهل يغني هذا القول عن نظافة الثوب شيئاً؟ اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون! وقد ورد في الحديث «الندم توبة» وهو من باب «الحج عرفة» فإن الندم هو جماع هذه المعاني، فإنه لا يتحقق الا عن علم بعظم ما اقترف، ومتى تحقق أفلح في الحال وتخلص مما مضى، وعزم على عدم العودة في المستقبل.

والاصلاح إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشيء. والمراد هنا إصلاح ذات البين التي أفسدها بينه وبين من قذفه، وذلك بأن يستحله مما فرط منه في حقه حتى يسامحه، وذلك شأن التوبة والتخلص من حقوق العباد، وهو غير ما تضمنته التوبة من الندم على ما فرط، وإزالة ما حصل بتكذيب نفسه في مسألة القذف، إذ لا يلزم من اعترافه على نفسه بأنه كان كاذباً في القذف أن تصفو نفس المقذوف من جهته، فقد آذاه بلا وجه حق، وقد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا، فيجب أن يصلح ما أفسدته كلمته من صلوات الأخوة الاسلاميه، بأن يستسمحه حتى يسامحه، ويستصفيه حتى يصفوه له، وهذا سر قوله: «وأصلحوا» بعد قوله: «تابوا».

وأما قوله: «من بعد ذلك» والتوبة لا تكون إلا بعد الذنب، فإن

سره التهويل وتفضيع ما وقع فيه وتكبيره ، وذلك كما تقول وأنت تروى قصة فتصل إلى جزء منها له أهمية خاصة في القصة — تقول : « وبعد ذلك كله يحجىء يقول لى كيت وكيت ». تستعمل هذه العبارة في ألسنة الناس كثيرا لافادة هذا الغرض . ولعلماء البلاغة في توجيه اسم الاشارة الذى يحضر المشار اليه بذاته كأنه يشاهد، ويلفت اليه النظر، ما يعرفه من أخذ منها بطرف. وكذلك في ذكر كلمة (من) في قوله : « من بعد ذلك » زيادة في تهويل شأن الأمر الذى حصل ، كما في قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » . جاءت في آيات تحويل القبلة بعد ما بسط على أحسن تفصيل حكمة القبلة القديمة ، ثم حكمة التحويل ، وأياسه من متابعتهم ملته ، وغير ذلك من تنويع الهدى في المسألة ، قال بعد ما أتم الكلام فيها : « من بعدما جاءك من العلم » . وأما في الآية السابقة عليها وهى قوله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم » التى جاءت عقب قوله جل شأنه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى » فلم تأت بعد سوق أدلة في الكلام السابق تكون موجبة لاستبعاد أن ينشأ من بعدها هذا المحذر منه ، بل كانت إشارة إلى ما جاءه من العلم والهدى واستقر فى نفسه حتى أصبح أمراً راسخاً ، وهذا شئء وذكره فى مقام التحذير شئء آخر . فالعظمة فى آية « بعد الذى » راجعة إلى المعلوم المستقر فى النفس، وفى آية تحويل القبلة راجعة إلى البيان وبسط الأدلة.

بقيت مسألة نريد أن نلم منها بطرف وجيز حرصاً على فائدتها ،
 وترك البسط فيها لمن شاء التوسع ، فأمامه كتب الأصول تشفى غلته ،
 وهى : ما هو مرجع الاستثناء فى قوله تعالى : « إلا الذين تابوا »

قد اختلف الشافعية والحنفية فى ذلك فيقول الحنفية : الاستثناء
 راجع الى الجملة الأخيرة ، وهى قوله : « وأولئك هم الفاسقون » . وعلى
 هذا فن حد فى القذف لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب . وقال الشافعية :
 بل هو راجع اليها والى ما قبلها ، فن تاب بعد ما أقيم عليه الحد قبلت
 شهادته . وأصل الخلاف فيما اذا وقع قيد أو استثناء بعد جعل متعاطفة ،
 هل يرجع للأخيرة ؟ بذلك يقول الحنفية ، أو يرجع للسكل ؟ بذلك
 يقول الشافعية ، إلا أنه منع من رجوعها لايجاب الحد أنه حق لا دعى
 لا تسقطه التوبة ، ولكل من الطرفين أدلة على ما يقول وتقريرات
 لا يسع هذا المقام ذكرها .

تشريع العاز

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم
 فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن
 لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدروا عنها العذاب أن تشهد
 أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . ، والخامسة أن غضب الله عليها
 إن كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله
 تواب حكيم) :

هذا من متممات الحكم السابق ، فبعد أن بين ما فى جريمة الزنا

من الفحش والمقت وسوء السبيل ، وما يستحقه مرتكبها من العذاب والتنكيل ، وكان الأمر الشنيع مما يترامى به الخصوم المتغاضبون غالباً وهم تحت تأثير الغضب ، فينال المرء من خصمه في هذه الحال ما يחדش به كرامته ، ويهدم به شرفه ، ويجلب العار على أسرته وذويه ، أردفه بعقوبة من يقع في ذلك السبب الفاحش ، صونا للشرف والعرض والآداب أن تدنس وتمتهن ، فبين حكم من يرمى المحصنات أو المحصنين بتلك السبة الشنيعة على ما مر

ولما كان الزوج عرضة لأن يضطر إلى رمي زوجته بهذا الأمر صونا لشرفه ، واحتفاظاً بنسب أولاده ، وغيره على كرامته ، وقد يكون صادقا في رميته إذ يكون قد استيقن ولكنه عجز عن إثبات ما رأى بحضور الشهود المطلوبين لاثبات ما رمى به ، فإن بين الزوجين من المفاجآت الانفرادية ما لا يكاد يتيسر معه إحضار الشهود في حال تلك المفاجآت المنكودة ، لطف الله بعباده ، فشرع لهم المخلص من هذه الداهية الدهيئة بهذا الحكم حكم اللعان ، رحمة منه بالمصاب ، وإنقاذاً له من هذه المآزق المخرجة .

روى أنه لما نزلت الآية السابقة في حكم القذف وكانت عامة للزوجين وللأجانب ففهموا منها العموم ، قال سعد بن عباد : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم » ؟ فقالوا : يا رسول الله : لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، ولا طلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن

يتزوجها الشدة غيرته ، فقال سعد : والله إنى لأعلم أنها حق ، وأنهما من عند الله ، ولكنى تعجبت أنى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحرکه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ! قالوا فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آتى به واشتد غضبه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية وتبطل شهادته ! فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها محرجا ، وقال : يا رسول الله إنى أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إنى لصادق . فنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحى ، وكانوا يعرفون علاماته ، فأمسكوا حتى فرغ من الوحى ، فنزلت الآية ، ففسرى عنه صلى الله عليه وسلم . فقال : « أبشر يا هلال فوالله لقد كنت أرجو ذلك من ربى » . ثم أرسل إليها فجاءت فتلاها عليها ، وذكرها عذاب الآخرة ، وأنه أشد من عذاب الدنيا ، فقالت : لقد كذب ، وأصر هلال على قوله ، فقال عليه السلام : « لاعنوا بينهما » . فكان ذلك سبب نزول الآية ، وكان لعانها أول لعان فى الاسلام . وقيل نزلت فى عاصم بن عدى ، وقيل فى عويمر بن نصر العجلانى .

وإنما سقنا هذه القصة ؛ لأنها مع كونها بيانا لسبب النزول تُبين

لنا كيف كان تشريع الأحكام تدريجياً على حسب الحوادث ، وأنه كان مترقياً لهم ، فيجىء الحكم وقد تشوفوا له ، فيتمكن في النفوس فضل تمكن ، ويعين على امتثاله بقبول وفضل إيمان ، إذ تتجلى حكمة الحكم تجلياً يبين ما فيه من رحمة الله وفضله « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » ويتجلى فيها ما كان يملأ نفوسهم من اليقين بحكمة ربهم ولطفه بهم ، حتى إن أحدهم ليقسم إنه يرجو أن يجعل الله له مخرجاً ، ويظهر مع هذا عظيم خضوعهم واستسلامهم لما يأمر به ربهم ، وإن كان على خلاف ما هوى نفوسهم ، وأنهم مهما قامت في نفوسهم الشبهة لن يؤثر ذلك في إيمانهم بأن ما يبلغهم الرسول حق وأنه من عند الله ، وكل ما يبدو منهم هو التعجب لا الإنكار ، ومنشأ التعجب ما عهدوه من اطراد الرحمة في حكم الله بالنسبة إليهم فضلاً منه ورحمة ، لا وجوباً عليه وإلزاماً « ولو شاء الله لأعنتكم » والتعبير بالرمي هنا وفيما مر للإشارة إلى أن الكلمة متى انطلقت من فم قائلها ، فقد انقلت زمامها من ملكه وأصبح لا يملك ردها ، فهي كالسهم يرمى به فلا تعود اليد قادرة على رده ، فليحتفظ من يرمي بالرمي والأمر في يده حتى لا يندم حيث لا ينفعه الندم . وحذف المرمى به لعلمه من السياق لمجيئه بعد الآية السابقة ، وصوناً عن تكرار هذا اللفظ الذي يحفه الفحش من كل ناحية ، فن كمال الأدب عدم التصريح بالمستنكرات إلا بمقدار الضرورة ، أو في مقام التشنيع والتهويل والتفطيع .

وقوله تعالى: « ولم يكن لهم شهاداء إلا أنفسهم » — الشهداء جمع شهيد ، وهو من يعلم علم الشهود والحضور لا الظن والتخمين ، ففيه الإشارة الى أن هذا أمر لا ينبغي الاقدام عليه لمجرد الظنة ، فانه أمر جليل ؛ وشيطان الغيرة قد يلعب بالنفوس فيقيم من الأوهام صرحاً مشيداً ، فدفع هذا بالتعبير بالشهداء . وقوله : « إلا أنفسهم » أى إلا شهادة أنفسهم ، كأنه أقيم كل شهادة يقولها مقام شاهد مثبت ، والا فالشهادة فى العرف الشرعى هى الاخبار بحق للغير على الغير ؛ ويقابلها الدعوى ، وهى الاخبار بحق للنفس على الغير ، والاقرار بحق للغير على النفس .

وقوله : « فشهادة أحدهم » — المراد هنا كل واحد منهم ، فالأحد يتكرر بتكرر الرامين ، وقد قرئ أربع بالرفع على أنه خبر شهادة ؛ وبالنصب على أنه مفعولها لأنها مصدر ، ويكون شهادة مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبراً محذوف ، أى فالواجب فى شأنهم شهادة ، أو فعلية شهادة ، ولفظ بالله متعلق بشهادات ، ولا يضر فى ذلك أنه جمع والجمع يبعد المصدر عن شبه الفعل ، فان الجار والمجرور يكفى فيه راحة الفعل على ما ذكره النحاة .

وقوله : « إنه لمن الصادقين » — أصله مجرور بعلى محذوف ، أى يشهد على أنه لمن الصادقين ، فحذف الجار وكسرت همزة إن وعلق الفعل باللام ؛ وإن كان خاصاً بالأفعال القلبية ، فان الشهادة متضمنة معنى العلم وإن كانت فعلاً لسانياً ، فألحقت بأفعال القلوب ، ومن يرى أن هذه

الشهادة من باب القسم واليمين ، يرى كسر الهمزة لوقوعها في جواب القسم .
ومعنى الآية أن من رمى زوجته بالزنا فقد قذفها ، فهو بين أن
يثبت ما رماها به فينجو من حد القذف ، وألا يثبت فعليه حد القذف
كالأجنبية ، إذ يلحقها ويلحق قومها من جراء هذا القذف مما لا يقل
عاره ودنسه عن رمى الأجنبية ؛ ولكن لما كان الزوج من شأنه أن
يتصل بزوجه على انفراد ويفاجئها ولا أحد معه فيشق عليه الاثبات
بالشهادة ، فإن تكلم تكلم بأمر خطير ، وإن سكت سكت على أمر
جلل لا يطيقه ولا يتحملة ، فانه يلحقه بذلك من تلويث فراشه وامتihan
كرامته ، والاعتداء على حقه ، وإلحاق الأجنبي عنه بنسبه ، يشاركه في
ماله بوجوب نفقته عليه ، ويرثه بلاحق أو يزاحم ورثته كذلك ، كان
من لطف الله بعباده أن شرع لهم حكم اللعان للتخلص من هذا الحرج ،
وأباح للزوج أن يستقل بالاثبات بأن يشهد تلك الشهادات المكررة
ويردفيها بلفظ الجلالة تهويلا في الأمر ؛ ثم يردف الشهادات الأربع ،
باستيجاب اللعنة على نفسه ، واستحقاقه البعد عن رحمة ربه إن كان
من الكاذبين .

ولما كان مثل هذا العمل لا يستحيل أن يكون ناشئا عن ريبة
أحسها الزوج ولم يصل إلى وقوع تلك الفاحشة ، وتكون نيران الغيرة
والحمية قد تفخت في منخره حتى خال التخمين يقينا . وقد قالوا ؛ « إن
الحريص بسوء ظن مولع » فلو جعلت كلمته ضربة لازب على زوجته ،
وحرمت من باب تنقذ نفسها منه أن لو كانت في الواقع بريئة ؛ لكان

في ذلك إجحاف بحقها ، شرع لها المخلص الذي يدرأ عنها العذاب ، وهو أن تقابل شهادته بشهادات أربع مثابها ، وتأتي في الخامسة بما هو أشد من خامسته ، وهو استحقاقها غضب الله إن كان من الصادقين . والغضب أشد من اللعنة ، فإن اللعنة هي الطرد والبعد من الرحمة ، وأما الغضب فهو السخط وإنزال المقت والعذاب ، ولا يلزم من البعد عن الرحمة إنزال السخط ، كما تقول : فلان لا يستحق مني عطفاً ، ولكن لا أريد أن أضره ، وإن كان الحرمان من رحمة الله مما لا يقبل لمخلوق باحتماله . فلما كانت هي أصل البلية ومنشأ هذا الفجور بأطاعها وحياتها أمانة من أئتمنها ، غاظ عليها باستيحابها الغضب على نفسها .

هذا على فرض كذبها ، وعلى فرض كذبه هو يكون الواقع منه سب البريء ، وهو أهون من ارتكاب فاحشة الزنا ، ولذلك اكتفى منه باستيجاب اللعنة على نفسه . وقد ذكر الفقهاء في حكم اللعان أنه يجب التصريح بالمشهود عليه ، وهو إرداف كلمة من الصادقين ، أو من الكاذبين بكلمة « فيما رماها به من الزنا » ، ليكون المحلوف عليه ، أو المشهود عليه واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا احتمال للتأويل والمخلص ، وهذا شأن ما يجري بين الناس في كبريات الأمور ومخاطرها حتى لا يكون عرضة للتلاعب بالتأويل . ولا ينافي هذا عدم التصريح به في الآية الكريمة ، لأن الآية من باب التعاميم ، وذلك كاف فيها . وحسن الحذف أن الشنائع المستنكرة مما يحسن أن يصاب عنه اللسان والسمع .

والتعبير بهذه الصيغة ، وهي « إن » المعقبة باللام التوكيد ، وجعل
الخبر من الصادقين ، فيه من التأكيدات ما فيه ، فإن واللام أمرها
ظاهر ، وعبارة من الصادقين زيادة في التوكيد ، كأنه جعل وصف
الصدق ثابتاً له يعرف به حتى ينخرط فيمن عرفوا بوصف أنهم صادقون .
وقراءة حفص برفع أربع والخامسة وتشديد أن ، وقرئ بنصبهما ،
وقرئ بتخفيف أن ورفع لعنة .

وقوله تعالى : « ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله
إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين »
يفيد أن العذاب والحد والرجم قد استحق عليها بلعان الزوج ، ولكن
لها مخلص إذا سلكته تدفع عن نفسها ماوجب عليها ، وذلك
مأخوذ من قوله : « ويدراً عنها العذاب » فالدرء الدفع ، وإنما يكون بعد
توجهه . وكامة العذاب بال تفيده أنه ذلك العذاب المستحق على
مرتكب تلك الجريمة ، وهو الرجم إذ كانت محصنة .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم وعظهما أولاً ، وخوفهما عذاب
الآخرة ، فلما جاء دورها أعاد عليها العظة ، وقال : إن الرجم في الدنيا
أخف من غضب الله في الآخرة . وروى أنه أمر من يضع يده على فيها عند
الخامسة ليحول بينهما وبين التورط فيما اندفعا فيه ، وليترك لهما فرصة
للتبصر عساها يتعظان ويرجعان ، ولكنها تبادت . وقد أخذ من ذلك
أنه يسن للقاضي ألا يتركهما واندفاعهما ، بل يذكرهما ويعظهما ويسهل
لهما سبيل الرضا بالحد ، بل يهيب لهما فرصة ، وبخاصة عند الشهادة
الخامسة .

ومتى لاعن الزوج حرمت عليه وقضى بالتفريق بينهما ، فقييل
 الفرقة بتفريق القاضى ، وقيل مجرد اللعان موجب للفرقة وإن لم يقل
 القاضى فرقت ، ثم قيل : إنها حرمة مؤبدة ، وقيل كالطلقة البائنة
 يجوز له أن ينحكها اذا عاد وكذب نفسه وحد . وقد قرىء بتخفيف
 أن ورفع غضب ، وقرىء بتخفيفها ولفظ غضب بصيغة الماضى .
 ولما كان هذا الأمر على شناعته لا بد من الابتلاء به ، فان الانسان
 هو الانسان ، والشيطان هو الشيطان ، والاعواء دأبه ، وضعف الانسان
 وانهمزاه أمام جيوش الشهوات ووساوس الشيطان لا بد أن يكون ولو
 على وجه الندرة ، كان من الرحمة والفضل هذا التشريع ، فقال تعالى :
 « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » . والفضل هو
 الزيادة فى الاحسان ، والرحمة هى الصفة التى يكون أثرها الاحسان .
 وكأن الاتيان بها بعد لفظ الفضل لبيان أن هذا الاحسان الذى تشهدون
 آثاره هو ناشىء عن صفة ذاتية لدى الحق جل جلاله ، لا يخشى عليه
 الانقطاع ، ولا يعتريه النفاذ

وقوله : « وأن الله تواب حكيم » معنى التواب حين يسند الى الله
 تعالى ، الذى يقبل التوبة من عباده كثيراً ، فكلمة تاب العبد توبة
 صادقة قبلها منه وإن وقع بعد ذلك فى جريمة . والحكيم الذى يراعى
 الحكمة فى أفعاله وأحكامه . وإنما حذف جواب لولا للإشارة الى أنه
 مع علمه على وجه إجمالى ، فهو مما لا تحيط العبارة بتفصيله ، ولتذهب

النفس فيه كل مذهب ممكن ، ورب محذوف هو أوسع دلالة من مذکور ، وكأن المعنى : ولولا ما حفضكم من فضل الله ومزيد إحسانه وأن ذلك مصدره الرحمة الذاتية التي كتبها ربكم على نفسه ، وأنه يعرضكم للتوبة ويفتح لكم سبيلها ، ويهيئ لكم فرصها ويقبلها منكم ، وأنه يراعى المصالح والحكم في أحكامه ، لولا ذلك كله لكان ما كان مما لا تطيقونه ولا تحملونه ، ولا تحيط به العبارة ، فقد تفضل عليكم بفتح المخلص من تلك الورطات الكبرى ، ورطة أن يفجأ الرجل بأشد ما يكره في أعز ما يحتفظ به ، فان قتل مهاجمه قتل به ، وإن سكت سكت على ما لا يطيق عليه صبراً ، وإن تكلم استوجب حد القذف وردت شهادته بين المسلمين ، فتفضل عليكم بتشريع هذا الحكم المنقذ له رحمة منه وفضلا ، ولم يهمل شأن المرأة ، وقد تكون مظلومة ، ففتح لها باب المخلص تدفع عن عرضها وشرف قومها ، فشرع لها اللعان ، ورحمها معاً بالستر على الكاذب منهما في الدنيا ، وتعريضه للتوبة ، وربما صدق فيها فأحرز مع ستر الدنيا المغفرة في الآخرة .

فأى حكمة ورحمة أوسع من هذا ؟ فهو الحكيم العليم ، التواب الرحيم نسأله أن يمن علينا بالدخول في واسع رحمته ، وأن يجعلنا بادراك سر حكمته في شريعته ، فهو الوهاب ، لا مانع لما أعطى ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

الافك

(إن الذين جاءوا بالافك عصابة منك لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والاخرة لاسمتم في ما أنضمم فيه عذاب عظيم . إذ تناقروا بالسننكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . لولا إذ سمعتموه قاتم ما يكون لنا أن نتسكم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) :

سبب النزول — كان من عادته صلى الله عليه وسلم إذا خرج الى غزاة أن يقرع بين نسائه ، فأيتهن خرجت عليها القرعة اصطحبها معه في سفره ، فلما أراد الخروج لغزوة بنى المصطلق أقرع بينهن فخرجت قرعة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضی الله عنهما ، فسافرت معه ، وكان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد نزول آية الحجاب ، فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة نزل منزلا قريبا منها ، ثم أمر بالرحيل فمشت رضی الله عنها حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها ،

ثم أقبلت الى رحلها فافتقدت عقدا لها كان في عنقها ، فرجعت تلتتمسه حيث كانت ، فحبسها ابتغاؤه ، وجاء الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن ، والنساء اذ ذاك خفيفات اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت إذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا مجيب ، فأمت المنزل الذي كانت به ظانة أنهم سيرجعون اليها حين يفقدونها ، فجلست حتى غلبها النوم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسي شيئا فيحمله الى المنزل الآخر ، فلما أقبل عليها عرفها ، وقد كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فأناخ راحلته بجوارها وولاها ظهره ، وأخذ يسترجع ، شأن المؤمنين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت على استرجاعه فوجدت الراحلة بجانبها فركبتهما ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكي لا يقع بصره عليها حتى وافى القوم وهم نزول في المنزل الآخر ، فرجماعة فيهم المنافق عبد الله بن أبى ابن سلول ، فسأل فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الافك ، وفتن بكلامه نفر من المؤمنين ، فلما قدموا المدينة مرضت عائشة ، ومكثت شهرا لا تدرى ما يقول الأفاكون ، قالت : وما كان يرينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أنى لم أكن أرى منه اللطف الذى اعتدته منه اذا كنت أشتكى ، فكان يدخل فيسلم ويقول : كيف تبيكم (وتى إشارة للمؤنث) ثم ينصرف ، فلما نقيت خرجت مع أم مسطح لبعض شأنهما ، ولم يكن من عادتهم اذ ذاك اتخاذ

الكنف في البيوت ، فلما رجعتا عثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت :
 تعس مسطح ! وكان مسطح أحداً خائضين في الأفك ، فقالت لها عائشة :
 بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا ! قالت : أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت
 وما قال ؟ قالت : أما إنك من المحصنات الغافلات ، إنه يقول كيت وكيت ،
 وأخبرتها بأفكهم ، فعاودها المرض أشد مما كان ، فدخل صلى الله عليه
 وسلم وسأل عنها كعادته فاستأذنت منه أن تأتي أبوها ، تريد أن تستيقن
 الخبر من قبلهما ، فأذن لها ، فأنت أمها وسألتها : ما يتحدث الناس ؟ فقالت :
 يابنية هوني عليك فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا
 أكثرن عايبها ، فقالت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ! وملكها
 البكاء ليلتها لا يرقأ لها دمع ولا تكتمحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين
 ويوما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار بعض الصحابة في ذلك
 ففهم من قال : والله ما نعرف عن أهلك إلا خيراً ، ومنهم من قال : لم يضيّق
 الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فسأل بريدة
 فقالت : والذي بعثك بالحق ما علمت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها
 جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ، فقام
 صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد وصعد المنبر وقال فيما خطب :
 يا معشر المساميين : من (١) يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟
 (١) أصل معناه من يقيم العذر إن بطشت به وتكون إجابة بعد الآية مبالغة
 في إقامة العذر . إذ قد خلقه فيما يريد أن يفعله .

فوالله ما علمت على أهلى الاخيراً — يريد عبد الله بن أبى — فقام سعد ابن معاذ وهو سيد الأوس فقال : أنا أعذرک منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، فرد عليه سعد بن عبادة سيد الخزرج وقد ملكته الحمية وذكرى أيامهم الماضية التى أتقدهم الله منها وألف بين قلوبهم — وللشيطان مسالك ولكن لا يلبث الايمان أن يتغلب عليها — ثم تحرش الحيان ببعضهما ببعض حتى هما أن يقتتلا ، فخفض بينهما صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم عليها وهى فى بيت أبويها فتشهد ثم قال :

أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فإن العبد اذا تاب تاب الله عليه . قالت : فلما قضى صلى الله عليه وسلم مقالته تقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . وذلك شأن البرىء يستشعر بعزة النقاء والبراءة ، ثم قالت لأبيها : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ما أدرى ما أقول . وقالت لأمها كذلك فأجابت بمثل جواب أبيها ، فقالت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ذلك القول حتى استقر فى نفوسكم ، ولئن قلت لكم إنى بريئة — والله يعلم أنى بريئة — لاتصدقونى ، وإن اعترفت لكم بما يعلم الله أنى بريئة منه لتصدقننى ، والله لا أجدلى ولكم مثالا الاقول العبد الصالح أبى يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! واضطجعت على فراشها ، قالت : وأنا والله أعلم أن الله سيبرئنى ، ولكن ما كنت أظن أن سينزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولقد كنت

أحقر في نفسى من هذا، وإنما كنت أرجو أن يرى صلى الله عليه وسلم رؤيا في منامه يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما قام صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولا خرج أحد من البيت حتى أنزل الله الوحي على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي، قالت: فوالله ما فرغت وما باليت، علما مني ببراءتي، وأما أبو أي فحسبت أن نفسيهما ستخرج فرقا من أن ينزل الوحي محققا ما قال الناس، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال: أبشري يا عائشة، أما والله لقد برأك الله. فقالت أمها: قومي إليه، فقالت: لا أقوم ولا أحمد إلا الله الذي برأني، فنزلت الآيات العشر: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وقد كان مسطح قريب أبي بكر: كانت أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزل قوله تعالى: «ولا يأتأ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى» إلى قوله: «الأتحبون أن يغفر الله لكم» فقال أبو بكر: بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لي، وعاد للنفقة عليه. ولقد سقنا هذه القصة على طولها ليتبين سبب نزول هذه الآيات، ولتتجلي ما فيها من أخلاق كريمة من عائشة وأبويها، وليظهر أن الذين كانوا يزعمون الإيمان وهم خلومنه إبقاء على أنفسهم، ما كانوا يأتون جهدا في تتبع ما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكانت السياسة الشرعية والحكمة في الدعوة مدعاة للكف عنهم حتى لا يقال إن رسول الله يقتل أصحابه.

المفردات - الافك : هو أبلغ الكذب وأبعده عن الصدق .
والعصبة : الجماعة المرتبطة بعضها ببعض لغرض يجمعها ، وهى من
العشرة الى الأربعين ، وقيل من الأربعة فصاعدا . والخطاب فى منكم
ولكم جماعة المؤمنين . وقوله : « لا تحسبوه » : الحسبان الظن ، ويقال
غالبا لظن خلاف الواقع .

والمعنى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان وأتت به من عند
أنفسها ماخرجوا عن أنهم عصبة منسوبة اليكم ومعودة منكم ،
فلا تثرأ نفسكم عليهم كل الثوران ، فالمرء عادة عرضة لأن يصاب من
أقربيه ، وأجمل شىء به حينئذ أن يغضى بعض الاغضاء ، ولا يبلغ
فى الاستقصاء . والتسلى بهذا المعنى معهود عند العرب كقول الشاعر :

قومى هو قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصينى بهمى

وأيضافانهم عصبة والعصبة جماعة قليلة تعصبت وائتمرت على أمر بيتته
وتراپطت عليه ، وفى ذلك تهوين لشأنه ، إذ ليس التحدث به مستفيضا
بنفسه بل بيته قوم محصورون . فالغرض من هذا الاخبار بدء التسلية
لمن أصيبوا بذلك وهم من وجه اليه القذف ومن يتصل به : أى عائشة
وصفوان وأبو بكر وزوجه والمصطفى صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى
بعد ذلك : « لا تحسبوه شرأ لكم بل هو خير لكم » فيه من التسرية
عنهم مايزيل أثر كل حزن ، فكفى بشهادته جل شأنه أنه خير لا شرفيه ،
وكيف لا وقد حازت به عائشة رضى الله عنها شهادة ببراءتها يقينا ،
وأصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءاً من إيمان كل مؤمن . ومن

شك فيه فقد كفر، إذ شك في خبر الله عز وجل. وفيه التوعد لأولئك الذين اختلقوه باستحقاق كل منهم من الله جزاء ما كسب، فالله القادر القاهر هو الذى تولى عنكم عقوبة من آذاكم، وخص كبيرهم فى هذا بالعذاب العظيم. وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطلب ظن الخير وعدم المسارعة إلى سوء الظن، والدعوة إلى تطهير اللسان وصون الآذان، والتحرز عن الخوض فى كبريات التهم بلا علم، وتقدير بينات التهمة بحسب فظاعتها، حتى لا يتخذ الناس الكيد بالاتهام الكاذب ذريعة للخدش والنكابة بلا حق.

فكل هذا من الخير الذى عاد على المقذوفين ومن اتصل بهم، وعلى عامة المؤمنين بسبب هذه الحادثة، والله فى طى كل مصيبة نعمة، فسبحان من لا يحمد على مكروهه سواه، إذ فى ضمنه محبوب ورحمة وإن لم يطلع على ذلك صاحبها. ولقد ترى من آثار الخير ما بدأ من عائشة رضى الله عنها فيما بيناه فى القصة السابقة من استجاعتها قواها وعدم تضعفها وقت أن جد الجدين عرض صلى الله عليه وسلم مقالته عليها، ورجوعها أدبا منها لأبويها ليحييها، وتنحيهما عن أن يهجمتا على البت بأمر لا يتعلق بأنفسهما وإن كان متعلقا بأعز نفس عندهما، احتراماً للحق، ووقوفاً عند حد العلم.

وما بعد هذا مما نراه متكرراً من اندفاع الناس للدفاع عن آبائهم وذويهم بغير علم، واجترأهم على الخلف فيما لا سبيل لهم إلى عامه، إلا مجرد حسن الظن أو ميل القلب لمن يدافعون عنه! ثم قولها رضى الله عنها:

لقد سمعتم هذا القول حتى استقر في نفوسكم ، وهي قاعدة مقررة أن تكرار القول من شأنه أن يترك كل مرة أثرا في النفس حتى ينقلب من الإنكار إلى الشك إلى الظن إلى الاستقرار ، ثم إياؤها التكلم بما لا ترى في نفس مخاطبيها استعدادا كاملا لقبوله ، وردها الأمر إلى الله مستعينة بالصبر ، وثقة بمعاونته جل شأنه ، فهذا مظهر من الكمال العقلي والخلق لم يكن يتجلى لولا هذه الحادثة . وإن من أراد أن يستنبط منها من صنوف الخير ليجده كثيرا ، على ما في القصة من مكروه .

وذكر وعيد الأفاكين بعد بيان أنه خير ، لكي لا يبقى في نفوس من لحقهم هذا الأذى شيء من الأثر ، فقد بان خيرهم وانتقم الله لهم ممن آذاهم . وقوله : « لكل امرئ » أتى باللام في مقام على للإشارة إلى أن هذا حق لازم لصاحبه لا مفر من استيفائه . والتنصيص على أن الجزاء لاحق لكل امرئ منهم أشفي للنفس من أن يلحق بجماتهم . وغير خاف حال من تولى كبره منهم ، والكبير بكسر الكاف ، وقرئ بضمها مع سكون الباء في كل : هو معظم الشيء ، وقيل كبر الشيء بالكسر بداءته ، وقيل الأثم . والذي تولى ذلك هو عبد الله ابن سلول ، وسلول أمه ، وكان رأس المنافقين ، كان يطمع في سيادة قومه فلما جاء الإسلام وأسلم الأنصار ولم يقو على مناهضة هذه القوة العظيمة انضوى تحت لوائها قهرا وتفاقا ، وما زال الحقد والنفاق يأكلان قلبه حتى مات ، وكثيرا ما كشف ستر الرياء عن نفسه الخبيثة ، فما كان يلوح

له فرصة في التأليب على المسلمين أو إيصال الأذى اليهم الا انتهزها ، وكان ما يخفيه صدره أكبر مما يبدو من فيه ، وعظم عذابه بقدر عظم جريمته . « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » :

لولا للحث على الشيء وتأكيده طلبه ، وبيان أنه كان ينبغي أن يسارع اليه لو تذهبتهم الى ما فيه من دواعي الأخذ به ، وتلك الدواعي هي أولاً - أن من عمر الايمان قلبه من رجل أو امرأة وأحس من نفسه أنها تأبى الوقوع في مثل هذا الفحش ، ينبغي أن يقيس على نفسه من شاركه في وصف إيمانه ، فقد وحّد الايمان بين أنفسهم ، وهذا سر قوله : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » فكان ما تظن وقوع غيرك فيه ترى في نفسك أنه قريب الوقوع منك ، فهل أنت أيها المؤمن كذلك ؟ وحقا إن المرء يتخذ نفسه غالباً مقياساً لغيره ، ويحمل ما يصدر منه على حال نفسه ، كما قال الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وامتفزاز للحمية الرشيدة ببيان أن ما توهموا لحوقه باخوانهم في الدين فقد جروا بذلك الريبة بمثله على أنفسهم ، فكانهم رأوا الايمان غير كاف في ردع النفوس عن شرورها ، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين ، وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه فينبغي أن يغار عليها غيرته على نفسه . وقوله : « وقالوا هذا إفك مبين » إرشاد للرد المنتظر ، بأن لا يكتفوا بظن الخير في أنفسهم ، بل يجب

أن يتبعوه بردالفرية على صاحبها . واسم الإشارة القريب هنا للتحقير كأنه يصور بصورة الأمر الذي لا يتشوف اليه ولا تتبعه النفوس استقصاءً ، وذلك إنما يكون في القريب المشاهد . وإفك أى كذب تخملق بلا أصل وقلب الأمور عن وجهها ، ومفاجأة بالبهتان . ومبين أى ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج الى شدة تأمل ، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائفة بمقام النبوة أن تصان فرسهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه ، وأنه إذا جاز أن تكفر امرأة نبي كامرأة نوح وامرأة لوط ، فلن يجوز أن تفجر امرأة نبي وهى على فراشه ، فان الكفر وإن كان أشد جرماً من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عاراً ، وأشد تنفيراً ، وأوجب للاحتقار فى نظر الناس ، والأنبياء مصونون عن أن يلحقهم ما يزرى بمقامهم ، ويهد من كرامتهم . ثم منبت عائشة رضى الله عنها ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بين فى أنها رضى الله عنها أبعد فى نظر كل عقل عن أن تحوم حولها الشبه على أن صدور هذا الإفك عن قوم عرفوا بالنفاق ولهم سوابق فى الكذب والبهتان أماره على أن ماجءوا به كذب واقتراء ، ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا فى هذا ؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن هذا إفك ما كان ينبغى أن يحل فى نفوس المؤمنين محل أن يغيظهم . ولا يعكر على الوجه الأول ، وهو أن هذا لا يحتمل فى مقام الأنبياء ، كونه صلى الله عليه وسلم اختلفت عادة فى ملاطفها حال مرضها ، وأنه سألهما ذلك السؤال أمام أبويها ، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه

السلام بكلام الأفاكين . وقد قال تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » لأنه تطرق اليه رغبة في أهله ، فقد قال في خطبته : والله ما عامت على أهلي الا خيرا .

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » :

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذي اختلقوه ، وأنه من القذف الذي لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا اذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحته ، وفي ذلك تأديب وتربية على أن تعطى كل دعوى ما يناسبها من الحجج . وقد شرحنا ذلك فيما سبق في تفسير آية القذف ، وقوله : « فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » تقرير لكذبهم وتعليل له ، لأنه تعليق . فالعنى هم الكاذبون عند الله في هذا ، وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم أو ألا تنخدعوا في قولهم ، لأنهم لم يأتوا بالشهداء ، فليس هذا من باب عجز المدعى عن الاثبات ، وهو لا يستلزم الكذب ، بل من باب لوم من انخدع بكلامهم في غير مظان الخديعة . والاشارة اليهم بأولئك لاستحضارهم بصفاتهم التي بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم ، بل انحصار الكذب فيهم ، كما استفاد من الجملة المعرفة الطرفين المشتملة على ضمير الفصل ، كقولهم : هذا هو القاتل ، أى لا قاتل غيره ؛ فكأن كذبهم لشدة شناعته قد استأثر باستحقاق اسم الكذب ولا كذب غيره . ومثله قولهم : هذا هو الرجل أى لا رجل سواه . وكلمة (عند

الله) أى فى علمه وفى الواقع : فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم ، فأى أمر هو أثبت مما فى علم الله؟ وعلى هذا يكون الكلام فى مورد القصة بعينه ، وهو قذف أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتكون لولا للتبكيه والتأنيب لالحض والطلب

وفى الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم بحيث يشمل هذه القصة وكل ما يماثلها من نوعها ، وإذا تكون لولا لبيان ما يطلب فى مثل هذه الحال . وقوله : « فاذلم يأتوا بالشهداء » الخ : يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطالبة فهو كاذب عند الله ، أى حكمه فى شريعة الله حكم الكاذب يقينا ، فيقام عليه حد الكاذب ، وإن فرض صدقه فى الواقع . فعنى (عند الله) أى فى حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » .

لولا هنا للربط والتعليق ، وهى التى يقال فيها حرف امتناع لوجود ، أى دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة . والفضل : الزيادة فى الجود والكرم ، والرحمة : الرأفة ، وكلاهما فى الدنيا — بافاضة النعم التى منها الامهال للتوبة والارشاد لطرق الخير ، وفى الآخرة بقبول توبة التائبين وإثابتهم على امتثال أوامره : وقيل : إن « فى الدنيا » يرجع للفضل « والآخرة » يرجع للرحمة ، ولاداعى له . والتعبير بالمس تهويل شأن العذاب وأنه يكفى فى الازعاج به مسه ، لانهوين الاصابة به . والافاضة : الخوض مع الاكثار ، كأنهم زادوا فى حديثهم حتى فاض

من جوانبهم كما يفيض الماء من جوانب إنائه . ووصف العذاب بالعظم
ليكافي عظم الخطب الذي وقعوا فيه . والخطاب لعموم الخائضين
وإن كان فيهم ابن سلول ، فإنه داخل في الفضل والرحمة في الدنيا ، وقد
هيئا له في الآخرة ففوتهما على نفسه بإصراره بعدما تبين الحق . ويجوز
أن يكون الخطاب لعامة المؤمنين على معنى أن هذا الذي وقع فيه من وقع
لولا فضل الله ورحمته لكان من موجبات عموم العذاب ، كأنه من
الفتن التي لا تختص نتائجها بالذين ظلموا . وقيل الخطاب للخائضين
غير ابن أبي

وفي الآية نوع آخر من الخير وهو تنبيههم على نعمة الله عليهم
ورحمته التي يجب أن يشكروها ويعرفوا قدرها فلا يغتروا بامهال عقوبته
حتى يأمنوا مكر الله ، وإذا تورطوا في معصية فلا يأسوا من روح
الله . فهذا ما فيه الخير لعامة المؤمنين ، وأما الخير الخاص بالمقذوفين
ومن يتصل بهم ، فحسبك منه هذا التنويه العظيم بشأنهم ، إذ كاد سوء عمل
أولئك القاذفين يرد بهم في سوء العذاب باقامة الحد لولا فضل الله ورحمته .
« إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه
هيناً وهو عند الله عظيم » :

اذ ظرفية متعلق بمسكم ، وفيها معنى التعليل ، فان ربط الفعل
بوقت حادثة مشعر بأن حصوله بسببها ، أي مس العذاب لتلقى ذلك
القول . والتلقى والتلقف والتلقن متقاربة المعنى ، أي أخذ الشيء بحرص
واعتناء ، الا أن في التلقى معنى الاستقبال له والتهيؤ لأخذه ، وفي

التلقف معنى السرعة في الالتقاط ، وفي التلقن معنى الخدق في تفهيمه واستقصائه. وقوله : « بالسنتكم » معناه أنهم كانوا حين ملاقاتهم بعضهم بعضاً يستشير أحدهم الآخر بسؤاله ما وراءك ؟ فكان يتلقى ذلك القول ويجتذبه بلسانه ، لا أنه مجرد سماع عفوياً ، وبهذا يظهر ما فيه من معنى الجرم الذي هو أكبر من مجرد السماع أو الاسماع . وقوله : « وتقولون بأفواهكم » معناه أن هذا القول لم يكن له محل في قلوبكم وأمارات تقره في نفوسكم ؛ بل هو قول إذا رجعت إلى أنفسكم لا تجدونه يتجاوز أفواهكم ، فالأحد منكم به من علم . فالتقريع فيه من جهة الاقدام على ما لا علم فيه ، فهو كقوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ». ويجوز أن يكون تشنيعاً عليهم ، كقولاك : تقول هذا بفمك أو بملء فمك ، أي تجاهر به ولا تخشى ما فيه من ضرر وخطر . وقوله : « وتحسبونه هيناً » تنبيه على جرم آخر وهو استهانتهم بما وقعوا فيه ، فالواحدة فيه في ثلاثة مواضع : تلقى ذلك بالسؤال عنه ، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم ويمثلون به أفواههم ، واستهانتهم بما صدر منهم فلا ينعتفون إلى الاستغفار والاقلاع مع عظمه عند الله . والخير في ذلك لعامة المؤمنين : التربية والارشاد إلى قبح ما وقعوا فيه ، ليتعلموا دقائق الأعمال وما تحويه من خطر حتى لا يتردوا في مثلها في المستقبل ، وآثار ذلك الارشاد واضحة جليلة ألمع إلى شيء منها في الآية التالية ، وهي قوله جل شأنه : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » فان فيها

تنبيهاً على ما كان ينبغي أن يصدر منهم حين سماعه من التحرز عن التكلم به فضلاً عن الافاضة فيه ، وتلقيه بالسنتهم بحثاً عنه وجرياً وراءه . ولولا هنا للحث المصحوب باللوم ، اذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم ، فان دلائله واضحة . فان فيه إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة » ، وقد فالأمة المؤمنين وما عهد عليها ولا على أحد من بيتها ما يريب ، وإقداما على ما يضر المقدم عليه بلا احتمال لمنفعة عاجلة ولا آجلة ، ومثل هذا لا ينبغي أن يصدر من عاقل فضلاً عن من ملك الايمان قلبه ، وافتياتا بلا علم على ثلم شرف هو أعز على صاحبه من كل شيء ، فكل هذه الوجوه كان من حقها أن تؤدي الى أن يقولوا : « ما يكون لنا أن نتكلم بهذا » . وهذا من أباغ طرق التربية والتعليم للمسالكة التي يحسن بالمؤمن سلوكها ، والطريق التي يليق به أن يترسمها في كل شئونه . وقوله بعد ذلك : « سبحانك » فيه أولاً تنزيه الحق جل جلاله عن أن يرضى لأكرم الخلق عليه صلى الله عليه وسلم بحلول هذه النقيصة بألصق الناس به ، أو أن يرضى عن طغيان أولئك الأفاكين . وقوله : « هذا بهتان عظيم » أصله من بهته اذا فاجأه بكذب مختلق بلا أصل ولا يخطر على البال ، فان المرعى بهذا يهت ويدهش ، وعظمه لعظم خطره وشدة وزره

هذا وقد روى أن بعض الصحابة رضى الله عنهم حين سمع هذا قال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . فكان

في الآية إشارة إلى حسن التأسي بهم ووجوب التفطن لما هو الأعظم قبولاً في نظر العقل ، والأشد انطباقاً على الأخلاق الشرعية . ولا يعكر على هذا ما بدا على أبي بكر وزوجه من الجزع ، فما كان ذلك لريبة لحقتهما ، وإنما هو التأذي مما أصيبوا به من الكلام البذيء بلا وجه حق . وقد روى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين ما يقول الناس؟ فقالت : لو كنت مكان صفوان أ كنت تظن بحرم رسول الله سوءاً؟ قال : لا ، قالت : ولو كنت مكان عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة خير مني وصفوان خير منك . فقال أبو أيوب : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانهك هذا بهتان عظيم .

« يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » :

هذا كالنتيجة للآيات السابقة ، وإفادة أن ليس الغرض منها مجرد التقرير والتوبيخ ، وإنما يقصد منها العظة والتعليم حتى لا تقعوا في مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر . وقوله : « أبداً » أي ما دمتم أحياء . واقتراحه بأن كنتم مؤمنين ، لبيان أن ذلك مقتضى الإيمان وثمرته ، فإذا لم تتعظوا به فإن الإيمان لم يملك قلوبكم ولم يؤت ثمره في نفوسكم . وقوله : « وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » حث للعقول على التدبر في أحكامه وحكمه ، ليعين ذلك على قبول النفس لها وعظم رغبتها في الامتثال . وتكرار لفظ الجلالة في الآية الكريمة لتمكين ذلك في النفس فضل تمكن . والعليم : المحيط بكل شيء وما يترتب عليه : والحكيم : الذي يضع الأمور في نصابها وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات المقصودة منها

المراد على
إشاعة الفاحشة
في المؤمنين

(إن الذين يحبون أن تشيع الفحشة في الذين آمنوا لهم
عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا
فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . يأيها الذين آمنوا
لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر
بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من
أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم) :

وهذا باب آخر من أبواب الخير الذي أنعم الله به على الأمة بسبب
هذه الحادثة الشديدة ، حادثة خوض من خاض في أم المؤمنين رضی
الله عنها ، ذاك هو هدايتهم الى شدة خطر هذا الجرم وعظيم هوله ، وقد
كانوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . وإنك لا تجد من أنواع الجرم
ما يقدم عليه صاحبه غافلا عن عظيم خطره إلا جرم اللسان ، وكأن
سهولة حركته بطبعه ، ولذة التحدث بالأمور المستغربة ، وحسبان
أن الكلام لم ينقص من المتكلم فيه شيئا محسوساً يذكر ، مع اعتياد
الناس التساهل في القول والسمع ، كل أولئك جعل الناس يحسبونه
هينا وهو عند الله عظيم .

إن من شاء أن يشهد عظمه يرجع الى ما يجده من نفسه حين ينقل
اليه أن فلانا نله بكلام يكرهه وإن كن صادقا ، فإنه يجد من غليان

دمه وثوران نفسه ورعدة جسمه ما يحمل على الجزم بأنه لو تمكن منه ما أبقى عليه ، فاذا كظم غيظه كظمه على حقد وحرص ، وترى له في نفسه من المقت والكراهية ما يجعله يترصد به الدوائر ، ويسره أن يراه في أشد مكروه ، هذا إذا لم يشغل فكره في الانتقام منه . وناهيك بضرر نزع الرحمة من قلوب متحابة ونفوس متآخية . هذا كله في الكلام المستكره مطلقا ، فما بالك بالكلام في العرض وهو مستقر الشرف ومستودع الحياة الحقيقية ؟ وكيف إذا كان من ينال من عرضه سيده محصنة ؟ وكيف إذا كانت من أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة ؟ أفليس العقل لأول نظرة ، وأدب الدين لمن تمكن الايمان من قلبه ، يقتضيان أن يقولوا : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبجانك هذا بهتان عظيم ؟

والشيوع : الانتشار . والفاحشة والفحش : الجرم المخزى المعيب ، وقد يكون الجرم شديدا كالقتل والكفر ولا يسمى فحشا وفاحشة ، فانك لا تجد القاتل يلحقه من العار والخزى والاستخذاء وتنكيس الرأس خجلا وعارا مثلما تجده فيمن رمى بتلك الفاحشة . وإن أسلوب الآية من ربط العذاب الأليم في الدنيا والآخرة بمحبة الشيوع مع أن الظاهر أن يقال : إن الذين يشيعون الفاحشة الخ ، فيه مبالغة في الزجر والتهويل ، وكأنه يقول : إن المحبة لهذه الخطة المرذولة والرضا بها موجب للعذاب في الدنيا والآخرة ، فكيف بالخوض فيها والعمل على نشرها بالفعل ؟ (وترتيب العذاب على محبة الجريمة المستلزمة

الاصرار عليها لا ينافي قولهم : إن الهم بالمعصية ثم تركها
 لا عقوبة فيه) . وهو في هذا منبه للمؤمن على أصل الداء من نفسه ،
 وهو محبة هذا الأمر الشنيع الفظيع ، فتى تنبه لأصل الداء عمل
 على مداواة منه ، واستأصل شأفة العلة قبل بدو آثارها . وإن فيه مع
 الارشاد الى العلاج الحاسم تنبيهاً لمنشأ المرض ، وهو ميل النفوس
 بفطرتها الى التسامى في الشرف والمجد ، وأن تفوق غيرها في كل فضيلة ،
 فإذا شعرت بنقيصة عند الغير رأيت ذلك موافقاً لرغبتها وأثرتها ، وهو
 انفرادها بالطهارة حيث تدنس الغير ، فيسترسل في الجريمة وهو لا يشعر .
 فانظر الى هذا التأديب العجيب والاعانة على تعرف مكن الداء ليستأصل
 بأسهل دواء ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك .

وإنك اذا تأملت في تعليق الشيوع بالفاحشة نفسها مع أن المراد
 شيوع خبرها والحديث فيها ، وجدت باباً آخر من الارشاد ، ذلك أن
 الأسماع التي لم يطرقتها حديث الفحشاء تجدد أصحابها في أكمل نقرة من
 خطراتها على نفوسهم ، فاذا ما طرقت سمع أحدهم حديث فحش مرة اشأزت
 نفسه وأكبرت الأمر ، وملكه من الهلع والذعر الشيء الكبير ، فاذا
 ما تكررت على سمعه مرة أخرى كان اشئزازة أخف ونقرته أقل ، فلا يزال
 يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمراً مألوفاً لا يستنكره ولا ينفر
 منه ، وقد يزيد حتى يستمرى الحديث ويصغى اليه ، وهنا تنفتح
 أمامه هوة التدهور فيتردى فيه ، وقدمات حارسه وهو عاطفة الاستنكار
 والنفرة . فترى بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة ،

فلاجرم عبر به عنه . ومما يزيدك استبصارا في هذا ماترى من تخرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث ، فما ذاك إلا لما وقر في النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس اليه فيردى فيه . وهل يشك أحد في أن من أساليب الترغيب في الشيء خيرا كان أو شرا تكرر ذكر حوادثه وتفصيل شئونه ؟ وهل يربى الشجاعة والكرم في النفوس مثل أخبار الشجعان والأجواد ؟ فهذا من سر التعبير بقوله : « يحبون أن تشيع الفاحشة » الخ .

وإذا كان ذكر الفاحشة مستكرها على كل حال فان للتعبير بهذا اللفظ هنا جمالا ياله من جمال ، فقد بين به ما يحمل على النفرة منه ، واختير على لفظ الزنا تحاميا عن ذكره في هذا الموطن ولو بطريق النفي مبالغة في تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها ، ثم ليعم جميع أنواع الفحش . وأما قوله جل شأنه : « في الذين آمنوا » ففيه إثبات ما هو كدليل البراءة للمؤمنين والتكذيب للأفكانيين ، وهو إيمان من وجه اليهم هذا الرمي الشنيع ، وما كان المؤمن الصحيح الإيمان مظنة لهذه المنكرات ، كما أشير إلى ذلك بقوله عز وجل فيما تقدم : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » . وفيه مع هذا لفت نظرهم إلى ما في أنفسهم مما يمنعمهم من هذا الفحش ، وإنهم ليجدون من أنفسهم أن إيمانهم يمنعمهم من مقارفته ، فحقهم أن يقيسوا إيمان مزرمومهم على إيمانهم ، وهذا كما يفهم من التعبير عن المرميين (بأنفسهم) في الآية السابقة .

وقوله : « لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » قالوا : إن التعبير بلهم

فيه إشارة الى أن هذا حق من حقوقهم ملازم لهم لا يعدوهم ولا يخلصون منه، فهو نصيبهم من عملهم . والعذاب المتوعد به في الدنيا شامل لحد القذف ، ولما يصيب المتعرض للأعراض غالبا من مصائب الدهر ، ولحوق المخزيات ، وتسليط الألسنة على عرضه تثير منه ما كمن بالباطل وبالصحيح ، ومن غربل الناس نخلوه ، ومن فتش عن عوراتهم فضحوه ، ومن لا يتق الشتم يشتم . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى . ويبين جانبا من خطره ما شرحناه آنفا في شديد وزره وقبح أثره . فالجزاء على قدر العمل .

وأما قوله تعالى : « والله يعلم وأتم لا تعلمون » فهو تميم لهذه الارشادات منزل منها منزلة قوله فيما سبق : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » . كأنه يدفع بها خاطر من يظن أن مجرد الكلام كثير عليه أن يستتبع كل هذا الوعيد ، فاخرج عن أنه كلام ؛ والكلام فيه الصادق وفيه الكاذب ، فجاءت هذه الجملة الجميلة لتبين لهم أن الله عليم بالأعمال وآثارها ، وما يترتب عليها في نفس من وجهت اليه ، وفي نفس من وجهت منه ، وفي نفس السامعين ، من مضار كثيرة ، وقد أشرنا فيما سبق إلى شيء منه ، فكأنه تعالى يدعونا الى أن نتمسك بهدايته فيما تبين لنا وجه الحكمة فيه وفيما خفي عنا ، فهو العليم الحكيم ، وهو الرؤوف الرحيم ، فلا تتركوا علمه الحق الى أوهاكم الباطلة ، فلذلك أردفها بقوله جل من قائل : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رؤوف رحيم » فقد تنزل عليكم وأرشدكم الى ما فيه خيركم ،

وزجركم عما يقطع أوصالكم ، وينفر قلوبكم بضعكم من بعض ،
ويربى الضغينة والتقاطع والتدابير في نفوسكم ، وأقل ثمرة من ثمراته
أن يجعل أحدكم يحب الضرر لصاحبه ، ويجعله يفرح به ولو لم يكن
من ناحيته ، فكفى بهذا شوماً ، فضلاً عما ينشأ عنه من استهتار
النفوس الضعيفة في الفحش ، واستهانتها بالوقوع فيه ، لتكرار ذكره
أمامها ، أو لنسبته الى من كان يظن فيه الخير ، فيقول في نفسه :
وأين أنا من هذا ؟ اذا كان هو قد حصل منه فلم لا يحصل مني ؟ فيكون
بئس المرء !

ولا تتوهم أن في قوله : « وأن الله رءوف رحيم » تكراراً مع
قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » فإن في الأول ذكراً للآثار اللاحقة
بالعباد والرحمة المسبغة عليهم تنضلاً منه وإحساناً ، وفي الثاني ارتقاء
بذهنهم ليشهدوا صفة تعالى الثابتة القارة التي هي مصدر تلك الآثار وعنها
تنشأ جميع النعم ، هذه الصفة التي يقرب فهمها قولهم في جانب المخلوقين :
ملكة راسخة في النفس . فكأنه لفت نظرهم أولاً للآثار المتجلية
الواضحة ، واستطرق الى ما هو منها بمنزلة المدلول من الدليل ، وهو
صفة الرحمة القائمة به تعالى . وحذف جواب لولا يفيد مالا يفيد أي
ذكر ، فكأنه قيل : لولا الفضل والرحمة لوقعتهم في أشد المهالك ، ولضلت
بكم المسالك ، ولكان بضعكم على بعض شراً ووبالاً ، ولساءت حياتكم
حالا ومآلاً ، فالحمد لله على فضله ورحمته .

«يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر» :

هذا إرشاد جديد، وتنبيه أوسع دائرة مما سبق، وتحذير من عدو بعيد وهو الشيطان، بعد التحذير من العدو القريب وهو النفس، فقد أشير في الأول إلى بعض أسباب هذه الجريمة، وهو محبة النفس وميلها إلى الاستئثار بالشرف، والانفراد بمجد الطهارة، وبين لهم ما في هذا الأمر الذي تحبه نفوسهم من طلائع المقت والغضب الإلهي، والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. وأشير هنا إلى سبب آخر وهو ما يلقيه الشيطان من الوسوسة في النفوس وهو اجس المنكرة، وأن له تحدينا خفي مع النفوس المصغية إليه، فيوقع في وهما من منكر القول وزوره ما تعلق به ويلق بها، فتسترسل فيه وتزيد عليه من فروضها واحتمالاتها، وتستن في ذلك شوطا بعيدا جريا وراء الخطوة الأولى التي رسمها لها الشيطان وخطاها أمامها. ولا شك أن تنبيهك الغافل إلى ما سيتردى فيه، وإلى أن قائده هو عدوه الأكبر الذي عاهد الله على إغوائه، وأن يخطر عليه كل مسلك، وأن يأتيه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، هذا التنبيه بلا شك يرد إلى العاقل عقله، فيقيه شر الشرك الذي نصب لاصطياده. ومن يتبع خطوات الشيطان ضل سواء السبيل، وأشرف على غاية هي الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة، «فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر»، وأمره إغواؤه وإغراؤه ووسوسته بتزيينه الشر والقبیح؛ وإبداء ما قد يرغب فيه من اغتنام لذة عاجلة، أو آشف من نفس مكروهة.

وإنك إذا علمت أن الشيطان مخلوق حي ذو فهم وتصرف وإن كنت لا تراه ؛ ونظرت الى أنه يجري بين الناس تفاهم على أوجه شتى ، من نظرات وإشارات وتصنعات ، بل قد يجري بينهم ما هو أدق من هذا في التفاهم ، إذ قد يتفاهم اثنان بجريان الخواطر بين نفسيهما ، وإن كان قليل من الناس من يعرف هذا أو يعترف به ، أقول اذا علمت هذا سهل عليك تصور وسوسة الشيطان للنفوس ، وإلقاء المغريات بالشر في روعها ، وتذكيرها بحاسن المفاسد ولذات الفواحش ، وشغلها عن التفكير في عواقبها ، واستعانتها عليها بما وقر فيها من عواطف ، حتى إذا كانت عواطف خير قلبها الى الشر واستخدمها .

ومن أمثلة ذلك ما يحكى أن عبدا كان في صومعة ، وكان بجواره رجلان لهما أخت جميلة ، فعنّ لهما أن يسافرا فاستودعاها أختهما ليتولى إطعامها وليحميها ويحرسها ، فكان في كل يوم يحيى بطعامها يضعه على باب صومعته فتجىء تأخذه ، فحسّن له الشيطان أن يكرهها بوضع الطعام على باب بيتها حتى لا تتجشم المشى الى صومعته وقد يقابلها في طريقها ما يؤذيها ، ففعل . ثم بدا له أن يزيدا إكراما بأن يناديها لتأخذه منه حتى لا يتعرض الطعام لما قد يفسده ، ففعل . ثم رأى أن في طول مقامها منفردة وحشة سائمة ، فقد يكون من الخير أن يسرى عنها بالتحدث إليها فقرة وجيزة ، ففعل . وهناك من الشيطان أن يجعل بينهما ، فإخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، فوقعما في الهلكة .

فلقد جاءه الشيطان من طريق الخير ، ووجد من نفسه ميلا الى ذلك ،
وأغفله عما سيجره اليه من سوء المصير .

وقوله تعالى بعد هذا البيان والارشاد : « ولولا فضل الله عليكم
ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً » فيه تنويه بهذه الهداية العظمى ،
ليتمسك بها ويعمل جهد الطاقة على امتثالها . ومن الحق أن من وقع
فريسة ضعيفة بين هذين العدوين القويين الخفيين : النفس والشيطان ،
لا يكاد يزكو لولا فضل الله عليه بالتركية والتطهير ، وأتى له أن
يزكو وهو مستمرى ما تدعوه اليه نفسه ويدفعه اليه شيطانه ؟
فكيف يستمسك وهو بين قائم ضال ودافع أضل ؟ ولكن الله يزكي
من يشاء ، فهو يختار من عباده من ينقذهم من سلطان الشيطان
ويصطف فيهم عبادا له . والله سميع عليم ، فهو لا يخفى عليه شيء مما يجري
من حديث النفس أو وسوسة الشيطان ، ولا يخفى عليه شيء من
استمسك نفوس الأصفياء الأختيار ، وردم الشيطان مذموم مادحورا ،
وقعهم نفوسهم يحفظونهم من التردى في الهاوية ، فيذكرون ما يؤمنون
به من أن الله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه
قدير عظيم ، فهو مالك ناصيتهم ، فان شاء سلبهم حياتهم أو قدرهم ،
وإن شاء أمهلهم حتى يوقع بهم شديد العذاب ، وأنه ذو الجلال والاكرام
الذى من حقه أن يستحيا منه ، فلا يقدم على ما يكرهه ولو لم يكن خائفا
عذابه ، كما قيل في صهييب : « نعم العبد صهييب لو لم يخف الله لم يعصه »
هذا وفي ختم هذه الآيات بقوله تعالى : « ولكن الله يزكي
من يشاء والله سميع عليم » فتح عظيم لباب التوبة ، ودعوة واسعة الى

الدخول في حظيرة التزكية ، وتشويق الى ذلك ببيان أن الله سميع لما
يجرى منكم من خير أو شر ، فاجعلوا ما يسمعه منكم مما ترجون به رحمته .
عليم بكل شيء ، ومن جملة ذلك نياتكم التي تعقدونها على الخروج
مما تورطتم فيه من المعاصي . وإنك لتجد في هذه الارشادات المتوالية
والتربية العالية ما يشرح لك قوله جل شأنه فيما مضى : « لا تحسبوه
شرا لكم بل هو خير لكم » . نسأل الله تعالى أن يهدينا للخير ،
وأن يزيكنا بفضله ورحمته ، إنه سميع مجيب !

(وَلَا يَأْتَلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى

الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا

أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إن الذين يرمون

المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب

عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

الخبيثات للخبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ

وَالطَّيِّبِينَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

لما نزلت الآيات العشر السابقة ببراءة عائشة رضی الله عنها
حلف أبو بكر الصديق رضی الله عنه ألا ينفق على مسطح ، وكان

تقديم
مرضاة الله على
رضا النفس

ابن خالته ، وكان فقيرا مهاجرا بدريا ، وكان ممن خاض في الافك ، فنزل قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة » الى قوله : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فقال أبو بكر : بلى إني لأحب أن يغفر الله لي ، ورجع الى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه وقال لا أنزعها منه أبدا . وإن من ينظر الى جريرة مسطح من إيذائه لأبي بكر في أعز شيء عليه وهو عرض ابنته ، مع قرابته منه ، وقد قيل :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
ومع موالاته إحسانه اليه ، ولا شيء أصعب على النفس من مقابلة
الإحسان بالأساءة ، ومع بقاء احتياجه اليه ، وليس أدل على السخافة
وأوجب للدهشة من مهاجمة المحتاج من يحتاج اليه في أعز عزيز لديه
بلا موجب ، ومع كونه بلا وجه حق ولا دليل إثبات ، وما كان لمؤمن
أن يهجم في كبريات الأمور بلا تثبت ، ومع علاقة الأمر برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وإنهما من أعظم ما يجب الاحتياط فيه والتبصر في شأنه
قبل الإقدام ، نقول : إن من ينظر الى ما صدر من مسطح على هذه الصفات
التي ذكرناها ، لا يستنكر من أبي بكر رضی الله عنه أن يحلف أن لا ينفق
عليه بعد . وأى نفس بشرية تستطيع التسامح والاعضاء عن هذه
الجريرة التي هي مجمع جرائم ؟ ومع ذلك لم يتعدى يمينه حقاً من حقوقه
وهو قطع إحسانه عنه ، وليس بواجب عليه بخصوصه أن ينفق عليه
(ماعلى المحسنين من سبيل) ، فلم يزد أمر مسطح عن أنه فقير ، وليس

أبو بكر مكافأ أن يعول الفقراء ، ورابطة قرابته به وهى أنه ابن خالته لا تجعله واجب النفقة عليه . ولو أن رجلا غير أبى بكر لكان له كل العذر عادة إذا أضمر له الشر وصمم على أن ينتقم منه ما استطاع ، ولو ليجازيه على كفر نعمته عليه ، ومقابلته الاحسان بالاساءة اليه

مع هذا كله كان أبو بكر أسرع شىء الى إجابة داعى الله فقال : بلى إني لأحب أن يغفر الله لى ، وعاد الى سابق إنفاقه متعبدا ألا يقطعه عنه ، بل روى أنه ضاعف له ما كان يجريه عليه . وهذا أعظم مظهر لتمسك الايمان من قلبه وأنه ممن ينطبق عليه قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، وأن مرضاة الله فى طاعة أمره أحب اليه من متابعة عوامل نفسه . وإن هذه المسارعة بدون تردد ولا تسكؤ لأعظم برهان على أنه كان يتلقف كل ما يعلم تقريبيه من ربه ليسارع الى جنته ورضوانه ، وإن الضغط على النفس حتى تنزل على ما أراده الله وأمر به لأصعب أنواع الجهاد حتى سمي ذلك فى الحديث الشريف جهادا أكبر ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين رجع من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » . وأين مجاهدة الانسان لعدوه يستجمع له كل قواه الظاهرة والباطنة ويراها وجها لوجه من مجاهدته لنفسه التى بين جنبيه تزين له القبيح وتأخذه على غرة وعلى غفلة من أمر دينه ، وما أكثر الغفلات ! وتستعين عليه بداعى الهوى والشهوات ، ويعينها الشيطان بتحسين أو تهوين السيئات ، والتنفير من الحسنات ، إلا من عصم الله ۱۹

وإنك لتجد في هذه الآية الكريمة بابا آخر من أبواب اليمين
والخير يساق لنا بمناسبة هذه القصة فيحقق معنى من قوله تعالى :
« لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » : ذلك هو تعويد النفوس
احتمال الأذى ، وتحذيرها من أن تجعل منه قاطعاً وصارفاً عن فعل
الخير ، فإنه من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام
للعبيد ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة
شراً يره ، ولن يكون الخير خالصاً تمام الخلوص لوجه الله حتى تبتعد
عنه حظوظ النفس ، وأى خير هو أبعد عن حظ النفس وهوها من
أن تحسن إلى من أساء اليها ؟ ولذلك قيل : « ليس الاحسان أن تحسن
إلى من أحسن إليك ، وإنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك » .
ذلك أن الاحسان للمحسن وإن كان جميلاً وفيه معنى الشكر ، إلا أن
فيه شائبة المعاملة والمقايضة ، وليس هذا في الاحسان إلى من لم يحسن
إليك ، بله المسيء ، فقد جاءت هذه القصة مصورة أشد إساءة تلحق
الانسان من الانسان ، ومع ذلك أمر المساء اليه بمعاودة إحسانه إلى
من أساءه ، فامتثل طيب النفس قرير العين بما يوصله إلى رضائه .
ومما يدل على طيب نفس أبي بكر رضي الله عنه وقررة عينه تعهده
أن لا يقطع ذلك عنه أبداً ، وما روى من مضاعفته له ما كان
يعطيه إياه .

من هذا السياق تفهم أن معنى لا يأتل : لا يحلف ، من الألية بمعنى

الحلف ، يقال آلى على كذا حلف عليه . ويؤيده قراءة : ولا يتأل ، على وزن يتفعل ، وهو المناسب لسبب النزول على ما سمعت . وقوله : أن يؤتوا ، أى على ألا يؤتوا ، وحذف لا النافية في القسم مستفيض في لغة العرب ، قال تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » أى لا تفتأ ، وقال الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لا يك وأوصالى

أى لأبرح . وقال بعضهم : إنه بمعنى يقصر ، من قوطهم : لا يالو يفعل كذا أى لا يقصر . ودعاهم الى هذا ما زعموه من أن افتعل يأتى من فعل لا من أفعال ، كقوطهم : رضيت وارتضيت وكسيت واكتسيت ، ولا يقال أعطيت واعتطيت ولا أكرمت واكرمت . وقوطهم : التزمت بكذا هى فى مقابلة أزمه لا بمعناها ، يقال أزمه فالتزمه . وأيضاً فإن الحلف كان على ألا يؤتوا ، لا على أن يؤتوا . وقد عرفت جواب هذا الأخير وهو شيوخ حذف لام القسم ، وأما جواب الأول فيكنى فيه النقل عن جمهور المفسرين فى الصدر الأول كابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، بل جميعهم على أنه بمعنى يحلف ، وكل واحد منهم حجة فى اللغة ، فكيف بمجموعهم !

والفضل : الزيادة . وإنما تكون فى زيادة الخير والمحمدة ، ولذا يفسر بأنه ضد النقص ، والمراد الزيادة فى الدين حتى لا يتكرر مع قوله : « والسعة » فإنها بمعنى الزيادة فى المال ، والمراد هنا نهى أهل الفضل وسعة الرزق مطلقاً عن الحلف على منع الخير عن اتصف بتلك الصفات

الآتية . ودخول أبي بكر رضى الله عنه في ذلك مقطوع به على ما قاله الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن دخول الواقعة التي هي سبب النزول مقطوع به . وكذلك قوله : « أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله » يراد به كل من اتصف بصفة من هذه ، وهي واردة في مسطح ، وقيل في جماعة منهم مسطح . وعلى كل حال فدخول مسطح في هذا دخول أولى . وإنما ذكر هذه الصفات بطريق العطف مع أن الموصوف بها في سبب النزول واحد ، وهو مسطح ، للدلالة على أن كل صفة منها كافية في استيجاب العطف عليه وموالاته إحسانه ، فكأنه يقال : لو لم يكن له الإقربته أو إلا مسكنته أو إلا أنه مهاجر في سبيل الله ، لكان بذلك جديرا أن يعفى عنه ويداوم على الإحسان عليه ، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات كلها فيه ؟ وهذا المعنى لا يستفاد إذا أتى بالصفات مترادفة بدون عاطف ، فإنها قد يفهم منها أن المنهى عن قطع صلته هو من اجتمعت فيه تلك الصفات .

هذا وإن في وصف أبي بكر رضى الله عنه (بأولو الفضل والسعة) باطلاق ، دليلا على علو قدره في الدين والخير ، فإن في الفضل معنى الزيادة في الخير ، وفي السعة فوق سعة المال معنى سعة الصدر والقلب وأنه بحيث لا ينبغي أن يضيق صدره لأمر فرط من أحد في حقه . وقد حاول بعضهم أن يأخذ من الآية أنه رضى الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتكب تمحلات متعسفة لا يسهل

أخذها من الآية . وفضله رضى الله عنه ثابت وأدلته كثيرة ، ولكن هذا شيء وإعطاء الآية ما يريدون شيء آخر .

والقربى : القرابة . والمسكين : من لا شيء له أوله ما لا يكفيه ، كأن الفقر قد أسكنه وأبطل حركته . وللفقهاء فى الفرق بينه وبين الفقير وأيهما أسوأ حالا كلام كثير ، أحسنه أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، أى إذا اجتمعا فى اللفظ افترقا فى المعنى وكان لكل منهما معنى يخصه ، وإذا افترقا فى اللفظ بأن عبر بواحد منهما كان معناه شاملا للفرقتين . والمهاجرون فى سبيل الله : هم من هجروا ديارهم وأهليهم وأترابهم وأصحابهم فرارا بدينهم ، وكأن الهجر حصل من الجانبين : جانبهم وجانب أهليهم . والمراد بهم من هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، ومنهم مسطح ، بل كان مع هجرته من أهل بدر . وما ورد فى شأن أهل بدر من مثل « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فانى قد غفرت لكم » ليس معناه عصمتهم ولا خروجهم عن دائرة التكليف ، وإنما معناه أن الله علم أنهم يموتون على إيمان وتوبة ، فلا مانع أن يعلم منهم بالذنب من يعلم ويتوب فيتوب الله عليه .

وقوله تعالى : « وليعفوا وليصغحوا » : اللام فيه لام الأمر ، وهى غالبا لأمر الغائب . والعفو : محو الذنب ، من قولهم عفت الريح رسم الديار وآثارها أى محتها . والصغح : الاعراض ، فكأنهم أمروا أن يححو أثر الذنب فلا يؤاخذوا عليه ، وأن يعرضوا عنه بتاتا فلا

يذكره ولا يلتفتوا إليه . وما أشبه هذا الأمر بأمره تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : «فاعف عنهم واصفح » ! وإنما لمزية جليلة القدر لأبي بكر ، وفيها من عظيم الترغيب في القدوة الحسنة بالتجاوز عن الشيء والصفح عنه ما فيها ، فكيف وقد أردفت بقوله تعالى : «ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ؟ ومن ذا الذي لا يشعر كل وقت بأنه في أشد الحاجة إلى أن يغفر الله له ؟ ومن ذا الذي لا تذوب نفسه حسرات كلما ذكر سيئاته في حق مولاه المنعم عليه ، المتفضل بالاحسان إليه ، الممدله بكل ما لديه من قوة ، فيها يعصيه ويجاهره بالمعصية ، وهو مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية ؟ وكان من حقه أن يخاف بطشه في كل حين ، أو أن يستحي من عصيانه بنعمته التي أنعم بها عليه ، أو أن يخجل من جلاله وعظامته فلا يفرط منه ما ينكره عليه ، وما من امرئ إلا وهو واقع في شيء من هذا ، إلا من عصم الله :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

فباب مغفرة الله لك هو أن تغفر لمن أذنب إليك ، بدلالة هذه الآية الكريمة « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

ومن جمال الأسلوب في الآية الكريمة أن أتى الأمر والنهي في صدرها بطريق الغيبة معلقا بالصفات التي من حقها أن تدعو إلى امتثال الأمر واتباع الإرشاد : من كونهم أولى فضل وسعة ، وكون من طلب منهم العطف عليهم أولى قرابة ومسكنة وهجرة . ثم لما جرى إلى

باب الترغيب والتشويق واجتناء الثمار ، عدل الى طريق الخطاب
تقريبا لمنزلتهم ، وليوليهم عظيم الشرف بالزلفى حيث يقول لهم مخاطبا:
«ألا تحبون أن يغفر الله لكم» . وإن فى هذا من التشويق ما يصعد
بالنفوس الصافية الى عليين فيكاد يطير بها فرحا وتلهفا على إحراز هذه
المنزلة ، وتحليقا فى سماء العز فتنسى كل شىء فى سبيل الحصول على
مقام الخطاب الأسمى ، فلا بدع أن كان من أبى بكر رضى الله عنه
ما كان من مضاعفة الانعام والاحسان . وما أحسن ختامها بقوله : «والله
غفور رحيم» ! ذلك الختام الذى يشوق أعظم تشويق الى التخلق
بأخلاق الله ، والافتداء بصفاته التى رضىها لنفسه ، ودعانا الى التمسك
بها : من الغفران ، والرحمة ، والاحسان .

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى
الدينا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم
وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعامون
أن الله هو الحق المبين» :

تضمنت الآية السابقة (ولا يأتل أولو الفضل) الخ تعظيفا
على قوم ممن وقع فى هذه المهلكة ، فغير بعيد على الأذهان أن يتطرق
اليها أن فى هذا التعظيف تهوينا ما لشأن تلك الجريمة ، فعاد اليها مفظعا
أمرها ، مشنعا على من وقع فيها ، شارحا عظام خطرها وشديد وعيدها ،
وأى وعيد أشد من اللعنة فى الدنيا والآخرة واستحقاق العذاب
العظيم ، وتقرر ذنبه بشهادة جوارحه عاينه بما يحزبه ويقطع حجته

ويسد عليه باب التنصل من ذنبه ، وحسبك باردافه بأن سيوفى جزاءه الحق ، ويعلم — إن لم يكن قد علم — أن الله هو الحق ؛ وأن وعيده هو الحق ، وأن قوله هو الحق المبين ، فقال جل شأنه : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقد سبق لك القول بأن مثلهم في الجزاء من يرمون المحصنين الغافلين المؤمنين ، وأن تخصيصهن بالذكر لأن أكثر ما يوجه مثل هذا القول اليهن ، لأنهن عرضة لهذه الظنة غالبا ، ولأن تأثرهن بهذا الرمي أشد ، ورميهن به أفحش ، ولأن النساء غالبا لا يكاد يتعلق بهن أمر من أمور الحياة العامة كالظلم والعدوان أو ما يماثلها ، وإنما إذا جرى ذكرهن اتجهت الأذهان في شأنهن الى أمر العرض .

وإن التشديد في الوعيد في هذه الآية بذكر اللعن في الدنيا والآخرة مع العذاب العظيم ، ثم ذكر شهادة الجوارح الخ بالقياس الى ما ذكر في الآية السابقة « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » ليناسب كل من الوعيدين ما ذكر في جانبه آتم مناسبة ، فان محبة الشيء وإن كانت تستدعي غالبا الوقوع فيه ، مغايرة لابقائه بالفعل ، خصوصا بصيغة الرمي والقذف . وما أحسن التعبير بصيغة الرمي ! فان الناطق بهذه الكلمة يقذفها لا يدري من أصابت في طريقها : من محصنة وأبيها وأخيها ، وزوجها وبنيتها ، وعشيرتها التي تؤويها ، كل أولئك قد نالهم مانالهم من قذيفته الطائشة ، وهو ناعم البال لا يدري من آلام أولئك شيئاً

ثم التعبير بهذه الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام ، فالمحصنات :
 أى المصونات التى بولغ فى صونها حتى كأنها جعل عليها حصن منيع .
 والغافلات : أى المنصرفات الذهن عن التفكير فى هذه المفاحش ،
 فلا تتجه إليها نفس منهن بتفكير ؛ فضلا عن التوجه إليها برغبة ؛
 بله الوقوع فيها والمقارفة لها . والمؤمنات : معناه أولئك اللاتى آمن
 بما أنزل على الرسول من أحكام وأذعن لها بالطاعة ، والتزمن حدود
 الايمان ، فهن أبعد إنسان عن أن ينال منهن هذا المنال الفاحش . وبهذا
 يتبين لك سر تقديم (المحصنات الغافلات) على لفظ (المؤمنات) مع
 أن الايمان أصل الفضائل بجماتها ، ذلك أن استنكار الرى مع صفى
 التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الايمان .
 وكون وصف الايمان أصلا على الاطلاق مستحقا للتقديم بالذات لا يمنع
 أن يكون لغيره تقدم خاص فى موضع من المواضع .

واللعن : الطرد من رحمة الله . ولعنهم فى الدنيا إما على لسان
 الملائكة والمؤمنين ، وإما على معنى طردهم عن الرحمة باستحقاق الحد
 والتعذيب ، وألا تأخذهم بهم رأفة فى دين الله . وأما لعن الآخرة فهو
 استحقاق العذاب العظيم ، فإن صاحبه أبعد ما يكون من رحمة الله ، وعظم
 العذاب بقدر عظم الجرائم . واللعن فى الدنيا والآخرة جزاء ما أقض من
 مضاجع ، ونال من كرامات ، وثلم من شرف ، وآذى من أربياء « إن
 الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

وقوله جل شأنه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

لفظ يوم متعلق بما تعلق به قوله : « ولهم عذاب عظيم » ، أى يستحقون ذلك العذاب يوم تشهد عليهم الخ . وكأن في هذا إشارة الى أنهم يحاولون الإنكار والتنصل مما اقترفوا حين يرون ما يحل بهم من عذاب عظيم ، فيختم الله على أفواههم أن تنطق باختيارهم ، ثم ينطق ألسنتهم وجوارحهم بما اقترفوا ، قطعاً لحجتهم وتسجيلاً للخزي عليهم نظير ما أخزوا الأبرياء . وإنطاق الألسنة والجوارح بالشهادة لا ينافي اختتم على الأفواه أن تتكلم بإرادة أصحابها ، فقد عقلت الألسنة أن تتخذ آلة للتحدث عن إرادة أصحابها ، ولكن أنطقها الله الذى أنطق كل شيء . فهذه الشهادة يصح أن تكون باللفظ كما هو ظاهر النص ، ولا داعى لتأويله بصرف الشهادة إلى الشهادة بلسان حالها كما يقال : نمت عليك عينك ، وكما في قوله تعالى : « تعرفهم بسيماهم » . وقد دعا الى هذا التأويل الوقوف عند المؤلف من أن المتكلم عادة إنما هو الشخص التام الخلقة والتكوين المستقل بهما ، وهو غير متعين ، فليس الوقوف عند المؤلف بمقتضى لصرف النصوص عن ظاهرها . وأيا كان فالمستيقن هو أن الجوارح تشهد ، والظاهر هو أن الشهادة بالقول ، إبقاء للنص على ظاهره ، وإن كان البحث عن كيفية الأمور الغيبية بأزيد ما ورد لا يخلو عن مجازفة ، والله أعلم . وقوله : « بما كانوا يعملون » فيه تنبيه على أن شهادة الجوارح على أصحابها لا تقتصر على القول المذكور ، بل ستعم ما كان

منهم من جرأتم الأعمال كلها ، فتشهد كل جارحة على صاحبها بما صدر منها وما صدر من غيرها أيضا . والتعبير «بكانوا يعملون» فيه إشارة إلى أن تلك الأعمال كانت ديدنا لهم وعادة ، ففرق بين عمل كذا وكان يعمل كذا . « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعامون أن الله هو الحق المبين » : أجل : حينذاك تخنع نفوسهم ، ويتبين ما حاولوا المراء فيه ، وتحق عليهم الكلمة ، وتنقطع عنهم الحجة . حينئذ يتبين الحق من الباطل ، وينصب الجزء الحق على الذنب الذي انكشف وانجلي ولم يبق فيه مراء . يومئذ يوفيهم الله القادر القاهر ، من يده ملكوت كل شيء وهو محيط بكل شيء ، يوفيهم دينهم وجزاء أعمالهم ، والدين يستعمل بمعنى الجزاء كقولهم : كما تدين تدان . والحق : العادل الذي لا يزيد على جريرتهم ويقتنعون بحقيته وعدالته ، ويعامون أن الله هو الحق فيما أرسل على السنة رسله من أمر ونهى ووعد ووعيد ، فقديين لهم في الدنيا ، وأقام لهم البيّنات جلية ظاهرة على يدرسه ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولكنهم كذبوا عناداً واستكباراً ، أو انصرفوا غفلة فتدهوروا في الجرائم استهتارا ، أو جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فهام أولاء اليوم قد تبين لهم الحق جهارا ، وغشيهم من الهول مالا يستطيعون منه فرارا ، وعاموا أن دينهم الحق ، وأن جزاءهم هو العدل ، وأن الله هو الحق المبين ، المحق فيما حكم ، المبين لما شرع ، العادل فيما رتب من جزاء فياء : قهم الندم حيث لا ينفع الندم . وتخصيص عامهم بهذا اليوم لأنه

يصير علما ضروريا لامرية فيه ولا تردد ، ولا يتوقف على استدلال ،

فلا ينافي نسبة ذلك لعصاة المؤمنين

وبعد فقد اختلف المفسرون في المراد من المحصنات الغافلات

في هذه الآية : أهو كل محصنة غافلة مؤمنة ، وإن كان سبب النزول قصة

عائشة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أم هو خاص

بعائشة رضي الله عنها وحدها ، أو مع باقي أمهات المؤمنين رضي الله

عنهن نظراً الى شدة الوعيد باللعن في الدنيا والآخرة ، وعظم العذاب

وشهادة الجوارح ، وترك ذكر التوبة ؛ وذكر بعضهم أن الآية في كفار

قريش ، إذ كانوا يرمون المؤمنات المهاجرات بأنهن هاجرن للفجور .

والذي يظهر رجحان الوجه الأول ، وأن المراد كل من اتصف

بتلك الصفات ، أي كل محصنة غافلة مؤمنة ، وعظم العقوبة على قدر

عظم الجريمة ، فاستحقاق اللعنة وعظم العذاب وشهادة الجوارح ليست

مقصورة على الكافرين ، وإنما المختص بهم الخلود في العذاب ، وهو لم

يذكر في الآية . وقد نيطت اللعنة في آية اللعان السابقة بالكذب

وليس كفرا ، وإن كان من أشد الجرائم ، وبخاصة الكذب في رمي

المحصنة بالفاحشة . وعدم ذكر التوبة هنا لا يفيد عدم قبول توبة من

تاب ، فباب التوبة مفتوح ، حتى التوبة من الكفر بالايان ، وذلك

معلوم من عموم النصوص الداعية للتوبة ، وليس بلازم تكرارها مع

كل وعيد .

ومن طريق النكت ما ذكره بعضهم أن القاذف مطالب في

الدنيا لتصديق دعواه بأربعة شهداء ، فالقاذف يوم القيامة يقوم في وجهه لتكذيبه خمسة شهود من جوارحه : لسانه ويده ورجلاه ، تنكيلاه وفضيحة لشأنه ، جزاء وفاقا على محاولته فضيحة المحصنات الغافلات المؤمنات .

« الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم » :

هذا مبني على سنة الله في خلقه ، وحكمته الغالبة فيما بين الناس ؛ وأكبر مظاهرها ذوو القدر العظيم والخطر الكبير ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومعناه أن الخبيثات من النساء لا يلقن إلا بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال لا يقعون إلا على الخبيثات من النساء ، فكل عن مثيله يبحث ، وإليه يرد ، والطيبات من النساء إنما يهدين للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال يوفقون للطيبات من النساء .

هذه سنة الله الغالبة في خلقه التي تظهر فيها حكمته البالغة ، فإذا تخلفت بحسب بادىء الرأى في نظرنا لحكمة خفيت علينا في بعض الحالات ، فهل يمكن أن تتخلف في أطيب الخلق على الإطلاق ؟ بل هل يقبل العقل أن يصاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الدعاة الى الله ، المنتصبون لجمع القلوب على محبة الله ، هل يمكن أن يصاب أحد منهم بمثل هذا الوباء المنفر للطباع من الاتصال بمن أصيب

به ؟ فكيف بصفوتهم وخيرهم وأفضل الخلق على الاطلاق ؟ وعلى هذا يكون المراد بالخبيثات والطيبات النساء ، وبالخبِيثين والطيبين الرجال ، ويكون « أولئك » إشارة الى الطيبين والطيبات ، والاخبار عنه بصيغة المذكور في قوله « مبرعون » للتغليب ، وتكون الآية كختم القصة بحكم عام مقرر في السنة الالهية والحكمة المرعية ، وهي أن يختار الله لكل فئة ما يناسبها ويليق بها ، فلا يمكن أن يختار أخبث الخبيثات لأطيب الطيبين . وهذا قريب مما سبق في آية « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة » على أن ينكحها إلا زانية أو مشركة ، ويكون ذكر هذه الآية كتقرير النتيجة للآيات السابقة .

وذكر بعضهم أن الخبيثات والطيبات ، أى من الكلام ، للخبِيثين والطيبين ، أى من الناس رجالا ونساء ، والمعنى أن خبيث القول إنما يوجه للخبِيث من الناس ، والخبيث من الناس هو المستحق للخبِيث من الكلام ، وألذى يصدر عنه ذلك ، وكذلك الحال في الطيبات والطيبين ، والاشارة في أولئك للطيبين والطيبات تغليبا كما سبق ، وضمير يقولون للخبِيثين أو الأفاكين . والذى يظهر هو الوجه الأول ، وكلاهما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما

ووعدهم الله لهم بالمغفرة والرزق الكريم أى الجنة ، فيه أعظم بشارة للصِدِّيقَة رضى الله عنها ، وفيه شهادة لها بأنها من أهل الجنة .

فالأية وإن كانت عامة ولكن دخول صورة السبب في العموم دخول أولى مقطوع به على ما ذكره علماء الأصول .

هذا وإن من تأمل فيما تضمنته هذه الآي الحكيمية من حكم مفصلة ، وتعليمات قيمة ، وإرشادات بالغة ، وتربية للنفس ، وتهذيب للأخلاق ، وشفاء لأمراض القلوب ، وتنبيه على كيفية العلاج الشافي ، وتوجيه للنظر الى مغامز الشيطان ومكامن الداء ومن أين أتى ليجتنب ، كل ذلك مع التنوع في التربية وحياطة الأخلاق بالسياج المتين ، تقول : من تأمل في ذلك علم كيف كانت الشريعة المطهرة تتعهد النفوس من جميع نواحيها بالتغذية والتربية والعلاج وتقويم الحياة من جميع مناحيها ، وتجلى له أن بث الارشاد ومختلف الأحكام بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض هو الغاية القصوى في التربية والتعليم الحكيمين ، وأن ما يتوهم بعض قاصري النظر من جمال ضم كل نوع الى قرينه بباب وحده هو خرق في الرأي ، وقصر في النظر ، واغترار بالجهل ، فلا يوسع عقل عاقل أن يعمد امرؤ في تنشأته ناشئاً قد عهد اليه به أن يجعل له يوماً للغذاء بلا شراب ، ويوما للشراب بلاغذاء ، ويوما يكسوه ولا يفتدوه ، ويوما يعالج داءه ويهمل غذاءه ، لو أنه فعل ذلك لكان من الخلق في المكان المكين ، وإنما الحكيم العليم من يتعهد من في عهده بجميع حاجته ، فيمزج هذا بذاك ، ويضيف إليه من التعليم والتقويم ما يكفل له الكمال في كل ناحية . فسبحان الحكيم العليم ، ذي الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة !

نسأله جل شأنه أن يهدينا الى سواء السبيل ! وهو حسبنا ونعم الوكيل

آداب دخول
منازل الغير

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا
وتسألوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا
فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا
هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً
غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون):

وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة المباركة التي وصفها جل
شأنه في فاتحتها بقوله جل من قائل : «سورة أنزلناها وفرضناها» وهذا
الحكم له مزيد اتصال بما قبله ، فإن من متمات الاحتياط لصيانة الشرف
والعرض الاستفادة من الآيات السابقة تشريع هذا الحكم العظيم ،
المتضمن من آداب المعاشرة ومخالطة الناس بعضهم بعضاً ما فيه صون
كراماتهم وسمعتهم ، وشرفهم ، ودوام الارتباط بينهم ، على أنقى الوجوه
وأبعدها عن الريبة والتألم والتأذى .

ومناسبتها للآيات السابقة جلية واضحة ، فقد ذكر في أول السورة
حد الزنا مبيناً ما فيه من الشناعة والفظاعة ، مؤكداً في التشديد على من
وقع في جريمته ، مبعداً له عن أن ينال برأفة ورحمة ، ثم أورد في بيان حد
القاذف المتعدى على شرف الناس وسمعتهم ، وساق تلك القصة التي كانت
فتنة لكثير ، ولكنها تضمنت من التعليم خيراً كثيراً كما سبق
تفصيله وتوضيحه ، وجاء في هذه الآيات بتشريع الأحكام التي تساعد

على سد هذا الباب وودفع مافيه من المفسد والشرور ، فقال جل شأنه :
« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأنسوا . »
وذكروا في سبب نزولها أن امرأة شككت الى النبي صلى الله عليه
وسلم أنها تكون في بيتها على الحالة التي لا تحب أن يراها فيها أحد :
لا والد ولا ولد ، فيأتيها آت فيدخل عليها ، فكيف تصنع ؟ فنزلت
« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا » الخ . ومن ذا الذي يخلص من هذه
الحالة ؟ فما من أحد رجل أو امرأة إلا وهو عرضة لأن يكون على
حالة لا يحب أن يراه فيها أحد : لا والد ولا ولد ، فيسوءه أن يفاجئه
مفاجيء فيطلع على ما لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فاذا فوجيء على هذه
الحالة تألم وكره القادم ولو كان قدومه برأيه ، فليس أكرم على المرء
من صون نفسه وشرفه ، وعدم تعريضهما للافتضاح وانكشاف
الستر . وقوق هذا تجد هذا الأدب متضمنا لقطع السنة السوء ومظنة
الريبة ، فاذا دخل امرؤ بيتا بلا استئذان ، وكان ذلك مباحاً ، فقد يراه
حال دخوله أو حال خروجه من يتهمه ويتهم أهل البيت المدخول عليهم
بما لم يخطر لهم ببال ، ولقد يصادفه حال خروجه رب الدار وليس فيها
إلا امرأته مثلاً - فتذهب به الظنون كل مذهب . ويجد الشيطان
له في نفسه مرتعا خصيبا ، ربما جر الى خراب البيت وإلحاق أطفالهما
بالإيتام ، وتتسع المقالة لضعفاء الايمان ، فيخوضون في الأعراض بما
ليس لهم به علم . فتشريع هذا الحكم من أعظم مظاهر الرحمة في
تشريع الخنيفية السمحة .

والبيت : المسكن لأن المرء يأوى الى مسكنه ليلاعادة ، فهو في الأصل من بات بيت ، مقابل ظل يظل ، فالأولى الليل ، والثانية للنهار . والاضافة في بيوتكم للاختصاص بالسكنى أو الملك ، أى ملك المنفعة لا ملك العين وحده ، حتى إن من أجر بيتا لغيره أو أعاره له ، فليس لمالك البيت الدخول حتى يستأنس ويسلم .

وقوله تعالى : « حتى تستأنسوا » معناه حتى تستأذنوا ، فهو إما من الأنس ضد الوحشة ، لأن من دخل بيتا غير بيته تلازمه الوحشة حتى يؤذن له فتبدل وحشته أنسا وطمانينة ، فيكون المعنى : حتى تطلبوا الأنس بالاذن ، أى وتصلوا إليه ، بدليل « فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » الخ ، أو حتى تأنسوا وتطمئنوا بالاذن لكم بالدخول ، وإمامن قولهم : أنس بالشيء وأنسه أى علمه ، كقوله تعالى : « أنس من جانب الطور نارا » أى رآها وأبصرها ، فالعنى حتى تستعلموا : أفيها أحد ، أو حتى تعلموا أن فيها أحداً ؟ وهو كناية عن تنبيه أصحاب الدار بالقدوم عليهم ليكون لهم الخيار في الاذن والرد ، أو حتى تستعلموا الحال التى أمامكم وينكشف لكم الأمر ، أأذتم بالدخول أم منعتم منه ؟ والمعانى متقاربة فى الغاية وإن اختلفت فى طريق الدلالة .

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة ، كقرع الباب ، أو النداء لمن فى البيت ، أو صريح الاستئذان ، أو التنحنح ، أو التسميح ، والتحميد وما يجرى مجرى ذلك ؛ فالمقصود ظاهر ، والوسائل معروفة . وكما

لا يجوز الدخول قبل الاستئذان لا يجوز النظر الى داخل البيت قبل الاستئذان ، فقد ورد « إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » وليس معنى الحديث أن من لا يبصر كالأعمى له الدخول بلا استئذان ، فان في معنى النظر العلم مطلقا ، وقد يطلع الأعمى بسمعه على ما لا يجب أهل البيت أن يطلع عليه ، خصوصا مع ما هو معروف عن كفيفي البصر أنهم يعتمدون على حاسة السمع في تعرف أشياء بطريق الحدس قد لا تخطر للمبصرين على بال . ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء ، مع المحارم وغير المحارم ، فما من امرئ إلا وله حالات يكره أن يطلع غيره عليها ، رجلا كان الغير أو امرأة ، محرما أو غير محرم . وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمي ؟ قال : نعم . قال : ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا ، قال : فاستأذن عليها .

وقوله تعالى : « وتساموا على أهلها » ظاهر في أن السلام بعد الاستئذان ، وهو الموافق للعادة من أن القادم قد لا يعلم أفي الدار أحد ؟ فاذا استأذن وأذن له ، سلم ودخل . ولا يعارض هذا ما روى الترمذي عن جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال : « السلام قبل الكلام » ، فقد يحمل الكلام في هذا على ما يجري بين الناس وقد تقابلوا وتلاقوا بعد الأذن أو في الطريق ونحوه . نعم روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لا يؤذن له حتى يسلم ، وكذلك روى عن زيد بن أسلم قال : أرسلني أبي الى ابن عمر فقلت : أألج ؟

فقال : ادخل ، ثم قال : مرحبا بابن أخي : لا تقل : أ أليج ، ولكن :
السلام عليكم ، فاذا قيل : وعليك ، فقل : أ أدخل ، فاذا قيل : ادخل
فادخل . فظاهر هذا وما قبله يدل على أن السلام قبل الاستئذان .
وقد رأى بعضهم تفصيلا حسنا في ذلك ، وهو أنه إن وقعت عينه
على من في البيت بأن كانوا ظاهرين ، قدم السلام ، وإلا قدم الاستئذان .
وقوله تعالى : « ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » فيه إرشاد إلى ما حوى
هذا الحكم من عظيم المصلحة التي ترجح على ما يتوهمونه من أن في
الاستئذان وانتظار الاذن مذلة ومهانة للمستأذن المنتظر ، وقد يكون
في غنى عن هذه الزيارة ، أو قد تكون زيارته لصالح المزور أو نحو ذلك ،
فماذا يتحمل مذلة الاستئذان والانتظار ، وهكذا من مظاهر
النعرة التي كانت تملك نفوسهم ، فأفادنا جل شأنه : أن تشريع الحكم
للعوم على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها ، فكما
منعتم من الدخول على غيركم بلا إذن منع غيركم من الدخول عليكم
كذلك ، وما منكم من أحد إلا وهو عرضة لمثل هذا ، وفيه استبقاء للمودة
وعدم التأذى من زيارتكم بخلاف ما لو كانت هجوما ، فقد يكون قصدكم
منها البر فتنقلب إلى شر . وقوله : « لعلكم تذكرون » جاءت بعد
قوله : ذلكم خير لكم للتعليل الذي فيه دعوتهم للتذكر . و « لعل »
الآتية للتعليل في القرآن الكريم تخالف لام التعليل من جهة أن التعليل
فيها منوط باختيار المخاطبين ، على معنى أنه هيء الأمر لمن يريد أن يتذكر
أو يتفكر أو يتق ، مثلا . وأما اللام فهي للتعليل المحتوم ، أي ليس الأمر

فيه منوطا باختيار الشخص . فكن على ذكر من هذا . والمعنى أنه بسط لكم الحكم وأرشدكم إلى خير يته لتتذكروا وتعضوا وتعلموا افتحروا على امتثاله ، فباب التذکر مفتوح أمامكم لمن شاء .

هذا ولا يبعد أن يلتحق ببيوت السكن حجر القأمين بالأعمال العامة ، فانهوا إن لم تكن مسكنا ولا محلا لانكشاف عورات ، ولكن قد يكون المنوط به عمل من الأعمال العامة بحاجة إلى خلوة يستجمع فيها ذهنه لينجز ما عهد إليه به ، فلو أيسح الدخول عليه بغير إذنه تعطل عن عمل واجب عليه إنجازه ، وقد يكون مع ذى مصلحة يحب أن يفرغ لها ليطمأ على أم وجه ، أو يكون مع صاحب حاجة يكره أن يطلع عليها غيره ، فكل هذا وأشباهه مدعاة إلى احترام من في مركز العمل أن يدخل عليه بغير إذن ، روى أن أباسفيان استأذن على عثمان رضى الله عنهما في زمن خلافته فلم يأذن له مع ما بينهما من صلة النسب ، فقل له : أنت أبوسفيان رأس العرب في الجاهلية والاسلام ويحببك عثمان بن عفان ؟ فقال : لاعدمت من قومي من أحجب ببابه ! فانظر إلى هذا الجواب السديد الذى رد كيد ذلك المحرش عليه ، ودفع الحية والنقرة السكاذبة عن نفسه ، وبين له أن مافيه من عزة عائد على فهو من قومي ، وهذا الخطاب ليلاقى اعتراض المعارض ، فقد جاءه من ناحية العزة والحية ، فأجابه من ناحيتها أيضا ، وهو أنه من قومه فيعتر به ، وإلا فقد كان حجبه لمصلحة العمل .

قال تعالى : « فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » :

هذا تنميم للحكم الأول من جهة أنه في البيوت التي فيها أصحابها وهذا في البيوت التي ليس فيها أصحابها ، وقوله : « فان لم تجدوا فيها أحداً » الخ غير أن يقال : فان لم يكن فيها أحد ؛ فان « فان لم يجد أحداً » معناه لم يعلم أن فيها أحداً وإن كان فيها أحد ولم يجب أن يظهر نفسه . وقوله : « فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » وجهه أنه قد يكون في البيت الذي ليس فيه أحد أشياء لا يجب أصحابها أن يطعم أحد عاينها ، فليس المنع من أجل العورات الشخصية فحسب ، بل مثلها الأمتعة والممتلكات والمرافق . يعرف ذلك كل من رجع الى شئونه الخاصة وكان حريصاً على كرامته . وقوله : حتى يؤذن لكم ، أى ممن يملك الاذن بالدخول في هذا البيت ويدرى مايقول ، فلا يعول على إذن صبي إلا إذا علم أنه مأذون من قبل أهله في البيت .

وقوله تعالى : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم » بيان لأن هذا الاستئذان حقيق لا صورى ، فلمستأذن عليه أن يأذن وأن يرفض ، وعلى المستأذن أن يمتثل لكاتبتي الحالتي ، فلا تأخذ العزة بالآثم ، فيلج في الاستئذان ، أو يلج بلا إذن ، أو يقف على الباب ، فان في هذا مضية لمصلحة الحكم وقد شرع لمنفعة الجميع ، ورب متأذ من هذا الحكم يوماً قد احتاج اليه في اليوم التالي . وقوله : « هو أذكى لكم » إما معناه أظهر لنفوسكم من دنس الدناءة والرذالة والثقل ، أو أرفع لدينكم وأكمل لآدابكم ، على أن أذكى من زكوا يزكو بمعنى ظهر أو بمعنى نما .

و بعد : فالحكم المذكور في الآيتين مخصوص شرعا بما اذا لم يكن في البيت منكر تجب إزالته ، أو حادث خطير تجب المبادرة بالاتخاذ منه ، كשבوب حريق ، أو هجوم لصوص ، أو شروع في قتل ، أو إيذاء بلا وجه حق أو أمثال ذلك ، فله حق الدخول لازالة هذه الحالات .

«والله بما تعملون عليم» فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فيجازي كل امرئ على حسب ما عمل وقصد ، فقد يدخل متظاهرا بنية إطفاء حريق مثلا ، وهو ينوي أن ينهب ما اتصل اليه يدها ، أو أن ينظر الى ما حرم الله ، فما أجل ختم هذه الآية بقوله : والله بما تعملون عليم ! ومن نظر في هذه الآية الكريمة علم أن هذا المبدأ الذي يترجم كثير بأنه من اثار المدنية الحديثة وهو احترام المنازل والبيوت قد دعا اليه القرآن الكريم على أبلغ وجه . فالله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

قال تعالى : «ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» :

هذا في البيوت العامة المعدة لمصالح الجمهور كالمخازن والحمامات ، ومحال البيع والشراء ، فقد روى في سبب نزول الآية أن أبا بكر رضی الله عنه لما نزلت الآية السابقة قال : يارسول الله فكيف بتجار قريش الذي يختلفون بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسامون وليس فيها سكان ؟ فنزل قوله تعالى : «ليس عليكم جناح» الآية . وقوله : فيها متاع لكم ، إمصافة لبيوت ، وإمامستانف كالتعليل لنفي الجناح ، أي أن البيوت العامة

لا حرج عليكم في دخولها فان فيها متاعا لكم ، أى أعدت لمنافعكم
 واستمتاعكم ، إما بقضاء ما تبتغون منها من شراء أمتعة أو نحوها ، أو
 بالإيواء اليها بأنفسكم ودوابكم ومتاجركم ، أو قضاء بعض مصالحكم
 كالاستحمام أو الحلق ، أو خياطة الثياب أو مماثل ذلك .

وقوله تعالى : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » نسقه كنسق
 قوله فيما تقدم : والله بما تعملون عليم . والداعية اليه هنا قوية ؛ فان إباحة
 الدخول المبنية على غرض قد يتخذها بعض الناس ذريعة لأغراض خفية
 سيئة ، بخلاف قوله : والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، ليدكرهم حين أباح
 ما أباح لهم أنه عليم بما يجري في نفوسهم ، فهو يعلم خائنة الأعين
 وما تخفى الصدور ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون . نسأله تعالى أن
 يوفقنا لعمل الخير ، وقصد الخير إنه سميع مجيب !

قال تعالى . (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم
 ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من
 أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن
 بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو
 آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن
 أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو اتبائهن غير أولى
 الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن
 بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون
 لعلكم تفلحون) :

النهي عن النظر
 إلى الأجانب

وهذا حكم من أحكام صيانة الأضباع ، وحفظ الأنساب ، وحياطة
 أوامر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء ، وإحكام الروابط حتى
 لا تعبت بها يد الفساد .

أجل : فالنظر رسول الشهوة ، وبريد الزنا ، ورائد الفجور ، ورب
 نظرة كانت بذرة لأخبت شجرة ، ورب شهوة ساعة أوردت حز ناطويلاً .
 والله من يقول :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
 والمرء مادام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظره ماضر خاطره لامر حبا بسرور جاء بالضرر
لقد طال الجدال ، وكثر المقال في هذا الموضوع ، حتى أصبح الكلام
فيه كالحديث المعاد ، بل لقد ظفر نصراء السفور وأعداء الحجاب بنتائج
خطيرة في سنوات قليلة ما كانوا يحامون بها . ولا غرو فقد نبهوا يقظا
من الأهواء ، واستناروا متلهفا متشوقا من نفوس متعطشة للشهوات ،
فسرعان ما لبث النداء ، وهبت تتسابق ركضا لأجابة ذلك الداعي
الذي يدعوها الى ما طال اشتياقها اليه ، فها هو إلا أن اخترقت أول حجاب
حتى هوت في أعماق هاوية ، فلما أحست شدة الانحدار أخذت تصيح
مستغيثة ولا مغيث ، وتصرخ متندمة ولات ساعة مندم !

لقد زين أولئك الدعاة أمر السفور بشتى الوسائل ، حتى أخذوا
يتلمسون له أدلة من الدين الحنيف ، وما كان أمر الدين في الحقيقة ليشغل
من بالهم كثيرا أو قليلا ، ولكن ليهوتوا على البسطاء ممن لا يزال
للدين أثر قوى في نفوسهم أمر الانحدار معهم فيما انحدروا فيه ، وهم مهتما
لوتوا في دعايتهم وأكثروا من حججهم فلن تعدوا دواعيهم أمرين :
الأول : تمسك بحب التقليد للأمة الغربية من نفوسهم ، ذلك
الحب الذي شوه في نظرم قديم مجدهم ، وزين لهم السوء في قبائح غيرهم ،
وهذا داعية أصحاب النية الحسنة

والأمر الثاني : إجابة نزعات نفوس نزاعة للشهوات ، فهي تريد
أن تحترق تلك الحجب حتى لا يعوقها عائق عن نيل رغائبها والوصول الى
مشتياتها ، وذلك شأن الغالبية الكبرى من تلك الطائفة المارقة .

وبالشديد الحسرة من تلك الصيحات والولولات التي انبعثت هذا العام من شواطئ رمل الاسكندرية، وبخاصة تلك المنطقة المسماة «ستانلى باى» فلقد انفرط العقد وتردت الأسر في قرار الهاوية، وليت شعري هل لهذه الهاوية من قرار تقف عنده؟ إن أكبر الظن أن لقرار لها، وأنها كبر لانهاية له، فكما انحدر الواقع فيه الى حد تطلبتة حدود بعده هي أعمق منه، ومتى وصل أحد أولئك المستهترين في الشهوات الى درجة، أصبحت أمرا عاديا في نظره، وأصبح طعمها تافها في ذوقه، فتطلعوا الى طعم حريف مستغرب يرضون به شهواتهم المتعطشة دائما، ويحيون بها أذواقا أماتها تتلى الطعوم الحريفة، ولذلك لا يفتردعاة تلك الشئون عن ابتكار أبواب جديدة من الفجور تعجز عنها الأبالسة

سمعنا تلك الصيحات المنبعثة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وضجت الجرائد اليومية أعلى ضجيج، حتى أقضت المضاجع، وأزعجت من بأقصى البلاد، منذرة بالويل والثبور، وانحلال كيان الأمة إذا بقي شئ من هذه المنكرات العلنية، والفضائح التي لا يستحي منها أصحابها .

تظالنا صيف هذا العام الجرائد اليومية، والأنباء الشفوية، بأخبار في تلك الجهات تسيل من الغيورين أحر العبرات، وما يدريك فلعلها تسيل لعاب الأهواء والشهوات من المتطلعين لها من فتیان وفتيات، فيظم الكليل ويعم السيل. اللهم رفقاً بالأمة، اللهم لطفاً بالعباد فانك بعبادك لطيف خبير!

لقد بدأت تلك الطائفة ، الطاغية على محاسن العادات ومكارم الاخلاق ومحاسن الدين ، بدأت حملتها بهنات هيئات ، فحملت على براقع كانت ضعيفة ضئيلة ، فشوهت أمرها ، واتخذت من ضعفها سلاحا لازالتها ، ويينت أن تلك البراقع لا تستر زينا ، ولا توارى شينا ، فتجب إزالتها ، ثم قالت : إن عزلة الجنسين أحدهما عن الآخر مضيعة لكليهما ، مزيل لتمام التساند بينهما المبني على التعارف والتآلف ، مزيح لنصف (١) العالم عن أن ينتفع به مجموع العالم ، وهكذا دواليك من سموم مفسدة بأنسجة من حلوى ، وأخذوا يقارنون بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية ، مجردين الأولى عن كل صفة كمال ، مفرغين على الثانية كل حبل المجد والفخار ، فعموا أو تعاموا عن المهام التي تقوم بها المرأة الشرقية من الأمور التي لا بد منها للحياة الاجتماعية : من تدير منزل ، وترية أطفال ، وعكوف على إصلاح شئون داخلية لا تستغنى الأسرة عن معالجتها والسهر عليها ، ناظرين بعين واحدة الى الأناقة والرشاقة والمناظر الجذابة التي تتحلى بها المرأة الغربية ، معروضة للأنظار ، متفننة في اصطياذ العقول والألباب ، فلم يحسوا أن الكرامة والصيانة والعفاف وحفظ الأنساب من تطرق الشكوك والريب ، أقل نصيب من العناية ، ولا أتفه حظ من الاهتمام . ولقد ساعد على ذلك ما وقر في نفوس البشر قاطبة من تطلع المغلوب لمحاكاة الغالب ، وولع النفوس

: وبخاصة نفوس المترفين ، بالاستغراق في اللذائذ والمشتريات ،
 فبحت أصوات المحذرين والمنذرين ، وتعرضوا للشتم والتبكيك ،
 والرمى بالجمود ، ومعاوكة الاصلاح ، والوقوف في سبيل الترقى ، وهلم
 جرا ، حتى انتهى الأمر بهم أن يقول قائلهم : اللهم قد بلغت ، اللهم
 فاشهد ! واليوم وقد تبينت العاقبة الوخيمة صح أن يقول عنهم الناصح :
 أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغد
 وما كان يروع إذذاك إلا زعم زاعمهم أنه لا حجاب في الاسلام ،
 فكأننا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فلم يفتقروا
 ولم يسمعوا الآيات والنذر ، ولم يبصروا ذلك النور المتلألئ الذى بنه
 الله في سورة ، فلم يقرأ أحد منهم قوله تعالى :

«قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى
 لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
 ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن
 على جيوبهن » الخ .

ولنبداً ببيان الحكم الشرعى في عورة الرجل والمرأة في الصلاة
 وخارجها حسبما استنبطه الأئمة من الكتاب والسنة ، ومراعاة
 المعنى الذى من أجله شرع الله الحكم ليقاس عليه ما شاركه في معناه ،
 ثم نعود الى تفسير الآية الكريمة ببيان ما فيها من دلالة وإرشاد
 ونور يضىء لمن كان له عينان يرى بهما ، أو قلب يفقه به ، والله
 ولى التوفيق ؛

أما عورة الرجل في الصلاة التي يجب سترها متى قدر عليه وتبطل الصلاة بتركه فهي ما بين السرة والركبة ، ومثله في ذلك الأمة .
وأما عورة الحرة فماعدوا وجهها وكفيها . ويرى مالك أن قدمي المرأة في الصلاة ليستا بعورة . وأما خارج الصلاة فاما أن يكون الكشف مدعاة للفتنة مثير للشهوة فهو حرام ، والنظر الى المكشوف محرم كذلك لمن خشى الفتنة أو أثرت بالنظر شهوته ، ما لم تكن النظرة الأولى التي تجيء عفوا بلا قصد فلا حرج فيها ؛ ولا فرق في الحرمة حينئذ بين عورة المرأة مع الرجل أو مع المرأة ، وعورة الرجل مع المرأة أو مع الرجل .

وأما إذا أمنت الفتنة فالعورة أربعة أقسام ، لأنها إما عورة المرأة بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة ، وإما عورة الرجل بالنسبة للمرأة أو بالنسبة للرجل ، فأما عورة المرأة بالنسبة للرجل ، فالمرأة إما أن تكون أجنبية ، أو ذات رحم محرم ، أو محل استمتاع أى زوجة أو أمة ، فالأجنبية عورتها جميع بدنها إلا الوجه والكفين ، حيث أمنت الفتنة كما سبق ، ومع كون الوجه والكفين ليسا بعورة ، فإنه لا يجوز تكرار النظر إليهما إذا لم يتعلق بالنظر غرض صحيح ، كالبياعة ، وتحمل الشهادة ، والخطبة ، فإذا تعلق بالنظر غرض من تلك الأغراض ، جاز النظر بمقدار تحصيل ذلك الغرض ، وإذا لم يكن غرض جازت النظرة الأولى ولم يجز التكرار . ومع كون ماعدا الوجه والكفين عورة ، يجوز النظر إليه إذا دعت الضرورة ، كأنقاذها من غرق ،

أو كنظر الطيب للعلاج ، فانه يجوز ويتقدر بقدر الضرورة .
 هذا كله اذا كانت المرأة حرة ، فان كانت أمة فعورتها ما بين
 السرة والركبة ، وقيل عورتها مالا يبدو وعند مزاوله الأعمال المنوطة بها
 كالساقين والساعدين ، أما البطن والظهر على هذا فهما عورة منها ،
 بخلافهما على القول الأول اذا كانا فوق السرة وما يسامتها .
 وأما عورة المرأة مع الرجل المحرم فهي ما بين السرة والركبة ،
 وقيل مالا يبدو عند المهنة ، وأما مع الزوج أو السيد الذي له حق
 الاستمتاع بأن كانت أمة مملوكة له وحده غير متزوجة ، فلا شيء من
 بدنها بعورة — إلا أنه يكره النظر الى الفرج ، بل يكره نظر المرء
 الى فرج نفسه .

وأما عورة الرجل مع المرأة ، فان كان محرماً فعورته ما بين السرة
 والركبة ، وإن كان زوجاً أو سيدياً له حق الاستمتاع ، فلا شيء من بدنه
 بعورة إلا كراهة النظر الى فرجه كما مر في عورتها معه ، وإن كان
 أجنبياً فقيل عورته ما بين السرة والركبة ، وقيل ماعدا الوجه والكفين
 كعورته في الصلاة — إلا أنه لا يجوز لها تكرار النظر اليه بدون
 حاجة ، لما قد ينشأ عنه من فتنة لم تكن في حسابها . والفرق أن
 الرجال منوط بهم من الأعمال ما يشق معه الاحتجاب ، بخلاف ما ينباط
 بالنساء .

أما عورة الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة ، فهما بين السرة
 والركبة في الأجنب والمغلظة وهي الفرجان في المحارم . وحيث

قلنا : لا يجوز النظر ، فلا يجوز اللمس أيضا من باب أولى ، لأن الضرر في الملامسة أشد منه في النظر ، ولذلك حكموا بأن الأنزال بمجرد النظر لا يفطر الصائم ، بخلاف الأنزال باللامسة فإنه يفطر ، وكذلك تحرم المضاجعة في فراش واحد ، ولو بين رجلين أو امرأتين ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يفضى الرجل الى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضى المرأة الى المرأة في ثوب واحد » ، هذا وللحكم تفصيلات واختلافات بين الفقهاء محل استيفائها كتب الفقه .

و بعد هذا نرجع الى تفسير الآية الكريمة :

قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم » :

قد عرفت ما بين هذا الحكم والأحكام السابقة من سبب متين وصلة قوية ، فلا يزال الكلام فيما يكفل صون الأنساب وحفظ الأعراض ، وفي توسيع الحرم الذي يصون تلك الحرم المقدسة عن أن تمتهن أو تقترب من الامتهان ، وكلما عظم خطر الشيء حسن توسيع حرمه وتقوية حماه . وقد شرحنا لك ما يترتب على النظر من عظيم الضرر .

وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه من باب هيمنة الربى على المرئى ، فقد يفطر من المرء من ذلك بعض المنهيات وهو غافل ، فالهوى يقظان دائما ، والعقل قد تغفله الشهوات ، فكأن

الأمر بحاجة الى هيمنة البعض على البعض ، وبخاصة متى كان
لبعض حق الهيمنة العامة ، وذلك شأنه صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ،
ويلحق به كل من له الاشراف ، بل المؤمنون في مثل هذا بعضهم
على بعض رقيب ، فذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
فهذا من الأساليب المقوية للتماسك بين جماعة المؤمنين ، وكأنها تجعل
بعضهم في كفالة بعض .

وتخصيص الحكم بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين ينتظر منهم
الامتثال تدينا وللأشارة إلى أن وصف الأيمان من حقه أن يحمل على
اتباع هذا الهدى ، وليكون لقوله : « ذلك أذكى لهم » موقع المناسبة
التامة ، وإلا فالكفار إذا وقع منهم هذا ، استوجب ذلك عقوبتهم
فوق عقوبة الكفر ، على رأى من يقول إنهم مخاطبون بفروع
الشريعة ، وإن كان لا يقبل منهم الامتثال المثاب عليه إلا بعد الأيمان .
وقوله : « يغضوا من أبصارهم » مجزوم في جواب الأمر ، كأنه
قيل قل لهم : غضوا يغضوا ، أى إن قلت لهم ذلك غضوا من أبصارهم
كما تقول : علمه يستفد ، وأكرمه يتبعك . والغض : الكف ، ودخول
« من » المشعرة بالتبويض ، لأن غض البصر جملة متعسر شاق ، فالمراد
أن يكفوا من أبصارهم ما يتجاوز حد الأباحة ، لا أن يغضوا أعينهم
تماما . وتقديم الأمر بغض البصر على المقصود بالذات من الأمر وهو
حفظ الفرج ، من باب تقديم الوسيلة على المقصود ، وفيه فضل تقرير
للأمر بحفظ الفرج ، فانه حيث علم أنه قد أمر قبل حفظ الفرج بسد

الطريق التي قد تفضى الى امتيانه ، علم أن له فضل عناية عند الأمر . وحفظ الفروج : أى عن أن تقع فى الفجور والمنكر . وقيل : المراد هنا سترها ، وأن هذا المعنى خاص بهذه الآية ، وأن كل ماورد فى القرآن من الأمر بحفظ الفروج معناه حفظها من الزنا ، إلا هذه الآية ، فالمراد الستر . ولكن الظاهر أن المراد فى الجميع واحد ، وهو حفظها من الوقوع فى منكر : من كشف ، أو لس ، أو زنا ، أو ما مثل ذلك ، وكان تلك المنكرات متلفة لها ، فصونها عن حفظها من التلف والفساد .

وقوله تعالى : « ذلك أزكى لهم » أى أوجب لطهارتهم من دنس الريبة ، أو أنفع لهم فى الدين والدنيا . والأتيان بصيغة أفعال قديكون للمبالغة فى الطهارة أو النفع ، لا على معنى التفضيل على شىء آخر فيه ذلك ، بل على معنى أنه يوجب من الطهارة حظاً وافراً .

وقوله جل شأنه : « إن الله خير بما يصنعون » من أحسن الاختتمات وأنسبها بهذا المقام ، فإن جولات الأبصار لا يحيط بها إلا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وقديسارق الشخص النظر الى ناحية وهو متظاهر بالتوجه الى غيرها ، وكذلك الأمر المتعلق بالفروج لا يخفى أن من يريد مخالفته يعمل كل جهده فى إخفاء ذلك عن جميع الناس ، فجاء قوله جل شأنه : « إن الله خير بما يصنعون » ليسد طرق الحيلة على من تحدثه نفسه أن يتحايل على إخفاء شناعته عنه ،

بتفهمه أن الله خبير بكل ما يصدر منه وإن خفي ، مهما حذق في إخفائه ومهر في تدبيره ، كما يفهم من لفظ يصنعون ، فهو مشعر بالحدق والمهارة .
يقال : إن رجلا راود امرأة فلما اقترب منها انتفضت . فقال لها :
م تخافين ولا يرانا إلا الكواكب ؟ فقالت له : فأين مكوكبها ؟ !
ففر منها . وحقا قال الله تعالى : «وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين» .
وأما قوله تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن
فروجهن» فإنه أعيد الحكم مع المؤمنات مع أن أغلب الأحكام ترد
في شأن المؤمنين فتشمل المؤمنات تغليبا ، أو مقايسة ، لأمرين :
(الأول) أن خطر الأمر في هذا الموضوع بالنسبة الى النساء أشد ،
فهن أصل البلاء في هذا الباب . و(الثاني) أن الحكم يستدعي مزينة
تفصيل هو الآتي بعد ، وهو قوله : «ولا يبدين زينتهن» الخ .
والزينة المراد بها ما تتجمل به المرأة مما يتصل بجسمها أتم اتصال
كالتكحل والاختضاب ، أو ما يلبسه ، كالخلى ، والثياب . وقال
بعضهم : بل هو كل ما عاد عليها بالحسن والجمال حتى خلقتها . وسواء
أكان هذا أم ذاك فالزينة هنا مقصورة على ما اتصل بجسمها ، فلا حرج
في الزينة أن ترى إذا لم تكن ملبوسة ، وإذا كانت متصلة بجسمها ،
فالحرمة في الحقيقة واردة على جسمها لا على نفس الزينة ، وإنما أوردتها
على الزينة للمبالغة في صون محلها عن أن يرى ، فكأنه قيل : إذا كانت
الزينة قد نهى عن إبدائها ، فكيف الحال في المزدان بها ؟ أو هو
من باب الكناية . وهو الشأن في المواضع المبينة على الستر ، فقد

جرت العادة أن يكنى عنها لأن يصرح بها ، وكأن ذلك من باب ستره
 ذلك أيضا حتى عن السمع أن يطرقه ، فما بالك بالبصر أن يلمسه ؟
 والمراد بما ظهر منها ما جرت العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة
 ذلك ، وذلك هو الوجه والكفان ، لأنه لاغنى عن كشفهما غالبا ،
 ويلتحق بهما القدمان عند بعضهم .

وقيل المراد بها الثياب والجلباب ، ويشهد له قوله تعالى : « خذوا
 زينتكم عند كل مسجد » فإن المراد ما يستتر به من الثياب .
 وقد اختلف في هل المراد نفس الزينة أو محملها ، ولكن لم يقل
 أحد إن الزينة المنفصلة عنها يحرم النظر إليها ، وإنما الكلام في المتصلة
 كما سبق ، فمن قال : إن المراد المحل ، يكون المراد : ولا يبدن شيئا من
 جسمهن مما هو موقع للزينة . واختيار هذا الأسلوب في التعبير للتنبيه
 على علة الحكم وهو الصون لما ينبغى أن يضمن به . وأما من قال : المراد
 نفس الزينة ، فيقول : إن الأمر بسترها مبالغة في الأمر بستر المواضع ،
 فانه إذا أمر بستر ما يتصل بالشئ ، كان ذلك أبلغ في الدلالة على الأمر
 بستر نفس الشئ . وأيا ما كان فالذي يظهر عادة هو ما اتصل بالوجه أو باليد :
 من نحو كحل ، أو خاتم ، وخضاب ، والذي لا يظهر عادة ما اتصل
 ببعضه أو ساق ، كدمليج وخلخال .

وقوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » إرشاد إلى كيفية
 إخفاء بعض المواقع التي كانت العادة جارية بظهورها ، فتخصيصها بالذكر
 مع دخول المستور بالخمر حينئذ في قوله : ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر

منها ، لاقتلاع تلك العادة التي كانت متفشية فيهم ، فكأن الآية تشير الى أن النحور والصدور وإن كانت مما اعتيد ظهوره عندكم ، ولكنهما ليسا مما تقضى الضرورة بكشفه كالوجه واليدين ، فلا يدخلان في قوله : «إلا ما ظهر منها»

والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، مأخوذ من الخمر بمعنى الستر ، وكان من عاداتهن أن يضعن الخمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتح في أعلى الثوب يبدو منه بعض الصدر . والضرب بالخمر على الجيوب معناه إلتصاقها بهذه المحال وجعلها ملازمة لها كضرب الخيمة في المكان

قال تعالى : « ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن » الخ :

هذا إعادة للحكم . زيادة في تقريره بالتكرير وترية للعناية ؛ وتوطئة للاستثناء ، استثناء آخر ، وذلك أن المستثنى في الأول كان من جنس المستور ، والمستثنى في هذا من جنس من يطالب الستر عنهم ، فالستثنى منه هنا محذوف ، وفيما سبق مذكور ، كأنه قيل هنا : ولا يبدن زينتهن لأحد إلا لبعولتهن . وقد بدأ بالبعولة أى الأزواج لأنهم أحق الطوائف ألا يستر عنهم شيء ، ولأنه يباح لهم النظر لجميع البدن ، والماسة كذلك ، وإن كره بعضهم النظر إلى الفرج فليس لأنه عورة في حقه ، بل لأن محاسن الآداب تنبوعه ، والنفوس ينبغي أن

تصان عن مثل هذا التغلغل في الشهوات البهيمية ، وقد قيل : إن النظر إليه يورث الطمس ، والعياذ بالله .

وقوله : « أو آبأهن أو آباء بعولتهن » المراد به ما يشمل الأجداد ، سواء أكانوا أجدادا لأب أم لأم . وقوله : « أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن » كذلك : المراد به ما يشمل الابن وابن الابن وابن البنت وإن نزلوا . وقوله : « أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن » الإخوان والأخوات لا فرق فيهم بين الأشقاء ، وأولاد العلات أى الأخوة لأب ، وأولاد الأخياف ، أى الأخوة لأم ، وبنوهم وبنوهمن يشمل الابن المباشر وابن الابن أو ابن البنت وإن نزل . ولعل في مغايرة التعبير في الأبناء تارة بلفظ الأبناء وتارة بلفظ بنى ، أن لفظ الأبناء يقال في الكثير للأشخاص الذين يتفقون في صنف القرابة ، ولفظ بنى يقال فيما هو أوسع من ذلك ، فيقال مثلا : بنى تميم ولا يقال أبناء تميم ، فلما كانت الأخوة والأخوات فيها من السعة ما ليس في أبنائهن ولا في أبناء بعولتهن لأن تعدد الأخوة والأخوات أكثر عادة من تعدد البعولة ، عبر بالأبناء في الأول ، وبنى في الثانى .

ولم يذكر في الآية الأعمام والأخوال ، وألحقهم أكثر الفقهاء بالمذكورين لأنهم محارم . وقيل : بل الأحوط إلحاقهم بالأجانب . وهذا الحكم كما يجرى في محارم النسب يجرى في محارم الرضاع ، فلها أن تبدى زينتها لأبيها من الرضاع ، أى زوج مرضعتها ، وكذا ابنها وأخوها من الرضاع ، وهلم جرا .

وقوله تعالى : « أو نسائهن » المراد به النساء الحرائر المؤمنات ،
 فهن اللاتي يسمين نساءهن ، أى المختصات بهن من النساء ؛ أما الأماء
 فسيأتى دخولهن فيما ملكت أيمانهن . وأما المرأة الكافرة فقليل : هى
 من المسامة كالأجنبي ، وقيل : تنظر ما يبدو عند المهنة ، وقيل : بل هى
 معها كالمسامة ، وعلى هذا يكون تخصيص النساء بهذه الاضافة ، كأنه
 لما أن الحبل فى النظر أولا وبالذات إنما يصح أن يختص بالمؤمنات ،
 فاذا أبيض شئ من ذلك للذميات فن باب رفع الحرج أو نحوه ، أو
 الاضافة ليست للتخصيص ، بل هى معممة ، وكأنه قيل : النساء
 اللاتي هن من جنسهن ، فالحرج .

وقوله : « أو ماملكت أيمانهن » قيل : إن ذلك خاص بالأماء ، فلا
 يحل للعبد أن يرى من سيده ، وقيل بل لعبيدها أن يرى منها ما يراه
 محرما . واستدل أصحاب هذا القول بأن عائشة رضى الله عنها كانت
 تمتشط بحيث يراها عبيدها ؛ وبأنه صلى الله عليه وسلم أهدى غلاما
 لفاطمة رضى الله عنها فأخذت تستتر ، فقال عليه السلام : ليس عليك من
 بأس إناهو أبوك وغلامك . أى إنما الحاضر أو الناظرهما الاثنان ، ولا
 بأس عليك من رؤية أبيك ولا من رؤية غلامك . واحتج الآخرون
 بقوله عليه السلام : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر
 سفرا فوق ثلاث إلامع ذى محرم . والعبد ليس بذى محرم منها أيضا ،
 فملك المرأة للعبد ليس كملك الرجل للأمة ؛ فلا يحلل ما كان محرما
 قبل الملك .

وقوله تعالى : «أوالتابعين غير أولى الأربة من الرجال» هم المسنون
الضعفة الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل طعامهم ، أوالبله الذين
لا يفهمون من أمور النساء شيئاً ، أوالمسوحوون الذين قطعت
مذاكيرهم جميعها .

وقوله جل شأنه : «أوالطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء»
فيه كلمة يظهروا ، إما بمعنى لم يفهموها ولم يعرفوا من أمرها ما يعرف
الرجال ، من قولهم : ظهر على كذا أى اطلع عليه وعرفه ، وإما بمعنى
لم يقدرواعليها ولم يصلوا الى درجة معالجتها ، من قولهم : فلان ظهر على فلان
أى تفوق عليه وقدر عليه ، ومعناه الذين لم يقدرواعلى الجماع . فالمعنى
الأول يقتصر على من لم يميز ، والثانى يشمل ماعدا المراهق المشتهى .
قال تعالى : « ولا يضر بن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » :
ما أجمل إتباع هذا الحكم لما قبله ! فقد سد على المتصنعات طريق
الحيلة ، وأبان لمن أن الله محيط بما يحاولن من التطاع خرق هذا
الحجاب الذى هو فى مصلحتهن ، وبه صونهن ، بل عليه يتوقف أمر
الرغبة فيهن ، والاتجاه الصحيح نحوهن ، وأنهن اذا تعجلن الوصول
الى الرجال باختراق هذا السياج ، حرم من غايتها التى سعين لها ،
وانقلب سعين وبالاً عليهن .

ولا يفوتنا أن نشير الى ما ابتليت به الأمة فى زمانها هذا من
إعراض الرجال وبخاصة الشبيبة المتعلمة عن الزواج ، بل تحاميمهم
الوقوع فى هواته السحيقة ، مما ضج بالشكوى منه كل ذى أسرة .

وإن السبب في هذه النكبة التي حلت بالأمة لا يعدو ما تدهور فيه النساء من ذلك التبرج الممقوت ، الذي جر الى مالاتستبيح الأفلام أن تخوض فيه ، فكان أن ساءت ظنون الرجال بأغلب النساء ، وكان أن خمد ميل الرجال إليهن ، وصدق عليهن قول الشاعر :

عرضنا أنفساً عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

قال جل شأنه : « وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » :
هذا أحسن ما يختم به مثل هذا الحكيم الذي مهيا بالغ المرء في امتثاله
فلا يكاد يسلم من مقارفة شيء منه ، ولو في حال الذهول عن نفسه ،
وداعى الهوى يقظان دائماً ، فقد يفرط من المرء في غفلته ما يفرط ، فلا
يتنبه إلا وقد سبق السيف العدل ، وهذا شأن النفس البشرية ؛ ولا سيما
في مثل هذا المقام ، فجاء الأمر بالتوبة للمؤمنين جميعاً تلافياً لما عساه
أن يفرط ، وعقب بأن التوبة مما يرجي معه الفلاح الذي هو نهاية المقاصد ،
وبالله التوفيق

الترغيب في النكاح
والرفق بالارقاء

(وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلِيَسْتَعْفِفَ
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ
مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَتَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ
اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْنُ
لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنْ خَلَا
مِنْ قِبَالِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) :

لقد مضى الكلام آيات تلاو آيات في التحذير من قربان الزنا وشرح
مضاره ، وما يتصل بذلك من الأحكام اتصالا قريبا أو بعيدا : من
الأمر بغض البصر ، وإخفاء الزينة ، والاستئذان عند دخول المنازل ،
ومن صون الأعراس عن أن تنالها الألسنة بسوء من هذا القبيل ؛
فأخذ من مجموع ذلك أن لهذه الفاحشة من الآثار السيئة ما لا يقبل
الحوادة في العلاج ، ولا التسامح في المظان ، فطبع له بذلك في النفوس
صورة من أقبح الصور وأوجبها البعد . ولا تكاد تجد الشارع الحكيم
حظز على الناس أمرا مما تميل إليه الطباع البشرية إلا عوضهم عنه

ماهو خير منه ، فبعد إشباع القول في الزجر عن الزنا يحىء الكلام في العوض الذى هو خير منه استمتعا ، وأثبت أصولا ، وأتى ثمرة ، ذلك هو النكاح ، إذ يصل المرء الى بغيته المنشودة وهو هادىء النفس مستريح البال لا يزعج ولا يزعج ، ولا يتحدث نفسه بأنه آذى أو تعرض للأذى ، وتجد الحياة بينهما مستقرة ، ميناها تبادل الحب الصادق ، وتعاون الطرفين على مصالحة الطرفين ، فينتج من بينهما بنون وبنات يقدمون على أبويهما بالسعادة والهناءة ، فيتلقيانهم بالبشر والرحاب والفرح العظيم ؛ لا كذلك المولود القادم على المسافرين نذيرا بهدم اللذات ، وتفريق الجماعات ، وتنعيس العيش ، والتذكير بعقبى الطيش ، فيتلقى كما يتلقى الغريم ؛ بل ينظر إليه كأنه الشيطان الرجيم ، وكأنه يقول لهما : فضحتكما وهتكت ستركما ، فأين تفران منى اليوم ولات حين مناص ، ولا ينفعكما الندم ؛ وهنا تدور تلك المعركة الطاحنة المشؤمة ، وكثيرا ماتقضى على ذلك النذير الضعيف ، فيقتلانه عمدا وهو فلذة كبدهما ، وقطعة من حشاشتهما ، فيالهول المنظر ، وبالبؤس تلك النفوس ، وبالوخز الضمير !

وتصور كيف ينقلب النعيم إذذاك جحيا ، وكيف يتحول ذلك القلب الرحيم شيطانا رجيا ، وأى مظهر من مظاهر الشيطان أشنع من أن يبطش المرء بنفسه منقوسة لم تجن ذنبا عليه ولا على غيره فيقتلها ، ويراهاصريعة أمام عينه تدأله : ما ذنبى الذى استحققت به بطشك ؛ ثم تذهب الى ربها بريئة مظلومة ، تشكو اليه ظلم أقرب الناس

اليها، ومن كان هو أولى الناس بالمحافظة عليها وطريق اندراجها في هذه الحياة مكتفية بترديد قول القائل :

هذا جناه أبى على م وما جنيت على أحد!

وفكر بعد ذلك في لحظات يقوم فيها ذلك الجاني من نومه مذعورا، إذ يبدوله شبح جريمته، ويتمثل له شخص فريسته، يذكره بما صنع به، فيشرد عنه النوم، ويمزق عنه لباس الراحة والهدوء، ويطرده عن مخيلته فلا يطرده، ويبعده عن ذاكرته فلا يبتعد - أفتراه بعد هذا كاه تتجه نفسه الى تلك النفس التعسة التي شاطرته هذه الجريمة فيحبها ويتصل بها؟ أم أنه يراها مبعث الشقاء وأصل الداء، فيصب عليها اللعنات وهي تقابله بالمثل، فما أشبههما بأهل النار: كلما دخلت أمة لعنت أختها! ومن يكون من أهل النار إذا لم يكن هذان المجرمان أحق بها وأهلها؟ أفلا معنى للشبه هنا، وإنما هما من عماد أهلها.

هذا اذا قويا على الفتك بمهجتهم وثمره قابهما. فاذا أدركهما الخور واكتفيا بإبعاده عنهما، فقد عرضاه للعار والشنار والاحتقار، وتربى سبة على نفسه وعلى شقين متواريين تنزل عليهما اللعنات وهما يستمعان ولا يجروان أن يعترضا على لاعتنهما، ولا أن يقتصا لأنفسهما، كلا، بل لا يقدران على التظلم والشكوى. وقد يريانه ابنيهما ويعرفانه كما يعرفان أبناءهما، ولكنهما يفران منه أشد الفرار.

تأمل هذا، وما خفى فهو أعظم، وقارنه بما تقرؤه في قوله تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة « فجعل الصلة بين الزوجين وما تضمنت من أسباب السعادة آية من آيات الله ، إذ تضمنت حكمة أنها من أنفسهم ، وأنها تطمئن إليها النفوس وتسكن الخواطر ، وبها يزول عن المعيشة أسباب الاضطراب والتقلقل ، وقد حفهما جل شأنه بشعار المودة والمحبة ، وقرب بين نفوسهما بالمحبة الصادقة النابتة ، وأسدل عليهما ستائر الرحمة تكثفهما ، فيحوط كل منهما صاحبه بما يحوط به نفسه ، ويرى حياته رهن حياته ، وسعادته صنو سعادته ، وهنائه قرين هنائه ، صدق الله العظيم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهنا أستمح القارئ قسطا من سعة صدره ، وأستمح جزءا من أناته وصبره ، لأتلو عليه كلمة كتبتها في موضوع الزواج واستحكام أزمته ، وأجلو له صفحة عاجلت فيها هذا الموضوع الذي تشكو الأسر من ركوده ورقفته ، والله المستعان :

قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقال جل شأنه : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » :

الزواج مبدأ تكوين الأسرة ، ومدار استمرار العمران ، وعليه التعويل في بقاء الكون ونمو الأمم . عون على نظام الحياة ، باعث للمهم إلى العمل ، وسيلة لهناءة المعيشة وجعل الحياة سعيدة . وحسبك

منه أنه قاطع لجرثومة الفساد في الأخلاق ، وعون على صون الشرف والأعراض ، وقاطع لدابر الشرور والخصومات ، والعداوات بين الأسر والجماعات ، بل هو فاتح للتواد والتحاب بين الناس أسرا وأفراداً . فكم من شخص كان فذاً في حياته لانهياره ولا عضد ، فكان بالمصاهرة عزيز الجانب ، مخطوب المودة محفوظ الغيبة ، كثيراً بالمصاهرة ، عزيزاً بما استحدث من أسرة ، وبمن انضم إليه من جماعة . وكم ترى من خامل النفس ميت العزيمة متراحي الهمة ، قد اشتد بالزواج أزره ، وانبعثت من رقدتها همته . وتحركت نحو العمل عزيمته . وأصبح في الحياة عضواً عاملاً نشيطاً يسعى ويجد ، ويعمل ويكد ، لأن الزواج أشعره بواجبات كان في غفلة عنها ، وناط به مصالح كان لاصلة بينه وبينها . فتكسب أمته من نشاطه وحياته العملية أكثر مما تكسبه منه من أبناء وذرية . ولا تسئل عن حفظ المرء صحته بالزواج ؛ سواء من جهة ابتعاده عن الخنا الذي يجر إلى شر الأمراض ، ومتعاضى الأدوية ، أم من جهة انتظامه في معيشته على الوجه الذي أعد له ، فيستكمل نظامه الحيوى الذى عليه مدار بقاء الفرد وبقاء النوع على وجه لاغبار عليه . ولا خوف منه ولا خطر فيه . فإذا ما رأى بعد ذلك منزله وقد عمر بالأبنا والبنات ؛ ودبت فيه روح الحياة الجديدة ، فيصبح ويمسى يشاهد من نعم الله عليه ما يشرح صدره ، ويقر عينه ، ويدخل السرور إلى قلبه ، ويزيل الهموم عن صدره ، ويبعث الحياة الجديدة في دمه ، سمت روحه وعلت

نفسه ، وأصبح شعوره قويا بمعنى الحياة وسموها ، وهنا يجد النشاط الى نفسه أقوم سبيل ، وينفتق فكره عن وسائل الترقية في الأعمال الحيوية لأمته ، لا لشخص أمته ، بل لأنه يرى في خدمته لأمته الوسيلة الوحيدة لخدمة أمته له . وهل الرزق لإقيم الأعمال التي يقدمها المرء للمجموع ، فيأخذ ثمنها من المجموع على حسب قيمة ما أدى إليه ؟

كل هذا إذا أضفت اليه السلامة من الطغيان ، ووساوس الشيطان ، ومعصية الرحمن ، والوقوع في الخسران ، وجدت الأمر أعلى من أن يتنازع فيه ، وأكبر من أن يستهان به . فكيف وقد دعت اليه الطبيعة السليمة . بل يكاد يكون مغروسا في بعض الفصائل الحيوانية بالفطرة .

إذا كان الأمر على هذا الوجه من الوضوح والخطورة ، فالنارى أزمة الزواج قد استحكمت حلقاتها ، وشاع بين شبابنا — وبخاصة في المدن العامرة — الأعراض عن الزواج ، بل التبرم به والتأفف منه لمن تزوج ، والفرار والخوف منه بالنسبة لمن لم يتزوج ؟ إنه لأمر عجب ، ولكن مامن حدث إلا وله سبب . وإنا نريد أن نعرض لشرح تلك الأسباب بحسب ما نستطيع ، وإن كانت أسباب ذلك من التنوع والتفرق والكثرة بحيث تشذ عن أراد الأحااطة بها . ولعلنا نوفق للأسام بأهمها وأكثرها شيوعا وأعمها أثرا . ولنحصر الأسباب الآن في أربعة :

(١) انحطاط الآداب .

(٢) التغالى فى المهور والاسراف فى الجهاز .

(٣) تراخى المودة الزوجية بسبب إعنات النساء للأزواج فى السرف

والبذخ وشتى المطالب .

(٤) التطلع لسعة الحياة المادية ومحاولة ضمان ذلك للذرية .

السبب الأول انحطاط الآداب ، ولعل ذلك أهم الأسباب :

من القواعد الاجتماعية المطردة ولوع الأمم المغلوبة بمحاكاة الأمم المتفوقة فى عاداتها ومقوماتها مهما كانت قبيحة أو مشوهة أو منكرة . وقد جدت أسباب وعوامل أدت الى أن تكون للأمم الغربية حضارة مادية قوية ذاقوا لذتها ، فعكفوا عليها وتوسعوا فيها ؛ فجنوا منها ثمارا لا يستهان بها ، واستخرجوا من كنوز الأرض والقوى التى بثها الله فى الكائنات ماشرح قوله تعالى : « خلق لكم مافى الأرض جميعا » شرحا باهرا ، فكانوا بحق أساتذة أهل العصر فى اجتناء الثمار المادية ، واستخدام الأسرار الكونية التى رفعت الحياة وسهلت كثيرا من مستصعباتها ، فبهرت الأمم لمادان لهم من هذه المستكشفات والمخترعات ؛ حتى نسوا ماجاء عن طريق الشرق من حضارة روحية ومدنية معنوية كان لها أعظم الأثر فى سعادة البشر .

إن الحضارة نوحان مافى ذلك شك : حضارة روحية قوامها تصفية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وبث الفضيلة ، ونشر التعاطف ،

والتودد بين الناس ، والسمو بالنفس الانسانية الى المستوى العظيم اللائق بها ، وهو إخلاص العبودية لله ، والتحرر من الرق لأحد سواء ، وتعديل مزاج قوتها الشهوية والغضبية ، حتى تسير على قانون العدل في كل شئونها ، ودفعها الى العلم والحكمة لتحيط بما به سعادتها في الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الحضارة قد استأثر به الشرق ، مهبط الشرائع ، ومبعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . والنوع الثاني: الحضارة المادية ، وقوامها استنبطات الأسرار التي بثها الله في المادة وهيأها لنفع الانسان في هذه الحياة : من آثار البخار والكهرباء ، والآلات السريعة الأعمال ، والدقيقة الآتار ، وما يلتحق بها أو يتفرع عنها . وأستاذ هذا النوع في عهدنا الحاضر هو الأمم الغربية من غير منازعة ولا إنكار .

وإن السعادة الكاملة في هذه الحياة الدنيا ورغد العيش للنوع الانساني مرتبط بهذين السببين بدون شك . ولكن أيهما أُلزم لهناءة الحياة وسعادة المعيشة ؟ للجواب عن هذا يصح أن نتصور انفسك أحد السببين عن الآخر ، فلنتصور الأمم فقدت مظاهر تلك المدنية المستحدثة ، فلم تتمتع بالقطار السريع ، ولا بالضوء الكهربائي ولا بالطرب للحاكي (الفونوغراف) وحرمت تسجيل صورها بالمصور الشمسي (الفوتوغراف) ولم يكن لديها من آلات الجراحة الدقيقة أو أجهزة الأشعة الكاشفة أو الوسائل المدمرة في الحروب ، الفاتكة في النفوس : من غازات خانقة ، ونسافات وطيارات،

وما يتصل بذلك . تتصورها حرمت ذلك كله ، ولكنها ساد بينها
الوئام والمحبة والقناعة ، والثقة والتراحم والمعاونة ، سادها الاخلاص لله
في العبادة ، ورضيت بمسور الرزق ، مع ترقية نفسها وأبنائها في
الأخلاق والآداب . ثم تتصور الأمم مرة أخرى قد أخذت بأكبر
قسط من هذه الحضارة المادية ، والمستحدثات التي تمخض عنها هذا الزمان
الحاضر ، ولكنها حرمت صفاء النفوس بين أفرادها ، وحرمت شيوع
الأمانة في معاملتها ، واستفاض الكذب في مخاطبتها ، وغلبت شهواتها
واسترسلت في أحكام غضبها حتى تغلغت في إجرامها ؛ ولم يردعها
الخوف من ربها ، وكان الحكم فيها لقويها على ضعيفها ، ولم ينتصر
لمظلومها من ظالمها ، فأى العهدين أحق بأن يكون عهد سعادة وحياة
ناصرة ؟ إنا لانشك في أن الكفتين غير متوازيتين ، وأن الأثرين
غير متكافئين ، وأن شظف العيش مع صفاء النفس لا يخل بالسعادة ،
وأن حياة الترف مع فشو الأجرام لا يجعل للحياة قيمة ، وأن الانسانية
قد استفادت من الشرق مالاغنى لها عنه ، وقد أخذت من الغرب
مافتح عليها باب شر في الحياة لا منتهى لأمده ولا وصول
لحدّه ، فاندفع الى الانغماس في شهواته والمسارة لرضا نفسه بشكل
لا يبقى على الهناء .

وإن من عرف حياة المترفين المستغرقين في تتبع مشتياتهم ،
يجدهم قد وصلوا إلى حالة ضاع معها الشعور بلذة ما كانوا ينعمون به ،

والتست أذواقهم طعوما أخرى أشد لذة مما هم فيه ، فإذا أعوزهم ذلك عادوا الى بعض ما كانوا يأثفون منه ، كأنهم يحاولون تجديد أذواق ماتت عندهم ، فإذا فاتهم ما يؤملون عادوا بحسرة وتنغيص . وخذ لذلك مثلا بنى إسرائيل إذ سئمو المن والسلوى ، والتسوا البقل والقثاء والقوم والعدس والبصل ، تعرف به حال أولئك المنغمسين ، فقد أصبحت الأطعمة الفاخرة واللذائذ النادرة عندهم مألوفة تافهة ، بل مستومة مملولة كالمن والسلوى عند بنى إسرائيل ، فأيظن لذة عندهم ويتوهم أنهم به منعمون ، ثم فى الحقيقة به برمون ، ومنه متململون . هذا هو شأن الانغماس فى المشتبهات والاستغراق فى اللذائذ ، يصل بصاحبه إلى درجة أن يضعف الأحساس بها حتى يتلاشى وحتى يسأم ويميل . فإذا أضفت الى ذلك أن هذا المنغمس يستولى عليه الضعف فى عزيمته ، وتصبح همته واهنة واهية ، كانت الخسارة فيه أشد والمصاب به أتم . ولقد قال بعضهم : الترف مرض اختياري تجلبه النعم ويأخذه من يشاء . فإذا كان هذا قصارى الثمرة المستفادة من حضارة الغرب ، فقد آلت بنفسها الى أنها شر ونقمة ، بدل أن تكون خيرا ونعمة ، فكيف إذا ضمنت اليها الحرمان من تلك الفضائل الروحية ، والمزايا النفسية ، والآداب الشرعية ، التى تنهض بالنفس الى المستوى الرفيع ، وتسمو بها إلى أعلى عليين ، وتجذب أطراف الانسانية بعضها الى بعض حتى تنظمها فى سلك التواد والتراحم

والتعاطف والتعاضد ، وتجعلها كأعضاء الجسم الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحلمى والسهر ؟

لقد استطرده بنا الحديث حتى كدنا نبتعد عما سيق الكلام له ، وعذرنا أن المقارنة بين الشرق والغرب وأيهما أعود على الإنسانية بالخير والمنفعة ، مما خفى على الكثير حتى من المفكرين والمتصدرين للزعامة ، والزاعمين أنهم هداة قادة ، فقد اغتروا بتلك الآثار الخلابية ، وأساموا عقولهم وأفكارهم لأصحابها ، ووقفوا جهودهم على تأييدها والدعاية الى التمسك بأهدابها ، وتقليد أهلها حتى فى أخس المنكرات وأحط الآداب ، وغفلوا عما يجره ذلك عليهم وعلى أمتهم من الشر الويل . فن ذلك تلك الدعاية الممقوتة التى استفاضت على السنة الكثير من المفكرين ، وهى الدعاية إلى السفور ونبذ الحجاب ، وتحييد اختلاط النساء بالرجال والرجال بالنساء . لقد استعملوا كل قواهم وتعاضدوا من كل جانب لتلك الدعاية ، وترسوا فيها بأن السفور باب العلم ، والحجاب قفل ذلك الباب ، وأن الداعى للتمسك بالحجاب حائل بين الأمة وبين العلم النافع . ومن يستطيع أن يرى نفسه قد وقف حائلا بين الأمة وبين العلم النافع ؟ ومن يقبل على نفسه لقب أنه عدو للعلم وهو مانصب نفسه للإرشاد إلا بما أوتى من العلم ؟ كان ذلك التذرع بنشر العلم سلاحا حادا استعمل بدهاء ومكر شديدن وساعد قوته ميل النفوس ، وبخاصة نفوس الناشئين ، الى فك العقال واطراح القيود ، والايغال فى بيداء الاطلاق ، فاندفعت فئة ممن

لايبالون بمركز أدبي أو عادات متمكنة أو آداب مرعية ، فزجوا بأنفسهم في التجربة الأولى ، فإلم يجدوا رادعا تبعثهم فئة أخرى ، ثم كان من المترفين جولة جريئة باسم المدنية التي هم رافعو لوائها ، فتبعهم من يحاول اللحاق بهم ، حتى انفرط العقد ، وأصبح السفور عادة غير منكورة .

فهل وقف الأمر عند هذا الحد ، وقنع الشر بما اكتسب من القضاء على فضيلة الأمة الراسخة ؟ ! إذا كان الخطب هينا ، وكنا نقول : بعض الشر أهون من بعض . ولكن ما العمل وبذرة الشر سريعة الأنبات ، والنفوس الشهوانية تربة صالحة للغراس ! لقد جر هذا الى إحراز الشباب أمنيته . فقد تفتح أمامه سبيل الشيطان ، وزين للناس باب آخر هو من السفور بآمتن صلة ، ذاك هو الاختلاط في الأندية والمجالس والمحافل ، ثم الانفراد أو الاجتماع الانفرادى (لا أدري بما ذا أسميه) أقول : ثم تأبط الشاب ذراع الفتاة والابتعاد بها عن الرقباء والعيون ، يرتادون الخلوات ، ويتجولون في المتنزهات ، ويعمدون في بعض الأحيان الى دور الملاهي والملاعب ، يتلقيان دروس الغرام ، ومناظرات الحب والهيام ، ودور القبلات وأصناف المعانقات ، والمغازلات والمفاضبات . كل أولئك دروس تجرى الهيبوب منهما على الاقتحام ، ثم ينصرفان لاندري إلى أى مأوى ، ولا يدري أهلها أين هما ولا يجرون أن يسألوهما . إنك ستنتفر من سماع هذا الكلام ، وستنكر على الكاتب أن يسطر هذا على

صفحات مجلّة نور الاسلام ، ولكنها حقيقة تجرى بين فئات
من الفتيان والفتيات ، ويخشى إذا استمر الحال أن يتسع خرقها
ويتفاقم شرها .

وإذا كان مجرد ذكرها قد جرد إلى اشمئزاز القارىء إلى هذا الحد ،
فكيف يكون مجراها وفسوها . وكيف مصاب الأسر الشريفة بها ،
أوسريان عدواها اليها ، أو على الأقل تسرب التهم الباطلة نحوها ونحو
أبنائها ، والناس سريعو التصديق لما اعتادوا رؤيته ، وكل يعيش على طبعه ؟
وهل التعامى عنها سيقنع جذورها ؟ إذاً لكان الواجب السكوت
عليها ، ولكن طم الكيل وعم السيل . هذا شيء موجود في بلدنا ،
وهو أصل كبير من أصول بليتنا فيما نشكو منه من أزمة الزواج ،
وهو الموضوع الذى عرضنا للكلام عنه ، وإن تطوحت بنا السبل ،
وتشعبت علينا المسالك ، فلقد كان من نتائج هذا فى المدن أمران :
(الأول) الزهد فى النساء اللاتى كن مجتذبات بسبب البعد فأصبحن
مبتذلات بسبب القرب .

ولقد قال القائل :

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان

ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

(والثانى) إساءة الظن بهن وقياس الغائب على الشاهد ، فظلمت
البريئات ولا يزلن يؤلفن الكثرة العظامى فى الأسر ولله الحمد ، ولكن
رب مستهتره جلبت سوء الظن على ألف مستترة ، فكان هذا السلاح

ذا حدين خطرين : أحدهما الاعراض عما سهل تناوله ، وثانيهما إساءة الظن بمن خفي أمره ، فأعرض الشباب عن الرغبة في الزواج ، والمس لنفسه من المعاذير ما إذا حاولت إرجاعه عنه كنت تضرب في حديد بارد . وإنا نرجو القارىء عند وصوله إلى هذه النقطة أن يسكت قليلا ، ويفكر فيما يحيط به من معارف وجيران ، ويستعرض ما يقع نظره عليه وما يسمعه من الأفواه ، ويستنبط من نفسه مدى هذا الموقف وخطورته ، ثم يستنجد بالحياة الإسلامية والغيرة الدينية والمصلحة القومية ، لعله يتوقف إلى طريق فيه إيقاف هذا السيل الجارف ، ولا أحد أصغر من أن يعين ، ولا أحد أكبر من أن يعان ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

السبب الثاني التغالى في المهور والتنافس في الجهاز :

هذا سبب له دخل في أزمة الزواج ، ولكن إلى حد ما ، فقد يكون الراغب في الزواج صادق النية في تكوين أسرة وتعمير بيت ، ويريد أن يعيش عيشة صالحة ، ويرى ألا سبيل إلى العيشة الصالحة إلا الزواج من زوجة صالحة ، فيدور بعينيه يمينا وشمالا يرتاد من يليق به مصاهرته من الأسر التي تناسبه ، فيجد نفسه بين أسرة كريمة ذات شرف وحسب ، وصيانة وأدب ؛ فيرغب في الاتصال بها ، ويعمد إليها يخطب مودتها ، فيجدها قد اعتدت بمرکزها ، واعتزت بحسبها وأدبها بين الأسر المستهتره ، وعفاها بين الفئات الخليعة ، وثررتها بين أقوام فقيرة ، وهكذا من المميزات الصحيحة المعتد بها ، والخطاب

يؤمن على ذلك ويغتبط به ، ولكن يروعه المفاجأة بتفدير الصداق
الذي فرض ثمناً لذلك كله ، وإذابه مما ينوء بالعصبة أولى القوة ، فبالك
بالفرد الناشئ وهو على أبواب الحياة العملية ؟ فإذا ما تبرم واستعظمه
قيل له : إنا سنستحضر كيت وكيت : الاثناث والرياش وما يتعلق به ،
فإذا قال : كل هذا لاحاجة لي به بل سيرهقني ويكلفني مالا طاقة لي به .
قيل له : وهل تنقص عن كريمة فلان وزوجة فلان ، أو عن عمته أو
أختها ؟ وهكذا فاما أن يقبل وهو مالا يستطيعه ، وإما أن ينصرف
بنية أن يتروى وهو ما يكون غالبا ، وقاما يكون له بعد ذلك عودة .
فإذا اتجهت نفسه الى من لا يغالى في المهر وجد من المنفرات في الآداب
والعوائد مالا يحتمل ، فإذا ما استشار أحد أصدقائه للخروج من هذا
المأزق وحل هذه العقدة ، كان أقرب جواب له : مالك وللزواج .
أما أنت عاقل ! ألم تر ألم تسمع ! ويأخذ يقص عليه من أنباء الزيجات
السيئة ما يحل عزيمته ويحول دفة اتجاهه ، وما يدريك فعله يقيض له
من قرناء السوء من يزين له أسوأ الأعمال ، فيرتكس في شر الأوحال ،
ثم تبقى المخطوبة منتظرة مترقبة ، فربما طال عليها الأمد ، فلا ندرى
أصبحت عانسا ترضى بالقليل ، أم تسمى بأئسة يائسة لاخليل ولا خليل !
هذا سبب من الأسباب يساعد في كثير من الأحوال على تفاقم
ذلك الشر ، وإن كان أصله من عدم التبصر لامن نية السوء ، وهو
وإن لم يصل الى ما قبله فله دخل لا يستهان به .

السبب الثالث :

إعنتات الزوجات أزواجهن في باهظ المطالب من ملابس غالية الثمن لا يقصد بها الا التبرج عند الخروج من المنازل ، ومن أدوات التجميل التي قلما يكون للزوج نصيب منها ، ومن طموح الى ارتياد دور الملاهي على مختلف أنواعها ، أو المتنزهاة العامة أو الخاصة . يضاف الى ذلك عند بعض الأقسام مصاريف حفلات استقبال أسبوعية أو شهرية بلا داع ولا مناسبة ، مما يرهق ويضيق الصدر ، فإذاماتهاون الرجل في أداء تلك المطالب الفارغة ، ثار بينهما نزاع ينغص الحياة ، ويقبض الصدر ، ويجعل المعيشة تعيسة متعبة .

يجرى هذا للرجل فيشكوه لصديقه ، وهذا ينقله عنه متفكها متعجبا ، فيزيد الحديث بمستملحات تترد على الألسنة حتى تعم دائرة الأصدقاء ، فتشوه الحياة الزوجية في نظر الجميع ، حتى يعد المقدم عليها مجازفا بهناءته وسعادته ، فتكون النتيجة تقوية فكرة الامتناع عن الزواج والحذر منه ، والخوف الشديد من الوقوع فيه .

السبب الرابع :

هو يقتصر على فئة يزعمون أنفسهم من المفكرين تفكيرا عميقا وبعيدا ، يرون أن الحياة قد كثرت مطالبها واشتد الزحام في نيلها ، فلا يأمن إذا ماتزوج أن يعقب أبناء وبنات يعرضهم ويعرضهن لهذا المعترك القاسي ، وليس لديه من التراث ما يكفي لتفريهم ، فيكون

بذلك قد قسا عليهم وزج بهم فيما لا قبل لهم به ، وكأنه يتمثل بقول
المعري متبرما بالحياة ومتاعبها :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

بل إنه شبهه بمن وجه إليه النهي في قوله تعالى : « ولا تقتلوا
أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . فأمثال هؤلاء قد
انعكست بصائرهم وعميت عليهم الطرق ، وظنوا أن دولاب
الزمان في أيدي العباد ، وأن تقديرهم وتدييرهم هو الذي يحول
اتجاه الفلك ويقدر الأرزاق والأعمار . فابئسما سولت لهم أنفسهم
وما أوقعتهم فيه عميتهم وجهالتهم ! فمثل هؤلاء لا يعتد بأفكارهم وإن
كانوا يزعمون أنهم فوق مستوى الناس في تفكيرهم . ومن محاسن
الاتفاق أن هؤلاء قائلون ، وعدواهم مأمونة ، وأفكارهم مقصورة
عليهم .

والذي يعيننا هو الأسباب الثلاثة الأولى ، فاعل شرحها وتبينها
يلفت أولى النظر السليم إلى تلافى ضررها واخلاص منه ، والله يتولى هدايتنا
إلى سواء السبيل . ولنرجع إلى تفسير الآية الكريمة :

من هذا يتجلى لك بأعظم وضوح تناسق هذه الآية الكريمة مع
ما سبق . يقول تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم » - النكاح : هو
عقد بين الزوجين يحمل به الاستمتاع بينهما . وهو حقيقة في العقد مجاز
في الوطء . وأصله بمعنى الضم ، يقال : نكح النعاس عينه إذا أغمضها .
والأيامى : جمع أيم ، فقيل أصله أيام على وزن فياعل كما هو قياس

جمع فيعمل ، فدخله القلب المسكاني ، أي قدمت الميم على الياء وفتحت
لتصير ألفا . وقيل وزنه فعلى من أول الأمر ، وهو جمع شاذ ولا قلب
فيه . والأيم : من لازوج له ذكر ا كان أو أنثى ، سبق له زواج أم لا ،
كان خلوه من الزواج بموت أو غيره . وقيل من فقد زوجته بموت أو طلاق ،
فلا يقال للبكر أيم . وقيل خاص بالأنثى . واستدل له بما روى : « الأيم
أحق بنفسها والبكر تستأذن » . والمعنى : زوجوا من لازوج له من
الأحرار والحرائر . « والصالحين من عبادكم وإمائكم » . والمراد بالصلاح
الصلاح الشرعي ، وهو القيام بحقوق الله الواجبة عليه : من امتثال
أوامره ، واجتناب منهياته . وإنما خص بالصالحين في الأرقاء وأطلق
في الأحرار لأن الصالح من الأرقاء هو الذي يستحق أن يطلب من
سيده تزويجه ، على ما فيه من تفويت بعض منافع السيد والتزام بعض
التفقات . وأما الأيامي من الأحرار فنفقاتهم على أنفسهم ، فالترغيب
في تزويجهم محمول على إطلاقه ، وكثيراً ما يحملهم الزواج على استقامة
السير وتعديل العوج .

والأمر هنا مطلق الطالب لا للوجوب ، إذ لم يقل أحد إنه يجب على
السيد أن يزوج عبده ، فلا وجوب في الثاني اتفاقاً ، فلو حمل الأول على
الوجوب لكان اللفظ الواحد مستعملاً في معنيين متغايرين دفعة
واحدة ، وهو مما لا يقول به الكثير من أئمة اللغة . وأيضاً فقد
استفاض في عصره صلى الله عليه وسلم ومن بعده وجود الأيامي بدون
نكير . نعم قد يجب فيما إذا تاقمت نفسه ، ووجد مؤونة النكاح ، وظن

الوقوع في الزنا لو لم يتزوج ، فهذا من الوجوب لعارض . أما إذا لم يتحقق هذه الصفات فقد يكون مندوبا ، كما إذا تآقت نفسه ووجد مشقة في زجر نفسه ووجد النفقة ؛ وقد يكون مكروها كمن خشي التفریط في بعض ما يجب عليه بالزواج ، أو تفويت غرض صحيح تعين عليه القيام به ، وقد يكون حراما كمن تحقق بالزواج ارتكاب محرم كسرقه نفقته أو تضييع زوجه ، أو نحو ذلك ؛ وقد يكون مباحا فيما إذا تعادلت المقتضيات والموانع ، أو فيمن يقدر على النفقة ولا يجد عنده توقاناله ، ولكنه قادر على القيام بحقوق الزوجة . أما العاجز فقد قيل بكرامة التزوج له ، لأنه قد يمسك الزوجة ولا يعفها فربما تعرضت للمعصية . وعلى الجملة فاستيفاء الأحكام الشرعية في هذا الباب ، وبيان أيهما أفضل : التزوج ، أو التخلي للعبادة ، موضعه كتب الفقه .

والأمر هنا موجه للأولياء والسادة بالنسبة للأرقاء ، أو موجه لجميع الأمة ، ويكون معنى الأمر بالأنكاح الأمر بالمعونة عليه ، والتمكين منه ، والتوسط فيه ، كأنه أمر للأمة بمجموعها أن تسهل طريق أمر الزواج في بنيتها . وهذا هو الأظهر .

قال تعالى : «إن يَكُونُوا فقراء يغنهم الله من فضله» — سد لباب التعلل في تعطيل النكاح ، ولا تكاد تجد معطلا للنكاح إلا وهو يتعلل بضيق ذات اليد كما فصل في السببين الثاني والثالث ، فرد عليهم هذا التعلل بأن الغنى والفقير بيد الله ، فلا خوف من التزوج ، فقد يكون الزواج مدعاة للغنى كما وعد جل شأنه . وإن فيما تجرى به العادة من حث الزوجة زوجها على السعي والعمل ،

ونفخها فيه روح الهمة والعزيمة ، وشعوره من ناحيته بأنه صار مكلفا
 بغيره ومسئولا عن راحة ومثونة من معه ، وأنه على وشك أن يكون
 له أولاد يتطلبون كفا كثيرة ، وما يملأ قلبه بعد التزوج من النخوة
 والحمية ، واستنكاف التضعضع والانزمام ، كل أولئك ينأى به عن
 الكسل والبطالة ؛ ويدفعه طوعا أو كرها لأن يغامر في سبيل الحياة
 ويكسح كإيكسح أمثاله ، وهو طريق عادي من طرق تحقيق الله وعده
 بالغنى لمن يتزوج . ولقد كان يتمس الغنى بالزواج ، ويلتمس المجد بالزواج ،
 وتلتمس الاستقامة بالزواج . ولقد يضيع الأيم من المال ومن فرص
 إحراز المال بسبب الانغماس في شهواته الدنيئة ما لو احتفظ به لكان
 من الموسرين .

وقوله تعالى : « والله واسع عليم » تقرير لهذا الوعد الكريم ؛ فسعة
 فضل الله لاتضيق برزق هذين بعد اجتماعهما وقد وسعتهما حال
 افتراقهما ، فلا تفاد لنعته ، ولا حد لقدرته . وإنما اختير الوصف
 « بعليم » دون كريم مثلا ، ليبين لنا أن ما يجريه جل شأنه على الزوجين
 من غنى أو فاقة إنما هو بحسب مشيئته وواسع حكمته ومقتضى علمه ،
 فهو مدبر الكائنات بعلمه ، ومنظما بمشيئته ، وسع كل شيء علما . فربما
 كان من مقتضى حكمته أن يبقيا على فاقتهما ، أو أن يشتد فقرهما ،
 فلا اعتراض على حكمه ، ولا تعرض لمشيئته ، ولا نقض لما أبرم ، ولا
 دفع لما حكم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .
 لا يقال : إن الغنى بالمشيئة للأيم والمتزوج ، فالذي أفادته هذه الآية : لا نأقول :

إذا ألتخش من الزواج فقرا ، ولا تبتعد عنه لهذا السبب ، فلا يصلح مانعا ، بل إذا جعلته سببا لسعة الرزق ، على ما فصلناه فذلك صحيح منك ، غاية الأمر أنك لا تغالى فى سببته وتجعل له وحده الكفيل بجلب الرزق ، فان ذلك منوط بعلمه تعالى وحكمته ، فاسلك سبيل العمل المتقن ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؛ ولا فرق بين عمل الدنيا وعمل الآخرة .

وإذا كان تسبب الغنى عن الزواج هو بهذه المثابة ، من أنه مظنة لمن سلك سبيله لأنه من الموصل جزما ، فلا تعارض بين الآية وبين قوله تعالى : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » فلكل حالة حكمها فى علم الله تعالى ومشيئته ، ويتبين أيضا حسن موقع قوله تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » فانها لدفع غرور من يتوهم أن هذا هو الباب المضمون الموعود به الوعد الجازم ، كلا ، فذلك إنما هو المظنة ، أو على الأقل إزاحة التعلل به فى طريق إيقاع الزواج لمن يجد أصل المكنة .

ومعنى وليستعفف : ليطلب العفة بالعمل على ما يحققها : من ضبط النفس ، وحفظ الجوارح والحواس عن الاسترسال فى طريق الشهوات ، ومنعها من الاشتغال بتذكر تلك اللذات ، وقد جاء « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أى من وجد ما يقدر به على تحصيل المستمتع فليتزوج فانه أحسن لدينه ، ومن عجز عن وجدان وسائله فليقطع عنه شواغل

الشهوة بالصوم ، فانه بتواليه مضعف لهذه الشهوة التي لا يثيرها إلا الامتلاء . ومعنى « لا يجدون نكاحا » لا يجدون وسائله الموصلة اليه ، فعبّر بعدم وجدانه وأراد عدم وجدان الوسائل الموصلة اليه .

وقوله تعالى : « حتى يغنيهم الله من فضله » في التعبير بقوله حتى يغنيهم شبه وعدلن كف عما يجب امتثالا لأمر ربه أن يمكنه الله من نياله متى صدقت نيته ، وذلك من فضله لمن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ومن الأمر بالاستعفاف هنا أخذ بعض الفقهاء أن الاشتغال بالعبادة لمن تاقت نفسه للزواج ولم يجد ما ينفقه ، أفضل . ورأى بعضهم أن الكد لتحصيل أقل ما يلزم للزواج أفضل . وليس هذا محل استيفائه .

هذا وليس من الاستعفاف المطلوب في الآية ما يفعله بعض الحلقى من استعمال أدوية تزيل عنهم هذه القوة ، فذلك غير جائز ، وقد تزول الأسباب الداعية اليه فيحاول عودة ما ذهب فلا يجد اليه سبيلا .

قال الله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » : تقدم في الآية السابقة الأمر بتزويج الأيماى الأحرار ، والصالحين من العباد والأماء ، وجاء في تلوها ما يفيد أن الله تكفل لهم بالغنى ، وشرحنا في وجه ذلك الأسباب العادية التي تصل بالمرء متى سلكها سلوكا صحيحا الى باب الغنى وسعة الرزق ، وهذا أمر خاص بالأحرار

جزما ، ومسدود في وجوه الأرقاء ، إذ العبد وما ملكت يدها لسيدته ؛ فهو مادام رقيقا لاسبيل له الى الغنى ، ولكن تلك الأسباب التي قدمناها : من حفز الهمة ، وإحياء الشعور ، وتقوية العزيمة ، واستنهاض المواهب الكامنة في النفس ، أمر لا يخص الأحرار وحدهم ، بل مثلهم في ذلك الأرقاء ، فالناس متساوون في أصل الخلقة ، وما كانت الظروف التي قضت على واحد أن يكون رقيقا لتغير من جبلته ولا أصل خلقتة ، فلماذا نعطل في العبد مواهب قد تكون ذات أثر محمود ؟

إن الشريعة التي جاءت لاصلاح شئون البشر عامة ما كانت لتهمل هذا القانون الالهي في خلقة البشر ، وما كانت لتزيل سنة الله في خلقه ، بل تؤيدها وتنميها ، ولكن هل معنى ذلك أن يجبر السيد على ترك حقه في رقبة العبد بلا مقابل لأنه زوجه ، فيكون قد جنى على نفسه بزواجه إياه ؟ كلا ، لاشيء من ذلك ، إنما هو العدل في المعاملة ، والفضل في المعاشرة ، والاحسان في العمل ، وبين العدل والفضل والاحسان لا يضيع حق ولا تهمل مواهب . فأيها السادة : ستجدون في بعض عبيدكم من تتوسمون فيهم الخير ، وترون أنفسهم تتحفز لأرقى مما هم فيه ، فينتفع بهم انتفاعا أوسع ، فيطلبون اليكم أن يشتروا أنفسهم منكم بمال تمكنونهم من جمعه ، فتطلقون أيديهم في الكسب مع امتلاك رقابهم — وأكثر ما يكون ذلك اذا شعر العبد بنوع سيادة . وذلك عند زوجه ، أو شعرت الأمة بنوع استقلال في الحياة عند زوجه ، ولعل هذا هو السر في الاثيان بالآية الكريمة المتعلقة بأمر الكتابة

بين هذه الآتى المتعلقة بأمر الأ بضاع - فاذا وجدتم فيهم ذلك وجاءكم مما ملكتم أيمانكم من يبتغى الكتاب منكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . والكتاب والمكاتبة : مصدر كاتبه اذا عقد يده وبين عبده ذلك العقد ، وهو أن يتعاقدا على أن يؤدي له مالا فيعتقه على هذا المال فقد ضمن للسيد عوضا عن ملك يده ، وهو ما يؤدي اليه ، ويفرض أنه باعه ، وضمن للعبد خالص رقبته من الرق متى جدى الا كتساب حتى حصل ما يطلب منه .

ولحرص الشارع الحكيم على تحرير الرقاب أمر أن يعطى المكاتب مالا يستعين به على أداء ما عليه ليحرر رقبته . والتعبير عنه بمال الله لتقرير الباعث على الامتثال ، أى فذلك مال الله ، وهو الذى رزقكم إياه ، وقد طلب منكم أن تؤثروا بعضا منه شكراً له على إيتائه إياكم كاه . وهل لو أنعمت على واحد بمائة وطلبت اليه أن يعطى فلانا منها عشرة ؛ يسعه أن يتأخر عنك ؟ هذا فى إعطائك وهو إعطاء مجازى ، فكيف بأمر من له النعمة والفضل ، وهو وحده المعطى الوهاب ؟

والآية لتقرير حكم المكاتبة كما علمت ، وقد اتفق على طلبها ، واختلف فى وجوبها إذا طلبها العبد وكان أهلا للوفاء فى نظر السيد . والأمر بالايتهاء فى قوله : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » قيل موجه للسادة ، فيجب على السيد أن يحط عن عبده شيئاً من المال المتفق عليه ، فقيل : الربع ، وقيل : العشر ، وقيل غير ذلك . وقيل موجه

لجماعة المسامين، أى عاونوا المكاتبين على تحصيل مال المكاتبه تحقيقاً لمراد الشارع من تحرير الرقاب، وقد فرض لهم نصيب في الصدقات في قوله تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب».

ومعنى «إن علمتم فيهم خيراً» أى أمانة وقدرة على أداء ما كاتبتموه عليه. وللفقهاء كلام في وجوبها حينئذ أو نديها، وفي وجوب تنجيمها أى تأجيلها على نجوم وأقساط، أو جواز تعجيلها، وفي وجوب حط شيء عنهم من مال الكتابة أو عدم وجوبه، وليس هنا محل استقصائه.

قال تعالى: «ولا تكرر هوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً»: هذا كلام عن حال كانت ذائعة في الجاهلية وحصلت في الاسلام، ولكن على يد من ادعى الاسلام وهو منه براء، ذلك عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين. وقيل حصلت من اثنين أحدهما هو. وتلك الحال كانت في نظرهم من فروع العلاقات بين السيد وما ملكت يمينه، وهى عائلة على أمر من شئون ملك اليمين مما يرجع الى التصرف في الأبخاع، وهى أشنع ما كانوا يعملون في هذا الباب. فلما قرر أمر تزويج الصالحين من العباد والأماء، وأتبعه بأمرهم بالافضال على الأرقاء بالعتق ولو في مقابلة المال إذا أنسوا منهم الخير، وذلك يكون غالباً عقب زواجهم، وإن كان الحكم فيه أعم، أردف ذلك بالزجر عن تلك العادة القبيحة المقنونة التي كانت موجودة في الجاهلية وتسربت

بعض تسرب إلى جماعة ممن انتسب إلى الاسلام ، فعبر في النهي عنها
بعبارة تبرزها في أشنع صورة وأقبحها ، وأبعدها عن الذوق الصحيح
والطبع السليم ، فقال : « ولا تسكرهوا فتياتكم على البغاء » . روى أن
عبد الله بن أبي - قيل : وآخر - كان له إماء يكرههن على البغاء
ابتغاء أخذ الأجر على عهرهن ، وابتغاء امتلاك من يلدنه من هذا
السفاح ، فلما نزل تحريم الزنا امتنعت إحداهن فضر بها فشكت
للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لأبي بكر ، فأبلغ شكواها للنبي
صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية . وروى أنه صلى الله عليه وسلم
أمر أبا بكر بقبضها اليه فقبضها ، فصاح ابن أبي : من يعذرنا
من محمد (صلى الله عليه وسلم) يغلبنا على مما ليكننا ! فنزلت الآية .
وترى في أسلوب الآية ضروبا من التشنيع على سوء فعالهم ،
فقد نهاهم عن الاكراه والاكراه أكبر شناعة من الاباحة لهم ومن
أمرهن ، وعبر عنهن بالفتيات وهن في هذه السن أميل للفجور ،
وأبعد عن تقدير محاسن الأمور ، وأضافهن اليهم ، وإن من
عنده أدنى ذرة من مروءة ونخوة لا يرضى أن يمس هذا الفحش
أحدا ممن يحويه بيته ، فكيف يأمر به أو يكره عليه ؟ والتعبير
بالبغاء الذي هو زنا النساء خاصة ، لمزيد الشناعة ، فلا يدعو
أحد امرأة تنتسب اليه لأن تزني بغيره الا اذا عدم حاسة الشرف
بالكلية .

وقوله : « إن أردن تحصنا » أ كبر وأعظم في التشنيع ، فاذا
 كنَّ هنَّ وهنَّ نساء ناقصات لا يقدرن الشرف والروعة والغيرة قدرها ،
 وفي سن الشباب حيث تشتعل الشهوة ويهيمن الطيش على الجوارح ،
 قد أردن التحصن ، فكيف بكم وأنتم رجال تزعمون أن لكم مجدا
 وكرامة ، تكونون أنقص منهن ، وليس بعائد عليكم شيء مما
 يشعرون به من لذة ضحينها وأعرضن عنها ! وفي التعبير عن رغبتهم
 بالارادة التي هي الميل المصمم الجازم مزيد تنويه بمسلكهم . ثم
 في كلمة التحصن مغزى دقيق ، وهو إبرازهن بصورة من يجعلنكم
 حصنهن يدرأن بهن عن نفسهن العوادي ، فهل يكون حصنهن هو الذي
 يجنى عليهن ويسامهن لما يكرهنه ! وهو استفزاز للنخوة والحمية
 لا تجده في التعبير بدلها بكلمة « تعففا » مثلا . ثم قوله بعد ذلك :
 « لتبتغوا عرض الحياة » كشف للقناع عن غايتهم من التدهور في هذه
 المخازي ، وذلك أخس غاية وأحقر غرض . وهل يبلغ امرؤ بالقدح
 في آخر أكثر من أن يقول عنه : إنه قواد ليأخذ دربهات ؟ ففي
 التنصيص على غرضه من تلك السوأي أكبر تقبيح وأفظع تعبير
 وإذا قد علمت أن الآية مسوقة للنعي عليهم ، وتقبيح فعلتهم ،
 والمبالغة في تفضيح مسلكهم ، وتصويرهم بأشنع الصورة ، علمت
 فساد مايتوهم من أن الآية خصت النهي عن الاكراه بحالة ماإذا
 أردن تحصنا ، فلو كان مفهوم المخالفة معمولا به لاقتضت قصر النهي
 على هذه الحال ، وذلك لأن من يقول بمفهوم المخالفة يخصصه بما إذا لم يكن

للقيد المذكور فائدة إلا إخراج الصورة التي فقد فيها القيد عن الحكم ،
أما إذا كان للقيد فائدة كما هنا وهي مزيد التشنيع على عملهم ، فلا يعمل
بمفهوم المخالفة .

ومعنى مفهوم المخالفة أن يأتي المتكلم بحكم يقيده بحالة ، فيكون
من ليس فيه هذه الحالة خارجا عن الحكم ، كما إذا أعطيت مالا
لأحد ليتصدق به على الفقراء ، وقلت له على المرضى منهم ؛ فليس له أن
يعطى فقيرا سليما . وللمسألة مزيد بسط في كتب الأصول .

ومحصل معنى الآية : أيها السادة الرجال ، المالكون لرقاب
العبيد والأماء : كيف قبلت نفوسكم أن تقبلوا ذلك العار الكبير
والدنس العظيم على من تحويه بيوتكم ويخالط نساءكم ، ولا تنفروا
منه ، مع نفرة أولئك الضعاف الأذلاء المحقورين منه ، على صغر
نفوسهن وصغر سنهن ؟ ! ثم هل تقبلون هذه المخازي من أجل عرض
الحياة الدنيا والعرض ظل زائل ومتاع ذاهب ! بل هذه الحياة دنیا
بالقياس الى الحياة الحقيقية العليا ، وإن الدار الآخرة هي الحيوان .

« ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » فالو بال
بعدهذا الا كراهه قد حاق بالمكروهين ، وسلم من شره أولئك المكروهات ،
فقد باءوا بأثمهن ونجوس من سوء فعلهن ، فالتقدير : غفور رحيم لهن لاهم .
ولما كان هذا المقدر ظاهرا واضحا ، وهو « لهن لاهم » استغنى عن
ذكر الضمير العائد من جملة الجزاء ، وهي جملة « فإن الله من بعد
إكراههن غفور رحيم » على اسم الشرط وهو من في قوله : « ومن

يكرههن» . ويرى بعضهم أن هذا ليس جواب الشرط ، بل الجواب محذوف والمذكور علة له دالة عليه ، والتقدير : ومن يكرههن فقد بآء وحده بأثمهن ونجونهن من العذاب ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم . وقيل للجميع بعد التوبة ، وهو بعيد عن نسق الآية .

وتعليق المغفرة والرحمة بالإكراه في قوله : « من بعد إكراههن » حيث لم يكتف بقوله : « ومن يكرههن » لدعوة أولئك الفتيات إلى التمسك بما أوردن ، وألا يقعن فيما أكرهن عليه إلا كراهات ، وذلك أنهن عرضة للميل أثناء هذا الفجور إلى مطاوعة الرغبة البشرية ، وربما خرجن بذلك الميل عن أن يكن مكرهات ، فلا يملن المغفرة والرحمة .

هذا والأكراه في الزنا متصور في المرأة قطعاً ، وأما في الرجل فقد قالوا لا يتصور وقوع الزنا من الرجل إلا عن اتجاه رغبة ، والأكراه لا يحرك من نفسه تلك الداعية التي يقوى بها على الزنا .

قال تعالى : « ولقد أنزلنا اليك آيات مبینات ومثلان للذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » :

أى والله لقد أنزل الله إلينا آيات مبینات ! والآية هي العلامة ، فكل آية نزلت فهي ناطقة بأنها تنزيل من حكيم حميد ، شاهدة بصدق من بلغها وهو الرسول الكريم ، متضمنة من المنافع والإرشاد ما يدعو سامعها إلى أخذها بقلب سليم ، فهي آيات ، دالة على صدق مبلغها وهي بيّنة واضحة ، وهي مبيّنة للمصالح والأحكام . فلفظ مبینات إما مأخوذ من بين اللّازم بمعنى تبين ، كقولهم : قد بين الصبح لذي عينين ،

وإمامن بين المتعدى لأنها بينت لنا الحدود والأحكام ، وأثارت لنا طريق
السعادة في الحياتين ، وهدتنا الى ما لو اتبعناه حق اتباعه لعشنا في أسرنا
وفي جيراننا ومعاشرينا وأمتنا أهنأ معيشة ، وحيننا أهدأ حياة ، فلقد
بينت الآيات السابقة أحكام الحياة البيئية ، والعشرة بين الناس وحدودها
على أكمل وجه وأجمله .

وقوله : « ومثلا من الذين خلوا من قبلكم » - المثل القصة العجيبة
التي تماثل غيرها ، وذلك متجل في آيات الأفك السابقة ، فلها تماثل
ماحصل ليوسف عليه السلام إذ رمته امرأة العزيز بتلك الخيانة
الشنيعية ، فبرأه الله ، وكان فضل لله عليه عظيما ، فقد رمته بأنه خان
من اشتراه ومن هو في بيته ، ودعوى النساء في مثل هذا يكاد يصدقها
الناس بمجرد ادعائها ، لا يطلبون عليها بينة ولا شهودا . وكذلك تماثل
ماحصل لمريم عليها السلام حين جاءت به قومها تحملا ، فقالوا ما قالوا ،
ورموها بالأفك حتى برأها الله تعالى وكانت من القاتنين .

وقوله : « وموعظة للمتقين » هي ما تجل في تضاعيف تلك
الأحكام من الحكم البالغة والآداب الجمة . أجل : لقد من الله علينا
بهذه الآيات والأمثال والمواعظ ، وذكرها امتنانا لبيين مقدار النعمة
فيها ، وأكد ذلك بالقسم في قوله : « ولقد » فاللام لام القسم ، كل
ذلك لتعرف قدر نعمته ، فنقوم له بحق شكرها . نسأله تعالت
قدرته أن يوفقنا لواجب الشكر ، فالأمر منه واليه ، وهو نعم المولى
ونعم النصير .

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح
 المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة
 مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه
 نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله
 بكل شيء عليم) :

إن من يقرأ الآيات السابقة ويتأمل مافيها من المواعظ البالغة ،
 ويستجلى ماتضمنته من حكم صادقة ، ويكرر النظر فيما احتوته من
 مصالح عظمى وإرشادات نافعة ، ويرى مساس ذلك بحياة
 الأسرة التي هي أول مراتب الاجتماع وأساس درجات الارتباط ،
 سيجد نفسه وقد انطلق لسانه ممتلئ القلب باليقين : « الله نور
 السموات والأرض »

أجل : فلقد شرع لنا في تلك الآي المتقدمة من الأحكام
 الرشيدة والحكم البالغة ما لو استضأنا بمصباحه في سبيل حياتنا البيتية
 لسلكنا أقوم سبيل ، وحيينا حياة هي المنسل الأعلى في راحة
 النفوس وطمأنينة القلوب . شرع لنا هذه الأحكام على يد رسول منا ،
 نشأ حيث نشأ قومه ، تحيط به وبهم عادات منكرة ، وتتحكم فيهم
 مألوفات شنيعة من شأنها أن تحول بين النفوس وتلمس الطرق النيرة ؛
 فانبتاق هذا النور الصافي من نفس واحد منهم دليل بنفسه على أن
 مصدره هو القوى الأعظم ، المهيمن على كل مافي الوجود علوى وسفلى .

هذا لإرشاد العظيم إنما هو صنع الآله الحكيم العليم ، فهو نور يصح أن يقول فيه من أشرق على قلبه بعد تلك الظلمات المستحكمة : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، فمن ذا الذى يهدى لهذا النور إلا الله ؟

ترى بهذا مواقع الحسن فى اتصال هذه الآية الكريمة بمجموع الآيات السابقة ، وبخاصة بعد أن أردفت تلك الآية بما يرجع النظر إليها من قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » فإنها من شأنها أن تدعو إلى استحضارها جملة ، وتمثل ما احتوت عليه من فوائد وإرشادات وأحكام وحكم ، فتتجلى أنوارها دفعة واحدة ، وتظهر منافعها جملة ، فتنتطق الألسنة بالحمد ، وتهز القلوب والجوارح بالشكر ، وتحمل على الاعتراف بأن هذا النور والهدى إن هو إلا نور إلهى مصدره هو من بسط النور العام فى أرجاء السموات والأرض .

والنور هو هذه الظاهرة الفائضة على الكون التى يكون بها الابصار والاهتداء والادراك ، وكما تطلق على هذا النور الحسى الذى هو واسطة الادراك بالبصر ، قد تطلق على النور المعنوى الذى هو الادراك بالبصيرة ؛ كمظاهر الاتقان والاحكام الشاهدة بعظيم اقتدار الصانع . وكذا تطلق على القوة التى فى العين التى فى القلب ، كما يقال : ازداد نور عينيه أو نقص نور عينيه ، وكما يقال : فلان بصيرته نيرة ، وهو نير العقل ونور عقله صاف ، وهلم جرا ، وعلى العموم قد

تعرف فيما به الاهتداء والأدراك وإن كان أصله اسما للنور الحسى .
ولعلك ترى أن الاهتداء الذى سببه النور هو الأصل الأصيل فى تصحيح
كل عمل من الأعمال وإيتائه ثمره ، وكل عمل على غير هدى ولا نور
فلا صحة له ولا ثمرة ولا اعتداد به ، حتى لو فرض أن عملا عمله صاحبه
جزافا على غير بصيرة منه فاتفق أن ترتب عليه ثمرة لم تكن له على
بال ، ما زاد ذلك من قيمة العمل ولا شرف صاحبه ، بل كانت تلك الثمرة
من باب ما يخلقه الله بلا واسطة من ناحية العبد ولا مدخلية له . وإذ كان
النور والهدى أصل الاعتداد بالأعمال كلها جليلها وحقيرها ومنشأ إيتائها
ثمرها ، وجب أن يجعل فى الصف الأول فى كل باب من أبواب الحياة
وكل أثر من آثارها ، وما عداه تابع له فى النتيجة والاعتداد . من أجل
هذا اتسع الاستعمال فى لفظ النور وأطلق على كثير من المعانى التى
تعتبر أساسا لغيرها فى الثمرات وإيتاء النتيجة ، فيقال : فلان نور البلد ،
إذا كان مدبر نظامها ومرتب شئونها على وجه تام ، ويقال للنظام نفسه
والتدبير المحكم : نور ، فتقول : قد بنى هذا العمل على نور ، وهذا
الأمر يتجلى نوره واضحا ، وذاك الأمر لا نور فيه ، تشير بذلك إلى
ما حوى من نظام وإحكام .

وعلى هذا تجد التعبير فى الآية الكريمة « الله نور السموات
والأرض » من التعبير المستفيض فى مجازى العقول ، ولا يمكن أن يفهم منه
أن الله هو النور الحسى الذى هو واسطة الابصار ، بل إما أن يكون معناه مدبر
السموات والأرض على هذا النظام والاحكام ، والمفيض عليهما من كمال

الصنعة وإتقانها مابه يصح أن يقال عنه إنه نورها على نسق تمثيلنا السابق «فلان نور البلد» كما شرحناه ، وإما أن يكون نور بمعنى منور أو ذو نور ، كما يقال : فلان كرم وجود ، وكما قال القائل : «وأنت لها نور وغيث وعصمة» . والاختبار عن الشيء بمصدر الصفة كثير مبالغته في اتصافه بها كأنه صار إياها . ويستأنس لهذا بقراءة : «الله نور السموات والأرض» بصيغة الفعل الماضي . ومعنى تنويره لهما إما إفاضة النور الحسى عليهما ، وإما إتقان صنعتهما وإكمال نظامهما حتى صار إيشهدان شهادة نيرة لا لبس فيها ولا غموض أن مبدعهما كامل القدرة والعلم والحكمة . وإما نور السموات باللائكة ونور الأرض بالأنبياء والشرائع . وإذ لا تضاد بين هذه المعاني فالأكمل أن يكون المراد بالنور ما يشمل هذه الأمور كلها ، فقد أنار السموات والأرض بالنور الحسى ، وبث نبيها من كمال النظام ما يجعلها منيرة السبيل لمن تفكر فيها ، وأكمل ذلك بالنفوس العالية وما آتاها من شرائع وهداية ، وخص السموات والأرض لأنهما هما المخلوقان العظيمان اللذان يملآن قلوب المخاطبين روعة وجلالا ، وتناهما مداركهم حسا ومعنى ، وإلا فهو نور لجميع العالم مما رأينا ومما لم نر .

هذا وقد حاول الامام الغزالي رحمه الله أن يحمل النور في الآية الكريمة على حقيقته فقال ماملخصه باختصار : إن النور اسم لما يكون ظاهرا بنفسه مظهرا لغيره ، وتقابله الظلمة ، فهي الأمر الخفى الخفى ، وأحق الأشياء بالظهور الوجود ، وأحق الأشياء بالخفاء العدم ، فكلما كان الأمر أكمل وجودا كان أظهر وأجلى ، والممكنات

إذا نظرت إليها في ذاتها لا تجد لها وجودا الا ما تستمده من المبدع
 الأعظم ، فهو صاحب الوجود الذاتي وماعداه عدم لولاه ، فأحق المعاني
 بأن يسمى نورا هو أَدْخُلُهَا فِي الْوُجُودِ ، وذلك هو الموجود لذاته ، فهو
 نور الأنوار جميعها ، ومظاهر الكائنات كلها ، ولولاه لكانت مطموسة
 في ظلمات العدم ، فهو النور على الاطلاق

وإنك لتأمح فيه المسلك الصوفي أكثر مما ترى فيه التفسير
 اللغوي العربي ، إلا إن أرجعته إلى معني مفيض الوجود والنظام
 والاتقان وباسط النور في أرجائهما ، فحينئذ يرجع إلى ما قدمناه .

واخلاصة أن النور هنا لا يصح أن يراد به تلك الظاهرة المحسوسة
 التي هي واسطة الابصار ، فالمراد بالنور إما الهداية ، والمعنى أنه
 صاحب النور والهداية : هدى أهل السموات والأرض بما أودع
 في نفوسهم من قوة ، وبما نصب لهم من أدلة . وإما بمعنى التدبير
 وإجراء سننهما في شؤونهما على مقتضى الحكمة ، وإما بمعنى إبداعهما
 في خلقهما على أكل صفة ؛ وإما بمعنى منيرهما بالكواكب نورا
 حسيا ، وبالشرائع نورا معنويا ، أو منير السموات بالملائكة والأرض
 بالأنبياء . وبكل معنى من هذه قال فريق . ولك أن تجمع المعاني كلها
 في كلمة نور كما سبق ، فهو المدبر لما يجري فيهما ، وهو المبدع لخلقهما ،
 وهو باث النور الحسي والمعنوي في أرجائهما ، وهو منزل الشرائع ،
 وبعث الملائكة بوحيه ، وهاديهم لعبادته . جل شأنه . وتبارك اسمه
 ولا إله غيره !

وبعد : فهذا انتقال من تقرير الأحكام الفرعية التشريعية إلى تقرير حكم الايمان بالله ودينه ، وبيان شأن الدين في ظهوره واستنارته ووضوحه ، وسيأتي إردافه بصفة الأديان الباطلة وأنها خيال لا قرار له ولا حقيقة ، في قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » . وهذا الأسلوب العجيب مما يكاد يكون مختصا بالذكر الحكيم ، فان بيان الفروع على وجه يحل في النفس خير محل ويتمكن منها فضل تمكن ، مما يصح أن يعتبر نبراسا يهتدى به الى أن مصدر هذه الإرشادات لا يكون الا الحق المبين . والتمهيد له بقوله : « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبيّنات » مما يهيء العقول لقبوله والاعتراف به ، مع أن المعتاد أن يؤخذ صحة الأصل دبلا على صحة الفروع ، ولكنه التنويع في الهداية الربانية ، كأنه يقال لك : إن كل المسالك أمامك نيرة ، فاذا نظرت إلى فروع الأحكام وما فيها من صحة وسداد وفائدة ورشاد ، عرفت أنها لم تنبت الا من شجرة طيبة ، فطيب الثمر دليل على طيب الشجر . واذا نظرت الى أصل الايمان وما قام عليه من متين البرهان ، علمت أن الأحكام المتفرعة عن هذا الأصل الصحيح لا تكون الا خيرا عظيما ونفعا عميما .

« مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية :»

المثل معناه الصفة ، ولا يكاد يستعمل المثل في الصفة الا حين
 لإرادة التنويه بشأنها وتفخيم أمرها . ولذا يقولون : المثل الصفة
 العجيبة ، كأنهم أبرزوها في ثوب ما يتمثل ويتخذ مثلا يضرب لغيره ،
 ومنه قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء
 غير آسن » . ويصح أن يلاحظ فيه معنى التمثيل والتصوير ، كأنه
 يقال : إن تصوير نوره بمثال مجلوه لك وتمثله به هو كمشكاة فيها
 مصباح ، الخ .

والنور هنا هو الهداية التي بسطها للعالمين من أدلة عقلية وسمعية ،
 وأحكام صحيحة وإرشادات نافعة . والمشكاة : السكوة غير النافذة .
 والمصباح : السراج الضخم الثاقب . كأن أصل أخذه من الصبح لما
 فيه من الضوء . والزجاجة : القنديل الشفاف الصافي . والكواكب :
 الأجرام السماوية المضيئة . والدرى : قرىء بالضم والتشديد نسبة الى
 الدر لصفائه وتلألؤه وقرىء بالكسر والهمز على وزن سكين ، من
 الدرء بمعنى الدفع ، كأن نوره يدفع بعضه بعضا لشدة لمعانه وتألّق
 نوره . والمباركة : النامية . والزيتون : معروف . ومعنى لا شرقية ولا
 غربية أنها ليست شرقي شيء كجبل أوحاطط يحجب عنها ضوء الشمس
 آخر النهار ، ولا غربي شيء كذلك يحجب عنها شمس أول النهار ، فهي
 صاحبة لضوء الشمس ومرور الأهواء ، وذلك أكمل لنضجها وأطيب
 لثمرها ، فإن الشجر المحجوب عن الشمس والهواء يكون ضعيفا عاده
 وقد ترى مافي هذا التصوير من إبراز النور على أكمل وجه وأشدّه

أثر في النفس ، فقد جعل النور نور مصباح ، وذلك أشد أثر في النفس وتمثلا لمعنى النور وتقديره له من كل أنواع النور ، ذلك أن نور الشمس وإن كان أقوى الأنوار المعروفة المألوفة إلا أنه لعموم بسطه على الأرجاء لا تجد له في النفس من تمثل معنى النور ما تجده للمصباح يوقد في وسط الظلام فيبيده في مقره مع بقاء الظلام في غير هذا المكان يذكر بمعنى النور ويشيد بشأنه . وإنك لتجد لنور المصباح في الظلام من التمثل أمام العين وانجذاب البصر إليه ما لا تجد في الضوء العام الشامل ، فانه بشموله يصير كأنه أمر طبيعي مفروع منه لا يحرك من النفس ما يحركه النور الخارق للظلمات . وإن شئت أوضح من هذا فاعتبر بلمعان البرق في وسط دجى الظلمات كم يكون لمفاجأته من روعة وتمثيل لا تحسه النفس في ضوء الشمس وهو أشد منه . والسر أن وجوده في وسط الظلام الشامل يرفع من قيمته باعتباره نورا ويجعل له في النفس قيمة كبرى . ومن جهة أخرى فانه أشد انطباقا على نور الهدى وسط ظلمات الشك التي تحيط بنفوس الكثير من الناس . وأما ذكر المشكاة فلأنه كلما كانت الأشعة منعكسة عن قرب كان ضوءها أشد ، وكأن جوانب المشكاة تعكس الأشعة بعضها على بعض عكسا متكررا فيزيد في مضاعفة النور (١) . وكذلك جعل السراج في زجاجة مما يزيد لمعانه وصفاءه ، وكيف وقد وصفت الزجاجة بما يدل على مزيد صفائها وقوة تألقها في ذاتها ، وذلك أنها كالكوكب

(١) ومن هنا ترى الصانع يحيطون المصباح المعلق بما يجمع أشعته ويوجهها الى جهة واحدة ليكون أقوى لضوئها

المتلألئ الذى ينسب الى أصنى ماعهدوا وهو الدر واللؤلؤ ، أو الكوكب المتألق الذى يتموج شعاعه فيدفع بعض نوره بعضا . وبعد أن استوفى تصويره باعتبار ما يحيط به أخذ فى صفة مادته التى تغذيه ، وكان أعظم ما يعرفون من مادة الاستصباح الزيت ، وأجوده زيت الزيتون ، فوصف الشجرة بالنمو والبركة ، وأن منبتها يساعده على ذلك إذ لم يحجبها حاجب عن شمس أو هواء ، ثم عاد الى وصف الزيت بأنه قد صنئ حتى كاد يضىء بدون مس النار .

تأمل فى هذا التصوير تجد نفسك أمام نور قد استجمع كل مظاهر النور ، وتجلي فى وسط ظلمة زادت بهاء وظهورا ، فإن شأن المصباح ألا يشعل عادة إلا فى الظلام ، وبضدها تتميز الأشياء . ثم انظر الى سلاسة التعبير ورقته وسهولة التصوير تجد أنك قد تجلى أمامك نور على نور . وهذا شأن هداية الله لعباده ، فانك من أى النواحي أتيتها ، وجدت نورها ظاهرا ، وضوءها باهرا ، فلا يسعك إلا أن ينطلق لسانك بالحمد لله والشكر للمنعم .

والموصوف بأنه نور على نور هو نور الهداية الممثل بذلك النور الحسى . فانه هو ماسيق الكلام لبيان صفته . والمراد بقوله : نور على نور ، أنه نور متضاعف يزداد كلما نظرت فيه وتأملتة ، وليس المراد أنه نوران ، بل المراد المضاعفة السائرة مرارا وتكرارا ، فما أشبهه بقول القائل :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

وكان هذه الجملة خلاصة للوصف والتصوير السابق :
 هذا وإذ عرفت أن هذا من باب التمثيل الذى هو تشبيه هيئة مركبة
 بأخرى كذلك ، بدون التفات الى الأجزاء التى حصل منها التركيب ،
 عرفت أن لاداعى الى ما يسلكه بعضهم من التفصيل فى التشبيه ، كأن
 يقال : شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقلبه بالمصباح ، والمعارف التى تغدق
 عليه بالزيت ، وهكذا . فان هذا إنما يكون فى التشبيه المفرد لافى التمثيل
 الذى يراعى فيه الهيئة المركبة .

« يهدى الله لنوره من يشاء » :

بعد أن صور النور الالهى والهدى الدينى بهذه الصورة الآخذة
 بالأبصار التى لا يجهلها من عنده أقل ذرة من إدراك وبصيرة ؛ كان هنا
 محل سؤال واستشراف البتة : اذا كان النور الالهى فى أمر الايمان
 والدين بهذه المتابعة من الظهور والوضوح ، فما بالنارى الكثير من الناس
 قد ضل سواء السبيل ولم يهتد الى هذا النور الباهر ؟ فكان الجواب
 تقرير هذه الحقيقة الساطعة ، وهى أن المرجع النهائى إنما هو مشيئة
 الله وإرادته ، فمن يضل الله فماله من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل ،
 فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضلّه
 يجعل صدره ضيقاً حرجاً كما تماماً يصعد فى السماء . فعماية بعض الناس
 حتى لم يبصروا هذا النور البالغ الغاية فى الظهور لم يكن منشؤ هانقفا
 فى نفس النور ، وإنما هو نقص فى المدارك واعوجاج فى الفطر وطمس
 فى البصيرة ، وهو غير ناقص من وضوح النور شيئاً .

ماض شمس الضحى فى الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذابصر

قل إن الهدى هدى الله ، والأمر كله لله . وليس هذا بمقتلع للاختيار الذى منحه الله للإنسان ، فإن الكافر ما كفر قهراً عنه ، ولكنه اختار الكفر على الإيمان ؛ والمؤمن ما آمن مكرها ، وإنما اتجهت نفسه إلى اختيار الإيمان ؛ فكل يعمل باختياره ، وذلك تنفيذ لأرادة سابقة أزلية لا تعلم للناس ولا يشعرون بها ولا يبنون أعمالهم عليها ، ولكن بعد حصول الشيء نعلم بالبرهان أن هذا الذى حصل فى الكون ما كان مجهولاً للمكون ، ولا كان قهراً عن المدبر ، فلا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، ومن ضمن ما يشاء أن يقع إيمان هذا المؤمن عن إرادة ورغبة منه ، ويقع كفر هذا الكافر عن إرادة ورغبة منه ، وكلٌ ميسر لما خلق له .

« ويضرب الله الأمثال للناس » : يبصرهم بما خفى عليهم باظهاره فى صورة ما عرفوا وما عهدوا ، حتى يتبين لهم الأمر جلياً ، ويتحقق المعقول بالمحسوس ، فلا يبقى شئ من الدين خفياً ؛ لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

« والله بكل شئ عليم » من معقول ومحسوس ، من ظاهر وخفى ، من نفوس يليق بها الكرامة فيهدىها الى الإيمان ، ونفوس علم فيها غير ذلك نخفصها بما شاء ، فهو أعلم حيث يضع هدايته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو العليم بطرق الهداية وأفانيتها المختلفة ، فيخاطب المكلفين بما ينفعهم منها ويفيدهم ، ويحذرهم مما يهلكهم أو يضرهم ،

فن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجراً عظيماً .

اتقسام الناس في
الاستفادة من
النور الالهي

(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب) :

لله ما أبدع وما أروع ! لقد تسلسل النظم الكريم على أقوى ارتباط وأمتن إحكام ، فتراه على تنوع فوائده وتعلقها بشئون شتى من فنون الهداية ، قد ارتبطت أجزاءه بعضها ببعض ، حتى لتكاد تراها كونت هيكلًا مويًا قد أخذ أعضاؤه بعضها بسبب من بعض ، فقد بنيت السورة على إفادتنا الأحكام التي نحيا باتباعها حياة سعيدة سواء في حياة الأسرة المنزلية أو حياة العشرة والمخالطة المدنية واتصال الناس بعضهم ببعض اتصالًا طاهرًا صافيًا غير منعص ولا مبغض ، وأعطانا التعليم الالهي من ذلك ما إذا تأملناه علمنا يقينًا أن مصدره لا يكون إلا النور الالهي ، وأن هذا الهدى الكامل ناطق بمنشئه شاهد على مبعثه ، فكان حقا أن تردف تلك الأحكام بما ينوه بعظيم قدرها ويوجه النظر إلى استجلاء محاسنها واغتنام فوائدها ، وذلك قوله :

« ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » حتى إذا أخذت النفس حظها من استجلاء تلك الأنوار وشملها ضوءها وكانت جديرة بأن تتعرف مصدر ذلك النور الأعظم فتطلت إليه ، أوردت بتلك الآية التي ترشدها إلى ما تبغيه ، وتبين لها مصدر هذه النعمة الكبرى لتزداد النفس لها إكباراً وإجلالاً ، ولتمثل تعاليمها امتثالاً ، فقال جل شأنه : « الله نور السموات والأرض » . ومثل لنوره المعنوي بأقوى ما يعرف إذ ذاك من مظاهر النور الحسى ، فجعل ذلك النور في منزلة أقوى الأنوار التي تجذب الأبصار ، ثم أوردتها بما يفيد أن النور وقوته والضوء وسطوعه والأمر وظهوره لا يغنى عن المرء شيئاً إلا أن يشاء الله ، فالنور متحقق للجميع ولكن الاهتداء لا يكون إلا لمن شاء الله ، فقال جل من قائل : « يهدي الله لنوره من يشاء » فهو الفعال لما يشاء « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » والله بكل شيء عليم ، وهو العليم الحكيم ، فيضع الأمور في نصابها ، ويزنها بمقتضى حكمته ، وهو أعلم حيث تكون الهداية سالحة ، وأعلم حيث تكون النفس التي لا يليق بها إلا الغواية والضلال . نظام وحكمة ، هو العليم بحسن مواقعها ، وهو السيد المالك ، لا يسأل عما يفعل .

وعلى حسب كمال ملكه وإطلاق تصرفه في خلقه انقسم الناس إلى قسمين : فمنهم كافر ، ومنهم مؤمن ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة .

وبهذا يتبين حسن الموقع وجمال الارتباط وجمال الأسلوب في هذه الآيات
التالية ، وهي قوله : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » إلى آخر
الآية ، ثم قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » إلى آخر الآية .
فالآيتان لبيان ما ترتب على ما ذكر من كمال الهداية وإطلاق
المشيئة ، فهما منهما كالنتيجة من المقدمات .

من هذا تعرف أن الجار والمجرور في قوله : « في بيوت » متعلق
بقوله « يسبح » الآتية ؛ وإعادة ذلك بقوله « فيها » لا يمنع منه ، فهي
للتوكيد كقوله تعالى : « ففي رحمة الله هم فيها خالدون » . ويصح أن يتعلق
بمحذوف يؤخذ مما بعده ، أي سبحوا في بيوت والجملة استئناف يشرح
هو وما بعده مقتضى المشيئة التي في قوله تعالى : « يهدي الله لنوره من يشاء » .
وذكر بعض المفسرين أنه متعلق بقوله « يوقد » السابق ، أو صفة
لقوله « كشكاة » معللين بأن المشكاة التي في بيوت بهذه الصفة تكون
عادة أضواً وأضخم ، أو بأنها في تلك البيوت ضمت انشراح النفوس
بطهارة تلك الأمكنة إلى ما حوت من نور حسي ، وأمثال ذلك ، ولكننا
نراه بعيداً ، فقد انتهى المثل المضروب للنور وتم عند قوله « نور على
نور » ثم أردف بما ينشأ عنه ويترتب عليه ، وأخذ الكلام شأننا آخر ،
وهو بيان حال الناس في هذا الشأن بعد ما بين حال الهداية وإطلاق المشيئة ،
فتعليق قوله « في بيوت » بهذا يدعو إلى تفكيك النظم الكريم ،
ولو وقع مثل هذا في كلام الناس لعد مفككا ، فكيف وهو في أبلغ
كلام وأحكمه ١٩

والبيوت التي أذن الله أن ترفع هي المساجد وما يلتحق بها من دور العلم والذكر ، وكل ما ينبه القلوب الى عظمة الله تعالى . والأذن أصله الأباحة في مواضع يظن فيها المنع ، والمراد هنا الأمر ، وإنما عبر عنه بالأذن لتصوير الأمور به بصورة أن الأمور اتجه اليه ، وتطلعت نفسه نحوه ، مترقبا التصريح له به والأذن فيه . ومعنى ذلك أن رفعة البيوت وذكر الله فيها من حقه أن تتشوف اليه النفوس وتتطلع ، فإذا جاء الأمر فكأنما هو إذن منتظر .

ومعنى « ترفع » تعظيم ويعلى قدرها ، وذلك بصونها عن الامتهان واللغظ ، وتجنبها الى بيان ومن في حكمهم ممن لا يميز ولا يضبط أمره ، واجتناب الجنب ومن في معناه دخولها ، وعدم تنجيسها أو تلويثها بمستقذر ولو طاهراً ، وعدم اللغظ فيها أو اتخاذها محلاً للهو ولو مباحاً ، أو غشيانها بثياب ذات رائحة كريهة يتأذى بها من فيها ، وأمثال ذلك مما ذكر في كتب الفقه مما حُكِّمَ بعضه الكراهة وحكم بعضه التحريم . ومن رفعها صونها عن التصاوير وما يشغل العابد عن عبادته . ومن رفعها إضاءتها وفرشها بما يجب في التردد اليها والمكث فيها .

وقوله تعالى : « ويذكر فيها اسمه » — المراد ما يعم جميع أنواع الذكر : من الصلاة ، وقراءة القرآن ، والوعظ ، والارشاد ، والتعليم الذي يعود على المتعلم بتمجيد ربه وإدراك آثار رحمته في خلقه ، فكل ذلك مما يجعل الألسنة تلهج بذكر ربها ، والقلوب تتذكر عظمته وجلاله وقوله : « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » — التسبيح :

التنزيه والتقديس، يتعدى بنفسه كقوله تعالى: «سبح اسم ربك الأعلى» وباللام كما هنا، وكقوله تعالى: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض». وأصله من سبج في الماء إذا عام فيه وأبعد، ومنه قولهم: فرس سبوح: سريعة الجرى سهلته، وقوله تعالى: «إن لك في النهار سبحاً طويلاً» أى متصرفاً ومتقلباً لا تتقيد بشيء، وكأن المسبح يبعد بربه عما لا يليق به من ضد أو ند أو شريك أو شبيهه. والمراد هنا كل أنواع التنزيه، سواء أكانت في صلاة أو في تعاضد أو تذكر لجلال الله أو تفكر في الملكوت أو غير ذلك. وتقييده بالعدو والآصال لا يقصره على الصلاة كما قال بعضهم، زاعماً أن ذلك في صلاة الغداة وصلاة العشي وكانتا مفروضتين. قبل الصلوات الخمس وزيد عليهما. كل ذلك لانراه، بل لا نرى ذكر العدو والآصال من باب التقييد؛ وإنما هو من باب الدلالة على تكرار التسبيح منهم بتوالي الأوقات، فهو كقولك: أزوره صباحاً ومساءً، أى متواليًا.

هذا وقد قرئ «يسبج»، فرجال فاعل، وقرئ «يسبج» بصيغة المبنى للمفعول، فنائب الفاعل هو الجار والمجرور في قوله: «له» أو «فيها». وقوله: «رجال» الح، جملة مستأنفة، كأنه قيل: من الذى يسبج؟ فقيل: رجال، أى يسبج رجال، أو المسبح رجال. وفضل هذا التعبير أنه ذكر فيه التسبيح مرتين تنويهاً بشأنه، فكانه قيل: يقع في تلك البيوت التسبيح لله بالعدو والآصال، والمسبح هم رجال الح. ونظير ذلك في استعمال الخطاب الجاري بين الناس قولك: إذا وصلت إلى جهة

كذا أكرمت أبلغ إكرام ، ثم تقول : أصدقاؤك وزملاؤك والذين سمعوا بفضلك وكثير ما هم . ألا ترى في هذا التعبير تقرير الأكرام بما ليس في قولك : أكرمك أصدقاؤك وزملاؤك ؟

والغدو هنا : جمع غداة وهي أول النهار . والآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار ، أو جمع أصل كعنق ، وأصل جمع أصيل عند من يرى أن فعلا لا يجمع على أفعال . وأصحاب القول الأول يقولون إنه كشريف وأشرف . ولعل في تقديم صفة البيوت على صفات المسبحين أي الرجال مع أنها هي المقصود بالذات حكمة الحث على التوجه إلى تلك البيوت ، وحفز النفوس إلى غشيانها ، فتقبل على العبادة والتأسي بمن فيها . وغير خاف ما للبيئة من التأثير القوي في عامة الناس ، وإن الرجل يكون متراوح النفس بين الخير والشر فإذا صادفته بيئة صالحة انتفع بها ، وإذا غمرته بيئة خبيثة أفسدت عليه أمره ، وهذا لا يمنع أن بعض النفوس توغلت في الخير أو في الشر حتى لا يكاد يثنىها أمر عن غيرها أو رشدها . قال بعضهم : الناس أربعة : اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما فصالح بين فجار وفاجر بين صالح ، فلو كان للصالح أول للفجور إلى نفس هذا أو ذاك سبيل لكان في بيئته ما يساعده ، وأما اللذان أنت منهما على تجربة فصالح بين صالح ، وفاجر بين فجار ، فلعل أحدهما لو نشأ في بيئة غير بيئته لكان غير ما تراه .

وقوله تعالى: « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » صفة مدح لرجال أكد ما في التنوين من التعظيم والتفخيم المستفاد من السياق . والمعنى أنهم اتجهوا بقلوبهم الى عبادة ربهم ، فلا يلو بيهم عن ذلك شاغل ولا يلهيهم مقصد . وقد أتى بأهم ما يشغل الناس عادة وهو التجارة والبيع ، ذلك لأن ذا العمل المستقل الذي لا يرتبط بغيره يجد نفسه حراً في تقسيمه على زمنه ، ولكن التاجر عرضة لأن يخطر الشيطان بين جوانحه فيوسوس له بأنك اذا انصرفت عن تميم صفقتك ضاعت فرصتك ، فهو يتلهى بعمل يتلوه عمل حتى يضيع عليه وقته . وذكر البيع بعد التجارة وإن كان داخلاً فيها ، لأنه أهم ما يحرص التاجر على إنجازه ؛ فقد تحدثه نفسه بأن يرجىء أمر الشراء ليتروى ، ولكن إذا حانت له فرصة البيع التي يتيقن فيها الربح حرص على المبادرة اليها حتى لا تنقمت منه ، أما الشراء فانه تحدثه نفسه أنه ربما كان في الأرجاء والمهلة شيء من هز أعصاب البائع فيتسامح في بعض الثمن أو نحو ذلك . يعرف ذلك من راقب خواطر النفوس عند من يزاول البيع والشراء .

والمراد بذكر الله كما سبق جميع أنواع الذكر . وتخصيص إقام الصلاة بالذكر بعده مع دخولها في ذكر الله لمزيد الاهتمام بشأنها ، فهي كقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » . ويصح أن يكون المراد بذكر الله تكميده وتمجيده ، فيكون مغايراً لأقام الصلاة ، وهو ظاهر . وإنك لتجد أكثر ما ترد الصلاة في القرآن معبراً عنها بلفظ الأقامة ، وذلك لبيان أنه ينبغي في أداء الصلاة أن تقوم أركانها

وتوفى ما يطلب فيها . وقوله : « وإيتاء الزكاة » ذكر هنا مع أن الزكاة ليست مما يطلب فيه أن يفعل في المساجد ، لأن الشارع الحكيم قد راعى أن تكون الزكاة من الصلاة بمنزلة الثمرة من الشجرة ، حتى لا تكاد تذكر الصلاة إلا ويذكر معها الزكاة ، وكأن الصلاة في نظر الشارع إذا لم تؤثر في قلب المصلي حتى تهون عليه أن ينخلع عما أحرزته يده — وهو في الحقيقة مستحق لمن فرضت له الزكاة — كانت صلاته شبحاً بلا روح ، وكان ساهياً عن صلاته التي فعلها رياءً ومجرد حركات ومسكنات ، وكان مستحقاً للويل في قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

وقوله تعالى : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » انتقال في الوصف من شرح أعمالهم وحركات جوارحهم ، إلى شرح صفات قلوبهم وخواطر نفوسهم ، فقال : إنهم يفعلون ما يفعلون اتقاء ليوم يجعل الولدان شيباً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، يوم تتردد فيه النفوس بين الخوف والرجاء فتتقلب القلوب متجهة إلى الرجاء تارة وإلى الخوف تارة أخرى ، وتتقلب الأبصار متجهة إلى اليمين وإلى الشمال لا تدري من أين تؤخذ أو من أين تؤتى كتبها أبا اليمين أم بالشمال . أو المعنى تتقلب فيه القلوب والأبصار أي تهلع القلوب وتزيغ الأبصار فلا يستقر منها شيء في مكانه ، كقوله تعالى : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » فكيف لا يخاف هول هذا اليوم من يؤمن تمام الإيمان

بهذا اليوم ؟ وإنما كان من شأن هؤلاء الرجال ما كان « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » هذا تعليل لقوله « يسبح » أو قوله « لاتليهم » أو قوله « يخافون » أو هو تعليل لفعل محذوف جامع لهذه كلها وهو : يفعلون ما ذكر من التسبيح والخوف وعدم اللهو ليجزيهم الله . وفعل (يجزى) يتعدى للشخص المجزى بنفسه ، وللفعل المجزى عليه بعلى أو عن أو الباء ، وللأمر المجزى به بالباء أو بنفسه ، تقول : جزيته على عمله وعن عمله وبعمله أحسن جزاء أو بأحسن جزاء ، وقد وقع هنا متعديا في الظاهر للفعل المجزى عليه بنفسه ، إذ يقول : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا » فن المفسرين من يرى أنه على حذف الجار ، والمعنى ليجزيهم على أحسن ما عملوا أو بأحسن ما عملوا ، ومنهم من يرى في الكلام حذف مضاف بتقدير أحسن جزاء ما عملوا ، فالمعنى على الأول أنه يجزيهم على أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ولو شاء لحاسبهم حسابا عسيراً فأحصى عليهم سيئاتهم ، بل لأحصى عليهم لهوهم المباح وغفلتهم عن ذكر ربهم ، ولكنه — فضلا منه ورحمة — إنما يجزيهم على أحسن الأعمال ويعفو عن السيئات . والمعنى على الثانى : ليجزيهم أحسن جزاء أعمالهم ، وذلك بالمضاعفة حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء . وإن المكافأة ولو بالمثل فضل من الله ، إذ ما كانت الطاعات من العبد إلا باقدار الله وتوفيقه ، فما بالك بالمضاعفة والمضاعفة إلى عشر أمثال كما في قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » والمضاعفة

الى سبعمائة ضعف كما في قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » ! اللهم إن هذه هي التجارة الربحة ، وهذا هو الجزاء الأوفى ، بل الفضل العظيم ، فكانوا بذلك يجزون أحسن جزاء لما عملوا .

وانظر الى آثار رحمة الله : لم يقصر الأمر على الجزاء وأنه أحسن الجزاء ، بل زاد عليه الفضل بقوله : « ويزيدهم من فضله » فجعل الأمر مكافأة ومجازاة مع أنه هو صاحب الفضل والتوفيق في الأولى والآخرة ، وزاد في الجزاء تلك المضاعفة العظيم ، ثم وعد بالمزيد من الفضل ، والله ذو الفضل العظيم . والفضل هنا : الاعطاء بلامقابل ، كأن ما عملوا أصغر من أن يقع موقعا مما ينالهم من رحمة ربهم ، فاذا صح أن بعض ما نالهم يسمى جزاء مستحقا فان بقيته أعظم من أن ينسب اليها ما قاموا به من عمل مهما شق . وماذا يقع عمل العبد مع ضعفه وعجزه من ثواب الله مع قدرته وسعة رحمته ؛ وبخاصة اذا روعي أن الشكر ليس إلا بتوفيقه كما سبق ! والله من قال :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً على له في مثلها يجب الشكر
فكيف ينال الشكر إلا بفضله وإن طال الآجال واتسع العمر ؛
ولقد أردف هذا الوعد الكريم بما يقرره في النفس فضل تقرير ،
ولا يسع نفسا تؤمن بالله وقدرته أن تنكره ، وهو قوله : « والله يرزق
من يشاء بغير حساب » ، فقد وقر في النفوس التي تتقلب في طلب وجوه
الرزق أن سعيهم وتقلبهم ليس وحده مناط ما يرزقون مهما أتوا من

الحذق والمهارة ، بل كل امرئ يشعر بأن هناك أسبا بالتوفيق والنجاح ،
يصادفها من إ شاء الله ويخطئها من يشاء ، فلا تكاد تجد ساعيا مهما كابر
وعاند إلا وهو خاضع من قرارة نفسه لهذا الحكم إن طوعا وإن كرها ،
فمن شذ وملكه الغرور والاعتداد بقوته وحدها لا بد أن تصدمه
الكوارث صدمة يفوق بها من غفلته ، ويعترف قهرا عنه أن الأمر كله
بيد الله ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فنزلتها من سابقها منزلة
الدليل من المدعى .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق لطاعته ، وأن يجزينا أحسن
معاملتنا ، ويتجاوز عن سيئاتنا ، ويزيدنا من فضله ، إنه سميع مجيب
كريم رحيم ! .

كلمة وجيزة في جمال نسق الآيات القرآنية الكريمة :

أما وقد وصلنا من تفسير السورة الكريمة الى ما وصلنا اليه في
الآيات السابقة فانه يجمل بنا أن ننظر نظرة إجمالية في مجموع الآيات
الكريمة التي مررنا بها ، لنستجلي محاسنها جملة ، ونتمتع النظر بمشاهدة
أزاهيرها مؤلفة متألقة ، وتذوق ما فيها من أطيب الثمار ، ونهيج الروح
بطيب رياحينها العطرة . وفي النظر الى المحاسن جملة معنى يزيد على
النظر الى كل منها على حدة .

ولعلنا بذلك نكتب أولئك الزعانف الذين ملكهم الغرور حتى
غشى بصائرهم ، وبهرهم النور حتى عشى أبصارهم ، فلم يفقهوا سر
الجمال في ترتيب القرآن ، فلفظت أفواههم كلمات لا تصدر إلا عن غباء

وعمه ، فكما قال الأولون من الكافرين المعاندين : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » قال هؤلاء الملحدون المفتونون : « لولا جعل كل نوع مما أنزل في القرآن جملة ، فيكون القصص كله جملة واحدة ، والأحكام كل نوع منها جملة ، وما يتعلق بالالهيات أو بالنبوات مثلا جملة ، وكذلك الأمثال والعظات وسائر ما في القرآن » . يزعمون بذلك أنه أيسر لهم في الوصول الى ما يريدون ، والكشف عما يبتغون ، كأنهم نظروا الى القرآن الكريم نظرهم الى القواميس والمعاجم ، أو الى كتب التاريخ التي يقصد بها الى بيان الوقائع على ترتيب الأزمنة أو تفصيل روابط الأمم ، أو الى كتب الفقه أو القانون ، أو ما مثل ذلك ، مما تعدد فيه الكتب تبعاً لتفصيل الموضوعات ، وما دروا أنه الكتاب الواحد الذي جمع الله فيه للبشر كل ما يقوم بتربيتهم في دنياهم وفي دينهم ، لم يفرط فيه من شيء ، ولا أخل بحسن الترتيب وإحكام الوضع الذي يجب أن يراعى في تربية النفوس ، وتغذية العقول ، ومراعاة ما تستعد الأرواح لارتشافه وتذوقه والانتفاع به ، سواء أكان ذلك في خاصة نفسها ، أم في توجيهها إلى بارئها ، أم في تنظيم العلاقات بينها وبين من يتصل بها من طبقات الناس القريبين منها والبعيدين عنها ، أو ما يلبسها ويحيط بها من سائر أجزاء العالم وقواه ، فتنفع بكل ذلك على الوجه الأكمل ؛ الأنسب بحياتها الفانية والباقية

كل ذلك يتبع فيه أنسب الوجوه باستعدادها لقبول التغذية العقلية والهداية الألهية ، والتربية الربانية ، فيكمل بذلك معنى الربوبية التي

امتن الله بها على عباده في فاتحة الكتاب المبين ، في قوله جل شأنه :
 « الحمد لله رب العالمين » . فكل العقلاء مطبقون على أن التريسة
 الصحيحة يجب أن يساوق بعضها بعضا ، : فحينما يتعهد الربى من يريه
 بالتغذية يجب أن يتبعها بالتنظيف مثلا ، ويقرن ذلك بترويض أعضائه
 موجهاتبهاه الى مايجمل به إدراكه ، موقظاله إلى محاذرة ما يخشى ، وهكذا
 دواليك ، فلا يهمل شأننا من شئونه قد استعد لقبوله ، متغلا في شأن
 آخر قد أخذ منه حظه وكفايته

هكذا ترى الترتيب العجيب والأسلوب الرائع ، والتنقل في القرآن
 الكريم من نور إلى نور ، ومن ثمرة إلى ثمرة

فلقد بدأت السورة الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها بتوجيه
 نظر المؤمنين إليها جملة ، والتنويه بعظمتها ، حتى تفتتح أذهانهم إلى
 ما سيتلى عليهم ، فقال : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات
 بينات لعلكم تذكرون » . فلما أن تفتحت عيونهم لما سيتلى عليهم ،
 لقيهم بالتنبيه إلى ذلك المرض الخبيث الذي ابتلى به المجتمع في الكثير
 من أدواره ، وتوافرت دواعيه من كل ناحية ، كما تراكت خباثته
 وتفاقم شره وعظم فحشه ، وما من أحد من العقلاء إلا وهو يكره
 أن يلحقه ، ويخشى أن يصيبه ، ويجزع إن وصم به ، وهو على كبر
 فحشه أسرع الفواحش في انحدار النفوس إليه ؛ إذ تقع فيه وهي
 مسترسلة في نعيمها ، لاهية في استمتاعها ، منلذذة باستيفاء ما تصبو
 إليه بطبيعتها ، فكان جديرا بالتنبيه على خطره أولا ، إذ كان أشد

الأمراض فحشا وأوسعها انتشارا ، وأسرعها إلى نفس الناشئ الشاب
 لأول عهده بالتكليف الشرعي ، فبين من أحكامه ما بين ، وأردف
 ذلك بتوجيه نظرهم ولفت عقولهم إلى فضل الله عليهم ورحمته بهم ،
 وأنه واسع الرحمة والفضل والعلم ، فيجب أن يأخذوا ما فرضه عليهم
 أخذ قبول وانتفاع ، معترفين بالفضل شاكرين للنعم .

ثم أتى بعد ذلك بقصة تقوم برهاننا على عظيم النفرة ،
 حتى من الظنة الكاذبة والتهمة الباطلة . وما يترتب عليها
 من عظيم الخطر ، وما ينجم عنها من كبير الفتن ؛ فذكر تلك
 الفتنة التي ابتلى بها بعض ضعفاء الايمان ، فجرت إلى ماجرت ، حتى
 كشف الله القناع عن خبث نية من أثاروها ، وفضح شأنهم وأخزاهم ،
 ولكن بعد أن تحركت نفوس ، وزاغت عيون واعتلت قلوب . كل
 ذلك والأمر مجرد وهم خطر في بال منافق فأسرّه إلى ضعفاء الايمان ، فحجل
 بينهم الشيطان ، حتى كان من فتنتهم ما كان ، فكيف ترون في
 خطر هذه الفاحشة التي ساءت سبيلا ، إذا فرض صدورها من
 أحد المؤمنين ؟!

ولقد ضمنت القصة من التعليم والارشاد إلى ما ينبغى من الأخلاق
 في مثل هذه الظروف الحرجة ما لو لم تسق هذه القصة لما ظهر لنا
 وجه مناسبة إيرادها على هذا الوجه المقبول . وهل هناك أدعى للعظة
 من الكلمة تجيء بمناسبتها وفي شرح حال واقعة ؟
 وإنك إذا تأملت ما يسلكه أهل هذا العصر ويتورطون فيه من

اختلاق الحوادث الخيالية والروايات التمثيلية ، لما رأيت لهم وجها في تبرير أكاذيبهم وخيالاتهم الوهمية سوى قولهم : إنا نرى العظة من لسان الحال أكبر منها بلسان المقال ، فكيف بالوقائع الحاصلة وأثرها في النفس هذا الأثر الكبير ؟ لاشك أنها تكون أعمق أثرا وأثبت فعلا ، وأدعى الى الامتثال والقبول والانتفاع .

بذلك ترى الحكمة في إدماج الأحكام ، والأرشاد والتربية في سوق القصة ، وأنه لا يفيد مجرد سرد الحكم أو العظة بدون أن تستند الى ما يدعو الى امتثالها ويشرح سر جمالها .

انظر الى قوله : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين » ، وقوله : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » ، وقوله : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » ، ثم قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » ، تجد لهذه الأحكام والعظات في هذا السياق ، وبمناسبة تلك القصة الخطيرة ، ما ليس لها إذا سردت سردا وقيلت قولاً .

ثم تأمل فيما فصلت به من التنويه بعظم فضل الله عليهم ، ومنته في إرشادهم ، تجد لذلك في النفوس أبلغ الأثر . وانتقل مثلا الى قوله : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » الآية ، فكم تجد فيها من تجلى الفضيلة والخلق الكريم في أشد أوقات ثوران

النفس وغضبها ، وكم ترى فيها من تربية ضبط النفس ، وحبسها على ما يرضاه الله ، واطراح نزواتها ونزغات الشيطان انتهاز المثل تلك الفرص الجليلة ، هل في الامكان أن يمهّد لمثل تلك التعليمات إلا بمثل تلك القصة ؟ وهل كنت تحس للحكم يلقى اليك مجرد أمر أو نهى مثلما تحسه وقد وقع في محله وجاء لمناسبته ؟

وبعد : فانظر الى مناسبة ماتلا هذه القصة من أحكام الاستئذان في دخول البيوت ، والاستئناس لذلك والتسليم ، حتى لا يفاجأ الناس بالاطلاع على أسرار لا يجبون أن تنكشف لأحد ، فتتربى في نفوسهم كراهيتهم بعضهم لبعض ، وحتى لا يفتح أمام الشيطان باب الفتن ، فيغري بعضهم بالكلام في بعض ويوقع بينهم العداوة والبغضاء . أفلا ترى أن هذا هو محله الذي لا يعدوه ، وأنه ترتيب من لا يعزب عن علمه شيء ؟ وكيف بك اذا انتقلت الى الآيات الآمرة بغض الأبصار مقترنة بنتيجته وثمرته المقصودة بالذات ، وهي حفظ الفروج ، ويذيل ذلك بتكميل الحكم بما يحوطه ويعتبر سياج له ، وهو النهي عن إبداء الزينة المغرية التي تلفت الأنظار وتثير الشهوات وتخلق الشبهات ، مع دفع الحرج فيما لا ضرر فيه ولا حرج منه ، وهم البعولة والآباء والأبناء والنساء ومن في حكمهن ، ويختتم ذلك بالأمر بالتوبة الى الله مستحسنا منهم إيمانهم الداعي الى المسارعة للتوبة ، وواعدا عليها بالفلاح المرجو ؟

إذا وصل التالى الى هنا تطمع بلا شك الى حكم عام وعلاج ناجح شامل يريح النفوس من عناء المخاطرة ، وتطمئن عنده العوامل المتحركة . ذلك هو الأمر بالتزويج والترغيب فيه ، وتسهيل سبله ، وعدم الخشية من كلفه ومؤنه ، وهذا هو ما ذكره جل شأنه فى قوله : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » . ثم يردفه بما يبعد عنه توهم أن ذلك قاعدة عامة محتومة ، فيقيد ذلك بمن يكون عنده وجدماً ، فمن لم يجد باباً مشتوحاً لذلك أصلاً فليستعفف حتى يغنيه الله من فضله .

وإذ تعرض فى أمر الانكاح الى إنكاح الصالحين من العباد والأماء ، فإنه لم يترك هذا المقام يمر بدون أن يوفى الصلاح فى الأرقاء ما يستحقه ويليق به ، فعطف عليه بفتح باب الترغيب فى إطلاق الحرية وإزالة الرق بما يسهل عليهم امتثاله ولا يذنبغى أن يشحوا فيه ، وذلك هو كتابة الرقيق على مال متي ظن فيه الخير ورجا منه الأداء ، ثم زاد فى هذا الترغيب بالأمر بمساعدتهم ، وإيتائهم من مال الله وما أحسن التعبير عنه فى هذا المقام بمال الله ، حثا على أن يوجد به فى مرضاة الله ! وقد أضاف المال اليهم حين أمرهم بامساكه والمحافظة عليه فى قوله فى سورة النساء : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » . فتأمل هذا التعبير العظيم .

وأما إرداف ذلك بقوله جل من قائل : « ولا تكرر هوا فتياكم على البغاء إن أردن تحصنا » فانك تدرك الروعة فى حسنه والبراعة فى

موقعه حين تتأمل في قبح تلك العادة السوءى التي كان عليها سفهاء من الرجال . وما بعدهم عن وصف الرجولة ! فقد كانوا يستغلون ضعف الفتيات وامتلاكهم لهن ، فيزجون بهن كرها إلى أفحش المواطنين ، ابتغاء للمال الذي حقه أن يكون اكتسابه من صنع الرجال ، لأن يكونوا عالة فيه على النساء ، يكتسبونه من أفحش الأبواب وأخبث الأسباب . نعوذ بالله نعوذ بالله ! وهل هناك ما هو أفحش وأنذل وأحط نفسا من رجل يرضى لامرأة تتصل به أن تكون على هذه الحال ، فكيف بأمرها بذلك ، فكيف بأكرها على ذلك وهي تريد التحصن ؟!

قارن هذا بالأمر بأنكاح الصالحين من العباد والاماء ، ثم بالأمر بمكاتبة من يصلح منهم للخير ومساعدتهم على الوفاء ، تجدد نفسك قد بهرك من الحسن ماملك عليك جوانبك ، وتجد أن صورة أولئك القوم قد صارت أشنع ما يتصوره متصور ، وما زاد في شناعتها لتنفرد النفوس منها إلا مقابلتها للمثل الصالح المأمور به في معاملة الموالى من إنكاح ومكاتبة ومساعدة .

إذا وصلت أيها القارىء المتدبر في هذه السورة الكريمة الى هذا ، أفلا ترى حقا صحيحا أن يمتن الله علينا بقوله عز من قائل : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » ؟ أفلا ترى أن هذا مما يلفتك الى ماسبق من الأحكام ، ويدعوك الى التأمل فيها ، والاستمسك بها ، والاعتصام بعروتها ، والشكر على منتها ، وذلك بامثال أحكامها وهو المقصود من الامتنان بها ؟

هذا البيان ، وهذا الارشاد ، وهذه التربية ، وهذه الهداية : أى عقل من عقول البشر يستطيع أن يصل إليها ، أو يبلغ شأواً منها ، مهما تقطعت الأعناق وزاغت الأبصار؟ «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» . إنا هو نور من الله وهدى منه وحده ، وما كان لغيره أن يكون له شيء من مثل هذا النور ، فقد تحببعت عقول البشر وحارت أوهامهم ، وضلت السبيل فلم يستطيعوا أن يهتدوا ، حتى جاءهم من الله نور وكتاب مبين .

أجل أجل : الله نور السموات والأرض ، حسا ومعنى ، دينا ودنيا ، فما من أحد بقادر على أن يبرز نورا صحيحا ، وإنا هي لمعات سراب إذ اجتته لم تجده شيئا ، أو كظلمات في بحر لجى على ماسياتى . أما هذا النور فمثله كأعظم ما يبرك من النور . تصور نور مصباح رق زجاجه ، وصفا زيته ، وجادا أصله ، وضبطت أشعته ، جاء في وقت أحاط بك الظلام من كل ناحية ، وتلا لأهدى هذا النور أمامك على ذلك الوجه ، كيف يكون ظهور ذلك النور .

هذا مثل النور الالهى ، والله المثل الأعلى ، فهو نور على نور . ولكن تجلى النور شيء واهتداء النفوس به شيء آخر ، فرب نورا هتدت به أبصار وعشيت عنه أبصار . فالاهتداء إنا يكون بمشيئة الله ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور .

هذه أمثال يضربها الله لعباده ليتفهموا بها ما ينتفعون به ، فتراهم يسارعون إلى أبواب رحمته ، ويلجأون إلى بيوت رضوانه ، تلك البيوت التي شرفها بذكر اسمه فيها ، فيسبحونه ، ويذكرونه ، ويقدمونه ، فيمتثلون أمره ، ولا تلهيهم مصالحهم عن عبادته ، وهم في كل ذلك عارفون بقدرته عليهم ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فكان عاقبة أمرهم أن تجاوز الله عن سيئاتهم ، وجزاهم بأحسن أعمالهم ، وزادهم فضلا عن أجرهم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

هذا نور الله ، وهذا شأن من اهتدى به . أما من زاع عنه فأولئك الذين اتبعوا أهواءهم ففرقت بهم السبل وظنوا أنهم على شيء ، ولكنهم كاذبون .

أولئك الذين ذكروهم الله بعد هذا ، والضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده ، فقال جل من قائل : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب» .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّالِمَانُ
 مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابَهُ
 وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
 مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٍ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُمْ كَانُوا
 يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) :

مثل من لم
 يهتد بنور الله

بيننا فيما سبق كيف أردف المولى جل وعلا تلك الايات البينة
 والتعاليم الحكيمة والارشادات المنيرة للطريق السوى ، الهداية إلى
 سبيل السعادة ، المنظمة لأحكام المعيشة البيتية ؛ وأردفها بما يرغب
 في الاهتداء بها والامتثال لأمرها والتحقق بالعمل بها ؛ فبين أنها آيات
 مبينة ، وأنها موعظة نافعة لمن عمل بها واتي ربه في الأخذ بسببها ،
 وأن نورها وهداها لا يبصر إلا من العليم الحكيم . ثم ضرب مثلا
 لنوره بتصوير أعظم ما يخطر بالبال وتراه العيون من النور ، شارحا
 أثر الاهتداء بذلك النور والمقصود الأعظم منه وهو شكر المنعم ،
 والقيام بحق العبودية له ، وإفراغ الجهد في طاعته ، ونوه بالأماكن
 المخصصة لعبادته ، ورتب على ذلك الجزاء الذي أعد لهم ، والفضل
 الذي يمنحهم زيادة عن توفيتهم أجورهم .

وكان جديراً بل منتظرا بعدما عرف من حال المهتدين ما عرف ، أن
 يشرح حال من ضلوا السبيل ولم ينفعهم هدى الله الذي جاءهم ؛

فبين سبحانه وتعالى حال أولئك الضالين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فضرب لهم مثلين (أحدهما) حال من عقد قلبه على الضلال واطمأن الى الكفر وبني آماله على غير أساس ، جازم بأن له العقبى والفوز ، وأولئك هم الذين ظنوا أنهم على شيء وما هم على شيء . و (الثاني) حال من ملكت الحيرة قلوبهم وتاهوا في بيداء الضلالة يتلمسون الهدى وهو بين أيديهم يناديهم ويضيء لهم وهم عنه عمون ، كالضالين الذين لا يعتقدون ديناً أو يتخيّلون أمراً يدينون به وهم في شك منه ، ككفار قريش الذين كانوا يسألون اليهود أيهما خير ديننا أم دين محمد ؟ فقال في الأولين : «والذين كفروا أعماهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» وقال في الآخرين : «أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض .»

وأيضاً لما بين حال المؤمنين في الدنيا والآخرة بأنهم في الدنيا على نور الله وهدايته ، وفي الآخرة يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، بين حال الكافرين كذلك في الدنيا والآخرة ، فبين حالهم في الآخرة بأنهم يردون على أمل كاذب في عمل خاطيء كمتتبع السراب وقد اشتد به الظمأ ، فلا يجدون مما أملوا شيئاً ، بل يجدون الجزاء الذي أعد لهم على ما اقترفوا وصلوا ، فيجدون الله يحاسبهم حساباً عسيراً ، ويستوفون جزاءهم جزاء نكراً ، وبين حالهم في الدنيا بأنهم يسرون في ضلالة ويتيهون في ظلمات متراكمة ، ظلمات بعضها فوق بعض ،

وأنى لمن كانت هذه حاله أن يصل الى غاية صحيحة؟
وقدم هنا ما يتعلق بأحوال الآخرة ، لأن صدمتها لهم أشد ،
وحسرتهم على ما قدموا من عمل يلتفتون اليه أقوى . وقدم في جانب
المهتدين حال الدنيا ، ليكون الترتيب حسب ترتيب الوقوع ، وهو
ظاهر . وأيضا فلترية الرجاء ليزداد الاقبال على اتباع الهدى .

وقد يقال أيضاً : إن أعمال الكفار منها ما هو موضع لأمل الخير
فيرجون بها الثواب ، فاذا ما وردوا عليها يوم القيامة وجدوا أنفسهم قد
ضيعوها وخابت آمالهم عندها ، إذ لم تبني على أساس الايمان الصحيح ،
وكل ما بني على غير أساس فالى الانهيار يصير ، ومنها ما هو أذى
وشرفى ذاته ، فاذا انضم إلى ظلمة الكفر كان كالظلمات المترامية
بعضها فوق بعض . قد قال بكل وجه من هذه الوجوه طائفة . والآية
قابلة لهذه المعانى كلها . وأسرار الكتاب العزيز لا تقف عند حد .

والسراب : ما يترأى فى الفلوات وقت الضحوة كأنه ماء وليس
بماء . يرى ذلك من يسافر فى الصحراء ، فمن الناس من يعلله بأنه بخار
رقيق يتصاعد من قعور القيعان ، فاذا وقع عليه شعاع الشمس ترأى
كالماء ، ومنهم من يقول : بل هو هواء رقيق يظهر عند وقوع الشمس
عليه بهذا المظهر . وعلى كل حال هو معروف ، وليس المقام مقام تعليله
والقيعة : الأرض المنبسطة المستوية . أوهى جمع قاع كجيرة جمع
جار . والقاع : هو الأرض المنبسطة المستوية . ويحسبه بمعنى يظنه .

وفرق بعضهم بين الحسبان والظن بأن الحسبان هو أن يخطر المعنى بالبال فيعلق بالنفس ، وهو قابل للزوال بالتشكيك ونحوه . والظن أن يرد المعنيان على النفس ويرجح أحدهما على صاحبه رجحاناً لا يصل لليقين ، فكأن الظان قد خطر له المعنيان وركن إلى أحدهما ؛ والحاسب لم يخطر له إلا معنى واحد ، وهو قابل للزوال بالتشكيك أو بظهور الحال . والظماً : شدة العطش . وكأنه خص التشبيه بالظماً مع أن السراب يتراءى كالماء للظمان وغيره ، لأن الظماً يدفع المرء إلى تماس الماء ، فإذا ما وقع بصره على السراب خطر بباله ما هو بحاجة إليه ، ودفعه الحرص على هذا الحسبان وهو لا يشعر . ثم فيه نكتة أخرى وهي الجمع بين ضلال الحسبان وخيبة الرجاء مع اشتداد الحاجة ، وذلك حال الكافر إذ يرد على ربه معتدا بعمله مؤملاً فيه حسن المثوبة ، إذ كان يراه من عمل البر ، كصلة الرحم أو مساعدة الضعيف ، أو الصدقة على الفقير ، فإذا ما جاءه لم يجده شيئاً يعول عليه ، بل وجد الحساب أمامه بالمرصاد ، فيستوفى جزاء ما فرط في أمر الإيمان ، وهو أساس كل طاعة وعماد كل بر ، وحينئذ تشتد به الحسرة على ضياع ما أمل ، ومصادفة العقاب الذي لم يكن له على بال . ومثله في شئونا المألوفة أن يبذر المرء أجود البذور في أرض مسبخة أو صخرة لا تنبت ثم يتعهد بالرى وعوامل التنمية فلا تزداد إلا ضياعاً .

وأما ما عملوا من سوء فانه يراه وقد عظم جرمه وتراكم إثمه ، فازداد بالكفر جرماً وإثماً ، وحقاق به من سوء عمله ما لم يكن مقدراً له ،

فضاقت نفسه ، واشتدت حسرته ، وانسدت مسالك الأمل في وجهه ،
 فاذا رجع إلى ما عمل وجده سوءا ، وإذا رجع إلى ما اعتقد وجده ضلالا
 وظلاماً ، وإذا رجع إلى نفسه وجدها نفس سوء شريرة ، فكأنه قد
 قذف به في بحر لجي تلاطمت أمواجه ، وتراكت غيومه ، وأظلم ليله ،
 فلا شمس ولا قمر ، ولا كواكب ولا نجوم ، فاذا حاول أن يرى يده
 فلا سبيل له إلى رؤيتها ، فلا يقرب من أن يراها فضلا عن أن يراها ،
 ذلك لأنه فقد نور ربه ، فمن يعوضه من نوره ؟ ومن لم يجعل الله له
 نوراً فإنه من نور .

والخلاصة أن التشبيهيين في الآية الكريمة يحتملان جملة معان
 لا تعارض بينها ، فيصح استفادتها جميعاً منهما - الأول : أن التشبيه
 بالسراب لبيان خيبة أملهم في الآخرة وضياع ما كانوا يرجون منه
 المنفعة في وقت هم أشد ما يكون فيه احتياجاً إلى تحقق أملهم .
 والتشبيه بالظلمات لبيان حالهم في الدنيا ، وأنهم يتخبطون فيما يعتقدون
 ما لهم به من سلطان ولا عليه برهان .

والمعنى الثاني : أن التشبيه بالسراب راجع إلى الأعمال التي كانوا يرجون
 منها الخير كعبادتهم لله على غير هدى ، وكالبر وصلة الرحم ومساعدة البائسين ،
 فاذا جاء وهما يجنون ثمارها وجدوها باطلة من أساسها متهدمة في قاعها . والتشبيه
 بالظلمات راجع إلى سيئات أعمالهم التي زادها كفرهم سوءاً على سوء .
 والثالث : أن التشبيه بالسراب راجع إلى الفئة المعتقددة جزماً بحقيقة ما هم
 عليه ، والتشبيه بالظلمات راجع إلى أولئك الخياري الذين ضلوا سواء السبيل .

واللجى : منسوب للجة ، وهى معظم الماء الغمر البعيد
 الغور . وكان نسبه لجة لكثرة اللجج فيه ، أولآنه هو فى
 البحار كاللجة وسط البحر . وغشيان الموج له بعضه فوق بعض مما يزيد
 هوله ، فاذا تراكم السحاب على من تورط فى سلوكه حتى حجب ضوء
 الكواكب فكم يكون استحكام الظلام فى وجهه والحيرة فى نفسه !
 فاللجة أثرها فى زوغان النفوس وشروء العقول ، وتراكم الأمواج
 بعضها فوق بعض مما يزيدا هولا ، فاذا حجب الضوء وتراكت
 السحب ، حارت النفس فى أمرها فلا تدرى ماذا تصنع ولا كيف تنجو
 ولا أين تتجه . والمرء إذا ضل المسالك ووقف ذهنه عن الحركة ، فقد
 ملكه اليأس من كل جانب . والذى جر ذلك كله عليهم أن حرموا من
 نور الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ
 صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَاللَّهُ
 مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ
 يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ
 السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ
 يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ) :

تسبيح العالم
 كله لله وآياته
 فى خلقه

لقد وصف لنا جل شأنه نور الله في ثلاثه وصفائه ، وكيف يشرق على قلوب المؤمنين فيقبلون على طاعته ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره ، وكيف تغلق دونه قلوب طمس عليها ففرقت في ظلمات متراكمة ، وشملتها العماية حتى لا ترى شيئاً مما مهما كان منها قريباً ، فكان جديراً أن يردف ذلك بالثمره المقصوده من تجلى النور على القلوب ، لتقارن بحال من حرم منه ، فتبتهج النفوس بالنعمة ، وتسارع إلى التقاطها ، وتحمد الله على التوفيق اليها ، وتزداد بها تمسكاً . وساق ذلك على وجه يبرزه في صورة المحسوس المرئى ، إيدانا بوضوحه أمام عين البصيرة كما تتضح المرئيات أمام العين الباصرة ، فقال جل شأنه : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض » . وأصل الرؤية الابصار بالعين ، وتستعمل كثيراً فى العلم بالبصيرة وهو المراد هنا ، أى ألم تعلم . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد ما يعمه ويعم أمته ، أو الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية . والاستفهام هنا للتقرير ، ويستعمل فى الاخبار بالشىء الذى بلغ من الوضوح حالة يستغنى عن الاخبار به ، بل يكفى تنبيه المخاطب عليه فيقربه من نفسه ، كقوله تعالى : « ألم يجدهك يتيماً فأوى » لأنه عليه السلام كان يعلم ذلك من نفسه . وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له الخ » فيه دلالة على وضوح ذلك الأمر إلى حد أنه يرى ويعلم علماً واضحاً ، ودلالة على أن هذا الوضوح وهذا العلم أمر يجده كل ذى قلب أشرق عليه النور الالهى ،

واتنفع بالموهب التي أنعم الله بها عليه ، من عقل يميز ، وآيات بينة .
والتسبيح : التنزيه عما لا يليق .

والعنى أنها تعترف بتنزيهه وتقديسه، وتشهد بذلك بلسان حالها
وبما أودع فيها من آيات الأبداع الدالة على كمال منشئها وعظيم قدرته ،
وواسع علمه وباهر حكيمته ، فانك إذا تأملت في هذه الأنواع المتباينة
وما أودع في خلقه كل منها مما يحتاج اليه في حياته ، وجدتها جميعها ناطقة
بأفصح بيان بتنزيهه مبدعها ، شاهدة بأصدق لسان بتمجيده وتقديسه .
انظر إلى الحيوانات الصغيرة الضعيفة وما ركب فيها من قوى
تعيها على تحصيل رزقها والدفاع عن أنفسها ، تجد العجب العجاب .
انظر إلى النحل وما ألهمت ، وإلى النمل وما منحت ، وإلى الوحوش وما
أعطيت ، وإلى البهائم وما ركب فيها من قوى ، تجد ما لا يقف عنده
من دلائل القدرة وآثار الحكمة . انظر إلى الانسان وكيف خلق ،
وتأمل في أى ناحية من نواحيه شئت ، وفي أى عضو من أعضائه أو
أى جهاز من أجهزة بدنه ، وأطل البحث والتأمل ، فانك كلما ازددت
نظرا أو تأملا ازددت علما و يقينا بهذا المعنى . إنك اذا تأملت في
الجهاز التنفسى للحيوان ، أو للدورة الدموية وما تغذى به الأعضاء آنا
فآنا ، أو للعصب وما يوصل ، أو لأعصاب الحركة وكيف طاعتها ،
أو للغدد المفرزة وثمراتها ، فانك سيتجلى لك في كل خطوة تخطوها
نور تشهدهُ يُنطق لسانك بالتسبيح والتمجيد ، فكل من فى السموات
والأرض ، وكل ما فى السموات والأرض وما بينهما من الطير صافات

في الفصاء ، ناطقة بأجلى بيان ، شاهدة بتسييح الملك الديان ، جل شأنه
ولا إله غيره . أمر بين ، ولسان فصيح ، يمجده كل من فتح عين بصيرته
ونظر الى عجيب صنع الله :

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

من هذا ترى الكلام قد انتقل بالطف أسلوب وأرق مسلك
الى تقرير أدلة الربوبية ، ولقت النظر الى آيات العظمة الالهية والحكمة
الصمدانية ، وجعل ذلك نتيجة لازمة وثمرة مترتبة على ما سبق من
تفصيل أحوال العالمين ، الى مستنير مبصر ، والى أعشى حائر في بحر
من الظلمات . وكأن سوق الأدلة على هذا الوجه ، ليفيد أنها مع كونها
من الوضوح بهذه المثابة فقد عمى عنها فريق ، فهل عاها إلا لانطاس
أبصارهم وبصائرهم ، ولا نفماسهم في الظلمات فهم فيها يعمهون؟!

وترى بهذا أن التسييح معناه الشهادة بلسان حالها بتنزيه مبدعها .
وبعضهم يرى أن التسييح لا يبعد أن يكون باللسان ، ويقول : لا يبعد
أن يخلق الله لكل ما في الأرض من حيوان ، وللطير ، السنة توحيد
صانعا وتسبح له بلغة تفهمها وإن لم تفهمها عنها . ولكن الآية في
غنى عن هذا . كيف ولسان الحال أفصح من لسان المقال ! ولفظ «من»
وإن اختص بالعقلاء فباب التغليب واسع ، أى أننا أطلقناه على الجميع
تغليبا للعقلاء على غيرهم ، أو أنه لما أسند اليهم ما شأنه أن يسند إلى
العقلاء ، عبر عن الجميع بمن المختصة بالعقلاء . وعطف الطير على من في
السموات والأرض للتنصيص على عموم من يسكنها ، ولا فائدة الشمول

للجميع ، حتى من يكون بينهما ، فضلاً عما في الطير في هذه الحالة ، وهي استقرارها في الفضاء صافية أجنحتها لا تحركها لتموج الهواء من تحتها ليقوى على حملها ، من الدلالة العظمى على عظيم قدرة الصانع ، فانها تنطق الألسنة بتمجيده وتزيهه ، فان معنى صافات : باسقاط أجنحتها لا تحركها.

وقوله تعالى : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » معناه أن كل فريق من هؤلاء قد علم الله صلاته وتسبيحه . وقوله : « والله عليم بما يفعلون » تقرير لذلك وتثبيت له ، أى قد علم الله من كل فريق ما وجهه اليه من الابتهال والاستعانة به والتوجه والاعتماد عليه في تحصيل ما يتغنى . فالصلاة معناها طلب المعونة منه واللجأ في تحصيل المقاصد اليه ، وهو أمر يشعر به بفطرته كل من حاول تحصيل مقصد وهو فيه بين أن ينال أو لا ينال ، فيصرف جهده في إحرازه وهو بين الرجاء والخوف وبين الشك واليقين ، فتدفعه غريزته الى اللجأ الى من وهبه قواه وأمده بمدده ، فكأنه يستنصره ويستمد منه مزيد القوة ، ويلجأ اليه فيما تعاضى عليه ، والله عليم بما يكون منه من هذا الالتجاء والاستعانة ، فقد علم صلاته كما علم تسبيحه ، فانه عليم بكل ما يفعلون . ويجوز أن يكون المعنى : كل فريق من هؤلاء قد علم بما يكون منه من صلاة هي مختصة به وتسبيح صادر منه وإن لم يستطع شرحه والتعبير عنه ، فشعور النفس شئ والتعبير عنه وشرحه شئ آخر . وعلى هذا التقرير يكون محصل معنى الآية الكريمة واتصالها بما قبلها هكذا :

قد تبين لكم النور الالهي وأثره في نفوس من اهتدى به ، وظهر أن هناك نفوسا عميت عنه فلم تنتفع به مع عظيم تألقه وصفائه ، فكانوا في ظلمات بعضها فوق بعض ، وإن مما يقرر هذا ماترون من آيات ناطقة بأوضح دلالة بتسييح الخالق وهي منبثة في كل مافي السموات والأرض ، لا تحتاج إلا إلى من يفتح عينه ليبصرها ومع ذلك فقد عمى أولئك الخذولون عن رؤيتها ، ألم تنظر إلى نفسك وما منحت من إحكام في التركيب وإتقان في الخلق ، ألم تر إلى ما يحيط بك ويلابسك ويقع عليه نظرك ، وكل قدم منح منها ما هو محتاج إليه في حياته ، ألم تر إلى تركيب الأعضاء ، ألم تر إلى تنوع القوى ، ألم تر ألم تر ، مما لا يكاد يحصى ؟ أليس هذا كله ناطقا بتسييح الله وتمجيده ؟ أليس من وهب كل هذا وكونه عالما بما يصدر عنه ، قد علم الله من كل تمجيده وتعظيمه ، وقد عرف كل ما هو منوط به من تمجيد وتعظيم ؟ والله عليم بما يفعلون .

وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » معناه أنه وحده هو الواهب لكل القوى المنبثة في هذه الكائنات ، فكل شيء منه ومستند إلى هبته ومنحته ، وليس لممكن من الممكنات أثر بنفسه في شيء من هذه الكائنات ، كيف وهو بذاته وصفاته هبة من الحق جل وعلا ، لا قدرة له على تكوين نفسه ولا تكوين شيء فيها ولا أن يهبها ما لم يهبها الله ، فهو المالك لكل شيء ، فله ملك السموات والأرض ، وهو المنتهي والمرجع ، فالكل مبتدأ منه وصائر إليه ، والصيرورة إليه إما بالبعث وهو ظاهر ، وإما على معنى

أن ما يظهر على يد بعض المخالقات من آثار تنسب اليها فهي في الآخر مرجعها إليه ، إذ لا قوة لها من ذاتها . ولا يخفى أن منزلة قوله : والله ملك السموات والأرض مما قبله منزلة النتيجة من الدليل ، ومنزلة الثمرة من الشجرة .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما » تقرير لدليل ثان من أدلة العظمة الالهيه والآثار الربانية ، وهو ما يجري أمام أعيننا ، وننظر اليه ومنتظر نفعه أو نستدفع ضرره ، ومعنى يزجى : يسوق رويدا رويدا ، ومنه بضاعة مزجاة متداولة تساق على يد الكثير من الناس ، ليست من الطرف التي يمتن بها . وإزجاء السحاب معناه سوق بعض قطعه الى بعض . والسحاب معروف ، وهو اسم جنس جمعى لسحابة كشجر وشجرة . والتأليف : الضم مع مراعاة الألفة والتناسب . والركام : المترابك بعضه فوق بعض . والودق : المطر أو القطر . وقيل : البرق . وخلاله : جمع خلل كجبل وجبال ، أى الشقوق التي تكون بين أجزائه . وقوله : وينزل من السماء ، أى من جهة العلو ، أو من السحاب ، لأنه يسمى سماء أيضا لعلوه . وقوله : « من جبال فيها من برد » إما أن تجعل من الأولى ابتدائية ويكون بدلا من قوله : من السماء ، والمعنى ينزل من السماء من الجبال التي فيها بعض برد ، وتكون من الثانية تبعيضية ، أو تكون من الأولى تبعيضية ومن الثانية زائدة أو تبعيضية ، ويكون قوله :

فيها من برد جملة من مبتدأ وخبر صفة لـ جبال ، أى ينزل من السماء بعض جبال فيها برد أو بعض برد . والمراد بالجبال على كل حال القطع العظيمة الكبيرة ، فعلى الأول ، المراد ما يترأى للناظر من السحاب المتراكم المشبه للجبال المتراسة ، وعلى الثانى ، ما ينزل من كتل كبيرة فيها برد ، أو ما يتكون على الأرض من ثلج وبرد حتى يكون كالجبال .
هذا وإن منظر السحاب فى تراكمه ثم نزوله مطراً أو ثلجاً أو برداً ، مما يوقظ النفوس الغافلة ، ويلفتها مهما تحجرت الى عظمة المهيمن على العالم .

وقوله تعالى : « فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء » فيه توجيه النظر الى ناحية أخرى من نواحي دلالة السحاب والظواهر الجوية على عظمة الصانع ، فبعد أن استرعى النظر الى تكوينه ونزوله ، وجهه إلى توزيعه وتصريفه حسب حكمته . وإن من عاشر الأقوام الذين ترتبط حياتهم بالأمطار ويعلقون على نزولها عليهم أو صرفها عنهم الآمال الكبار وهم الكثير فى الناس ، يفهم حق الفهم سر توجيه النظر إلى توزيعه بعدما وجهه الى تكوينه ، فرب منتظر له فاته وهو فى أشد الحاجة اليه ، ورب خائف منه صادفه وهو على أشد الوجع منه ، وربما جاء كلا منهما ما يؤمله ، وعلى كل حال لا يسع أحدا منهم إلا التوجه الى القادر القاهر ، إما بالشكر ، أو باستدفاع الضر ، فقد علم كل الأحياء له فى جلبيه ولا فى دفعه ، فأقر طوعاً أو كرهاً أن لا مهيمن ولا مدبر ، ولا نافع ولا ضار إلا الله الفاعل المختار .

وقوله تعالى : « يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار » توجيه الى ناحية أخرى من نواحي الدلالة في هذه الظاهرة الجوية القوية ، فانك إذا تأملت في السحاب وجدته لم يخرج عن أنه ذرات بخارية تكونت كتلا كبيرة تراكمها بعضها على بعض ، وأقوى مادة فيها هو الماء ، فمن أين للماء أن يولد ذلك الثمر العظيم والضوء القوي الذي يكاد يخطف الأبصار ، وكيف والماء ضد النار يتولد الشيء من ضده ؟ سيلجأ قائل الى التعليل بأن في تلك السحب المتقطعة التي يدخل بعضها في بعض تيارات كهربائية ، فاذا انجذب بعضها الى بعض وكان بعضها سالبا وبعضها موجبا عملت هذا العمل . وتقول : فليكن كل هذا صحيحا ، فمن ذا الذي أودع فيها كل ذلك ؟ وهل نقول إن الدال على عظمة الخالق أمر لا يستند الى ناموس ثابت ؟ إنما نقول : إنه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وقوله تعالى : « يقرب الله الليل والنهار » هو أخذ بالذهن من شهود أثر عظيم الى شهود أثر عظيم حتى يشهد عظمة الخالق بشهود عظمة المخلوق ؛ فينطلق اللسان قائلا : سبحانك ما خلقت هذا عبثا . وكأن إتيانه عقبه ليرشد المتأمل الى أن أمر السحاب وإن أخذ منك ذلك المأخذ لأنه ليس مما يتكرر وقوعه ، فإن بين يديك ما هو أعظم وإن كنت ذهلت عن التأمل فيه لكثرة تكرره ، وذلك هو تقليب الليل والنهار ، يعاقب كل منهما صاحبه ، ويأكل كل منهما من أخيه بالزيادة والنقصان ، وتتقلب الأحوال فيهما من حر وبرد وغيرها ، هذه

كلها أدلة على تمجيد الله ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . وكان
 التعبير بالأبصار ، لأن ما سبق من الأدلة هو بمنزلة المحسوس الذي
 يدركه من له عينان ، وليس من الأمور العويصة التي تحتاج إلى تأمل
 ودقة نظر ، وإيزاوج قوله في أول الدليل ، ألم تر ، يدل ألم تعلم ، ولأن
 أكثر ما سبق هنا أمور بصرية . ويجوز أن يكون المراد بالأبصار
 البصائر ، ويكون بينها وبين الأبصار في قوله : يذهب بالأبصار ، جناس
 تام ، وكل من المعنيين صحيح ، ولكن الأول أدق وأبلغ .

جلاء الآيات
 الحية على القدرة
 الربانية ومكابرة
 المخذولين بعد
 وضوح اليقين

(والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم
 من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن
 الله على كل شيء قدير . لقد أنزلنا آيات مبینات والله يهدي من
 يشاء إلى صراط مستقيم . ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى
 فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله
 ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق
 يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف
 الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون) :

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء » الآية ، متسق مع

ماقبله في نسق واحد ، وهو بيان العظمة الألهية ، والارشاد الى الآثار الربانية ، البالغة منتهى النظام وغاية الاحكام ، الدالة على جلال مبدعها ، وقدرة موجدتها ، وتنزهه عن شريك أو ضريب ، فلو كان هناك إله غيره ما استقام لهما هذا النظام وهذا الابداع سالما من كل ما يشوبه أو يفسده : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والدابة : اسم لكل مادب على وجه الأرض . وقد تستعمل في العرف العام خاصة بذوات الأربع . والمراد هنا كل مادب ودرج من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها . والمراد بالماء إما العنصر المعروف ، باعتبار أنه لاغنى عنه في تخلق الحيوان ، وإما النطفة التي يتكون منها الحيوان . وكون آدم عليه السلام خلق من التراب بلانطفة ، وعيسى عليه السلام خلق بنفخ الروح بلا نطفة أب ؛ لا يقدح في الكلية . لأن المراد بلفظ كل التكثير لا العموم ، كقوله تعالى : « يجي اليه ثمرات كل شيء » فان أريد بالماء العنصر المخصوص فلا ورود لهما ما عرفت أن الماء داخل في قوام كل حيوان ، أو لما قيل من أن أصل المخلوقات الماء ، إذا صححت الرواية في ذلك . وأيما كان فان هذه الآية تشبه في الدلالة على باهر القدرة قوله تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » ففي كل منهما شهادة بعظم اقتداره ، ورجوع الأمر في التخصيص بالأحوال الى مشيئته ، فقد خلق الأنواع من أصل واحد ، وباعد بينها أنواعا وأفرادا ، حتى لا تكاد تجد فرداً يشبه فرداً من جميع الوجوه ، فهو

وحده المبدع والمدير والمتصرف في خلقه كما يشاء . ولما كان لفظ دابة قد استعمل في العقلاء وغيرهم ، وكان الاستعمال الفصيح في هذه الحال أن يغلب العقلاء على غيرهم ، أتى بالضمير بصيغة ضمير العقلاء في قوله : « فمنهم من يمشى » الخ ، فإن ضمير (هم) خاص بالعقلاء . وبهذا حسن استعمال من في قوله : « من يمشى على بطنه » وقوله : « من يمشى على أربع » ذلك أنها لما انتظمت مع العقلاء في ضمير واحد سرى حكم العقلاء إليها في التعبير بمن . وأما قوله : « من يمشى على رجلين » فالأمر فيها ظاهر ، فإنها للإنسان والطير ونحوهما ، وتغليب العاقل أمر معهود . على أن المشاكلة من المحسنات البديعية ، وهي التعبير عن شيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، كقول الشاعر :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقيصا
والحاصل أن لفظ دابة شامل للعقلاء وغيرهم : فعاد عليه ضمير العقلاء في قوله : فمنهم ، لتغليب العقلاء . ولفظ « من يمشى على بطنه » و « من يمشى على أربع » خاص بغير العقلاء ، مع أن من للعقلاء ، فاما متابعة لحكم الضمير السابق ، وإما من باب المشاكلة .

ولما كان سياق الكلام لأظهار باهر القدرة واجتلاء الآثار الدالة على أنه لا يعجزه شيء ، بدأ بمن يمشى على بطنه أي بدون آلة مشى وهي الأرجل ، حتى يبهر السامع لأول ما يلتقي به فيعترف بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولذلك سمي هذا مشياً وإن كان الأكثر تسميته زحفاً ، ولانس حديث المشاكلة الذي قدمناه آنفاً ، ثم ثنى بما يمشى على

رجلين وثلاث بما يمشى على أربع ، لأنها تلي ذلك في الدلالة على المقصود ، فكأنها تتميم لها واستيفاء لما قصد منها . وقد اقتصر على من يمشى على أربع مع أن هناك من يمشى على أكثر ، إما لدخولها في قوله : يخلق الله ما يشاء ، وإما لما قيل إن الدواب التي تمشى على أكثر اعتمادها في الحقيقة حال المشى إنما هو على أربع والباقي كالمساعد للأربع . والله أعلم . ومع ذلك فالأكثر في توجه التأمل إليه هو الأصناف الثلاثة : الماشى على بطنه ، وعلى رجلين ، وعلى أربع ، وأما الأصناف الباقية فكما يتوجه إليها النظر والتفكير لندرتها وقلة ملابسمة الانسان في شئونه لها . وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » كالنتيجة لما قبله . وإظهار لفظ الجلالة للتنويه بالحكم المقصود لوقوعه على صريح اللفظ الكريم ، إذ كان هو المقصود بالذات ، كما أن إظهاره في قوله : « والله خلق كل دابة من ماء » للعناية بأمر الخلق وإفادة أنه من الأحكام الخاصة بالأله لا يشركه فيها مخلوق . والله أعلم

قال تعالى : « لقد أنزلنا آيات مبینات والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقیم . ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » :

بعد أن ساق جل شأنه من الأدلة الباهرة والبراهين الساطعة ما يملأ القلوب إيماناً ، ويشبع النفوس يقيناً ، ويقطع كل شك ، وينفي كل ريب ، شرع جل جلاله يبين حال بعض من أضله الله عن الهدى حتى عمى عن هذه الشمس الساطعة ، ولم تفده تلك الحجج القاطعة ، لتعلم أن هدى

الله هو الهدى ، وأن الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، حتى يدوم للمؤمن التجاؤه الى ربه ، ويبقى هو موثله في كل أمر مهما تقوّت أسبابه ، فلا يأمن مكر الله ، ولا يعول على قواه ، ولا يخرج لحظة عن الحظيرة المباركة التي هي منزلة بين الخوف والرجاء ، ومعناها الرجوع اليه في كل الأشياء ، فقال : « لقد أنزلنا آيات مبيّنات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » مردفها بقصة أولئك المنافقين التي ساقها بعد هذه الآية على وجه يجعل هذه الآية كالقدمة لذكرها ؛ حتى يكون الكلام كله على سنن واحد ، وفي نسق متسق .

وسبب نزولها : أن رجلا من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فدعا اليهودى للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا المنافق للتحاكم الى كعب بن الأشرف ، فرارا من التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دعا اليه اليهودى ، كأن كلا منهما يعلم أن الحق في جانب اليهودى ، ويعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجيد عن الحق ، فلذا كانت رغبة اليهودى في التحاكم اليه عليه السلام بينما يطمع المنافق في محاباة كعب بن الأشرف له حين يقول له : لقد دعوته الى التحاكم اليك وكان يدعوني للتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم . ثم انتبيا للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكم لليهودى ، فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام ، وقال : بل نتحاكم الى عمر ، وكأنه حدثته نفسه الخبيثة بالطماعية في عمر كما كان يطمع في كعب بن الأشرف ، فرضى اليهودى وتحاكما الى عمر ، فقال اليهودى

لعمر رضى الله عنه : تحا كمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى
لى فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أحق هذا ؟ قال : نعم ، فقال :
مكانكما حتى أخرج اليكما ، ودخل بيته وخرج بسيفه فضرب عنق
المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله تعالى
ورسوله صلى الله عليه وسلم . ووجه ذلك أن الرجل قد أعلن الردة
برده قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهره بأنه قد حاف عليه ،
وحكم المرتد القتل ، وقد تحا كما اليه ورضيا بقضائه . فبذلك لا يكون
مفتاتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أن جبريل قال
للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عمر قد فرق بين الحق والباطل ، فسمى
الفاروق من حينئذ .

وروى فى سبب نزولها أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين على كرم
الله وجهه شركة فى أرض فتقاسماها فوق لعلى جزء لا يصل اليه الماء
إلا بمشقة ، فقال المغيرة . بعنى أرضك ، فباعه إياها وتقابضا ، فقال الناس
للمغيرة : اشتريت أرضا سبخة لا يصل اليها الماء ، فرجع على على يقول :
إنما اشتريتها على شرط أن أرضاها ولم أرضها ، فقال على : بل اشتريتها
وأنت تعرفها ، وقبضتها وأنت تعرف حالها ، لا أقيلها منك ، ودعاه
الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال المغيرة : أما محمد فليست آتية فانه
يبغضنى وأخاف أن يحيف على . فنزلت الآية .

وعلى هذا كله يكون اتساق الآية بعد الآى السابقة التى جلت
من البراهين ماجلت ، هكذا : هذه الأدلة ترونها تجلى عليكم فلا تدع

مرية في نفس ، ولا يعترها شك ولا لبس ، وهكذا شأن آيات الله ،
لقد أنزل آيات ميينات ، أى تبين الحق من الباطل والرشد من الغي ،
أو آيات يينات في نفسها ، يقال بين بمعنى تبين ، كما يقال قدم بمعنى تقدم ،
إلا أن وضوح الآيات في نفسها وبيئتها السبل تبيينا وافيلا لا يعني ، عن
توفيق الله للهدى ، بل من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له
وليا مرشدا ، بل قد يصل الأمر ببعض من خذلهم الله الى أن يعلم
الهدى وموضعه والزيغ وموقعه ثم يعرض عن الحق إباء واستكبارا ،
أو طمعا في عرض الدنيا واستهتارا ، ومع ذلك يكون قد أعطى العهد
على نفسه ، وأعلن التزام حكم الايمان وطاعة الله ورسوله ، ثم يتولى
معرضا عن حكم ربه لأنه لم يوافق هواه ، كما حصل من هؤلاء المنافقين ،
فما كان إعراضهم عن خوف من حيف كما يتشددون ، بل أولئك هم
الظالمون . وهل أدل على ذلك من أنهم إن يكن لهم الحق يأتوا
اليه مدعنين ؟

قوله تعالى : « لقد أنزلنا آيات ميينات » جيء بها هكذا بلا عطف ،
لأنه ابتداء الشروع في شرح حالة جديدة ، وهى حال المنافقين الذين
يعلنون الايمان ويتجلى لهم البرهان ، ومع ذلك يتمادون في طغيانهم .
والكلام المبتدأ من جديد لاجابة به الى العطف على ما سبقه ، وإن كانت
مناسبتة ظاهرة كما شرحناه . ولم يقل : أنزلنا إليكم ، كما قال في الآية
السابقة ، لأن الكلام فيما سبق كان لتوجيه نظرهم الى الأحكام التي
سيقت لهم ليستبصروا بها ويعرفوا مقدارها ، فيحرصوا على امتثالها

ثم يأخذوا منها فائدة أجل ، وهي علم أنها لم تصدر إلا عن النور الالهي ، فهو وحده الجدير بأمثال هذه الهدايات ، فلذا قال : أنزلنا إليكم . وأما هنا فإن الكلام مسوق لبيان حال الآيات في نفسها ، وأن الله قد أنزلها بينة مبينة ، لا يشك فيها شك ولا يرتاب فيها مرتاب ، ومع ذلك يصادف الخذلان بعض الناس المطلعين عليها ، فتعشى أبصارهم ، وتعمى بصائرهم عنها ، وهذا شأن يرجع الى نفس الآيات لا يختص بالمخاطبين . وقوله : « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » لتقرير أن جلاء النور لا يغني عن الرجوع الى واهب العقول على ما سبق . وقد قال القائل :

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقوله تعالى : « ويقولون » معناه أن من الناس مع وضوح هذه الآيات من يقول بلسانه آمنا وأطعنا ثم يتسلل فريق منهم ويعرض عن حكم هذه المقالة ، والباقي منهم عرضة لمثل هذا يقرون إخوانهم عليه ، فأصحاب هذه المقالة الجوفاء الكاذبة في تصوير معتقداتهم ليسوا من المؤمنين في شيء . وعلى هذا فضاير « يقولون » للمنافقين ، وهم وإن لم يسبق ذكرهم فإن بقية الكلام مبين للمراد . ومثل هذا فيما يجري بين الناس في مخاطباتهم أن يبدأ الرجل كلامه بمثل هذه العبارة : إني أعجب من شئون هذا الزمان يا أخي : يعاهدونني على أنهم معي الى آخر الأمر ، وبمجرد أن تبدر أول بادرة مكروهة لا أجد حولي منهم أحدا ، فقد تعاهد معي فلان وفلان الخ . وتجد للكلام تمكناً

في النفس ليس له إذا بدأت بتعيين المحدث عنه بادیء ذي بدء . وعلى هذا فقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » إشارة الى القائلين هذه المقالة جميعهم .

وجوز أن يكون ضمير يقولون لكل من أظهر الايمان صادقا أو كاذبا . وقوله : يتولى فريق منهم ، المراد به المنافقون . والاشارة في قوله : وما أولئك بالمؤمنين ، للفريق خاصة ، وهذا مع ظهوره لايساوى الأول في دقة الأسلوب ، فنميل الى ترجيح الوجه الأول في تفسير الآية الكريمة .

ومعنى يتولى : يعرض . والأتيان ثم التي معناها التراخي في الترتيب للاشارة الى أن التولى أمر بعيد الحصول ما كان يظنه العقل ، فن صدر منه الاعتراف بالايمان والطاعة فن البعيد أن يعطى على نفسه عهدا بالطاعة بعد تلك الآيات البينة ثم يتولى عن حكم الله ورسوله . وأما على الوجه الثاني فعنها استبعاد تولى هذا الفريق الى طريق الشقاء والضلال بعد أن اندرج في زمرة المؤمنين ، فما كان يظن بعاقل أن يتولى عن فرقة الراشدين بعد أن اندرج في زمرتها ، الى فرقة الغاوين .

وقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » إذا رجع الى كل القائلين يكون معناه أن الذين يقولون آمننا ثم يتسللون فيتولى فريق منهم والباقي سكوت عليهم موافقون على مسلكهم — هؤلاء كلهم ماهم بالمؤمنين ، وإذا رجع الى الفريق المتولى خاصة فأمره ظاهر . وأيا كان فاختيار لفظ

أولئك في التعبير عنهم دون الضمير ، لتصويرهم بالصفات التي تجردوا من الايمان بسببها ، وكونه بصفة البعيد لتحقير منزلتهم وإقصائهم عن أن يلتفت اليهم أو أن يكونوا بمقربة من ساحة الخطاب . ويشبه هذا من بعض الوجوه قول الناس في مخاطبتهم حين الذم أو الاشمزاز : (البعيد) أو (الأبعد) . فهي لمثل هذا في أغراضهم وإن لم يفطنوا الى تصويره حق التصوير . وقوله : بالمؤمنين ، بصيغة المعرفة باللام ، للتنويه بعظمة المؤمنين ، كأنه يقال : ليس أولئك بالمؤمنين المعروف حالهم الظاهر أمرهم الذين لا يلتبسون ولا يخفون . وقوله : من بعد ذلك ، مبالغة في استبعاد أن يصدر هذا التولى ممن يعقل ، من بعد أن اندمج في المهتدين ، واعترف على نفسه بالايمان ، وأعطى على نفسه حكم الطاعة ، ووضحت له الآيات البينة ، أفمن بعد ذلك كله يكون التولى ؟ والاشارة التي للبعيد في لفظ ذلك لتعظيمه . وما أكثر النكات التي يعطيها اسم الاشارة في البلاغة العربية !

وقوله تعالى : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق

منهم معرضون » :

من تمام تصوير حالهم الشنيعة ، فقد وصفهم أولاً بالتولى عن حكم الايمان في الجملة ، ووصفهم هنا بأظهار الاعراض والتمرد عند دعوتهم للتحاكم . وقوله : « ليحكم بينهم » أي وبين خصومهم . والتعبير بيحكم بينهم دون عليهم ، ليقطع ماعسى أن يتماسوه عذرا لهم من أنهم فروا من الحكم عليهم ، وكل امرئ يخاف من أن يحكم عليه ، فلذا

عدل الى هذه العبارة الدالة على أنهم دعوا ليحكم بينهم ، عليهم أولهم .
وقوله : « إذا فريق منهم معرضون » : « اذا » هنا تسمى اذا الفجائية
وهي جواب لأذا الأولى الشرطية . والمعنى أنهم إذا دعوا للمحاكمة
فاجأ الداعي إعراضهم وأنهم مصممون على الاعراض مصرون عليه من
قبل . وهذا سر العدول عن لفظ أعرضوا في الجواب الى هذا ، فكأن
المعنى أنهم منطوون على الاعراض عن حكومته مصممون على ذلك
من قبل الدعوة ، فاذا جاءت الدعوة فاجأها إعراضهم الثابت المستقر
وظهر ما كان خافيا منهم . وكان قوله : فريق منهم ، بدل قوله : إذا هم
معرضون ، للتوطئة لقوله : وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مدعين .
وكأنه يبادر بأفادتهم ليسوا كلهم معرضين عن حكمه على كل حال ، بل إنما
يعرضون حين يعلمون أن الحق عليهم لا لهم ، فان علموا أن الحق بيدهم
وقليلا ما يكون ذلك بدليل التعبير بان التي للشك أو القلة والندرة في
الشرط — أتوا اليه مدعين طائعين مستسلمين لحكومته ، أو مسرعين
مبادرين ، كما روى في تفسيره ، فقد روى تفسير مدعين بمستسلمين
وبمسرعين .

قال تعالى : « أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله
عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » :

هذا أشبه شيء بما يسمونه السبر والتقسيم ، ليبطل الباطل ويحق
الحق ، فقد ردد أمرهم في التقسيم بين أشياء في سياق الاستفهام
الإنكارى ليخلص الى النتيجة المحتومة ، وهي بيان أن الباطل الحقيقي

على إعراضهم إنما هو توغلمهم في الظلم حتى كأنهم وحدهم هم الظالمون لا يشاركونهم في ذلك الظلم أحد . ومعنى الآية : أعميت بصائرهم فلم يدركوا رسالته صلى الله عليه وسلم ؟ فمرض القلوب معناه عمى البصائر عن الإدراك مع وضوح الدلائل ، أم هم في شك من أمره عليه السلام فلا يدرون أيوفق في حكومته أم لا ، أم لحقهم الخوف من الحيف لما شعروا به من أنه عليه السلام يبغضهم ، كما صرح بذلك بعضهم علنا ، فأعراضهم خوف على حقهم أن يضيعه بغض الرسول عليه السلام لهم ؟ كلا ، لم يكن شيء من ذلك هو الباعث . فلو كان الباعث لهم على الاعراض أحد هذه الأشياء ، فإذا يأتون مدعنين طائعين مستسلمين مسرعين إن كان لهم الحق ، ويخصون إعراضهم بحالة ما إذا كان الحق في جانب خصومهم ؟ فهل هذا إلا الشيء واحد وهو عامهم أنه لا يقضى إلا بالحق وأن الحق في جانب خصومهم ؛ فهم جازمون بأنه لا يحكم إلا بالحق وأنه لذلك سيحكم عليهم ؟ وهذا كقول القائل : إذا لم تكن مدينا لي حقا ، فإما إذا تخاف من توجهي إلى محكمة العدل ؟ فهؤلاء لم يكن الباعث لهم على الاعراض عمى قلوبهم عن الحق وإن كانوا عمى القلوب حقا ، ولا ارتيابهم في عدالة حكومته عليه السلام ولو كانوا غير مؤمنين ، فقد أذعن الكل إلى أنه عليه السلام لا يقضى إلا بالحق ، وما اتهموه بكذب ولا جور حتى كبار المشركين في الأشرار ، وما كان ذلك لخوف من حيف ، فقد علموا أنه أبعد من أن يحيف في حكومته ، وإنما باعهم على الاعراض محض تمسكهم بالظلم . وعلى

هذا فلاستفهام إنكارى ، وليس محل الإنكار هو مرض قلوبهم ومأمعه ، فهم مرضى القلوب ولاشك ، وإنما محل الإنكار أن يكون هذا هو باعث الاعراض ، بل باعث الاعراض هو ظلمهم وتمسكهم بغير الحق .

وإنك لتعرف موقع البراعة في أن يجمع الاسم الكريم إلى اسمه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله » وفي قوله : « أن يحيف الله عليهم ورسوله » ففيه من التنويه بشأن المصطفى صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، فقد بين أن حكمه حكم الله ، وأن ما يصدر منه في حكم فهو صادر من الله ، فكيف يتصور أن يصدر منه حيف ، بل قد جرىء بالآية على وجه يدل على استحالة ما يخافونه ، على فرض أنهم يخافون ذلك ، فقد قيل : أم يخافون أن يحيف الله عليهم ، وكيف يعقل من الله حيف ؟ ! ثم عطف عليه لفظ رسوله كأنه ليفهم أنه لا يمكن الحيف من الرسول إلا إن أمكن الحيف من الله ، وهذا مستحيل قطعاً ، والنبي لا يحكم إلا بما أمر به ربه ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فنسأل الله أن يجعلنا ممن تمسك بهداه لا ممن اتخذ إلهه هواه ، فأصله عن سبيل الله :

رب إن الهدى هداك وإيا تك نور تهدى بها من تشاء

شرح حال
المخلصين في
إجابة الدعوة
الالهية
والمرادفين
فيها. ا. ثقافا

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين):

لقد رأيت كيف قص علينا جل شأنه في الآيات السابقة حال المنافقين وذئبتهم ، ومقاتلتهم المتقلبة مع أهوائهم ؛ وأنهم يدعون أنهم آمنوا بالله وبالرسول ، وأنهم أطاعوا ، ثم يتولون معرضين عن مقتضى حكم الايمان ، خارجين عن حكمه ، فهم وهذه حالهم ليسوا من المؤمنين في شيء . وزاد ذلك توضيحا بما يكشف القناع عن تلبسهم ؛ ويفضح مكنون أستارهم ، إذ يتكشفون على حقيقةتهم حين يدعون الى الله والى الرسول ليحكم بينهم ، فترام حينئذ : إن كان الحق بيد خصومهم أعرضوا عن حكم الله ورسوله علما منهم أنه لا يقضى إلا بالحق ، وإن يكن لهم الحق يأنوا اليه مدعين .

هذه الحالة لا يصح أن تصدر عن صادق في دعوى الايمان . هذه المقالة ليست شعار المخلص فيما يزعم من الطاعة والانتقاد . هذه

الذئبة ليست صفة المستيقنين ، إنما هي صفة الكاذبين المنافقين ، الذين لا يرتادون إلا مصالحهم الشخصية مهما صادمت قضية الحق والعدالة . أما ما يقابل هذه المقالة ، وذلك هو القول الثابت المطابق ظاهره لباطنه وهو قول سمعنا وأطعنا حين يدعون للحكم بينهم ، فأنما هو قول المؤمنين وحدهم ، لا ينتظر أن يصدر من تلك الفئات التي لا تعرف إلا أشخاصها ، ولا تقدر إلا مصاحبتها ، وبإيبتها كانت تنظر إلى صالحها بالنظر الصائب ! إذا لعامت أن صالحها الحقيقي مرتبط بالصالح العام ، فهو المستقر الثابت الدائم . الكافل للسعادة العامة الشاملة المستقرة . ذلك هو النظام الدائم الذي يعرف الكحل طريقه ، فيسلكونه ليصلوا إلى ما ينبغي أن يكون به عمار الكون . ذلك هو العدل الذي هو أساس الملك الذي يسند العمران ، ويسكفل الطمأنينة والأمن بين الناس أجمعين .

إذا تأملت ما شرحناه لك في مقارنة الآيتين إحداهما بالأخرى ، لتتأمل اليهما نظرا واحدا ، عرفت السر في نصب (قول المؤمنين) على أنه خبر كان ، والمصدر المأخوذ من قوله : « أن يقولوا سمعنا وأطعنا » اسم كان مؤخرا . وإن كان يجوز في العربية أن يكون كل منهما خبرا لكان واسما لها ، فكل منهما معرفة . وقد قرئ في غير القراءة المشهورة برفع (قول) على أنه اسم كان . وزعم بعض المفسرين أنه أقعد من جهة المعنى ، وذلك لعدم تنبيههم لما شرحناه لك من أن الكلام في الآية الأولى كان لبيان مقالة المنافقين العوجاء ، فخرى

بقارئها أن يتطلع الى المقالة التي تقابلها ، وهي المقالة الثابتة الصادقة ،
وينتظر أن يعرف لمن تكون ، ومن ذا الذي يتحلى بها . فكانت
الافادة بما يتطلع إليه وتستشرف النفس لمعرفة ، وقيل فيها : هذه
الكلمة القويمة الثابتة إنما هي قول المؤمنين ، لا ينتظر أن يتحلى بها
سواهم . وكان تقديم الخبر على الاسم للمبادرة بالتنويه بحالها ،
والثنيه على شرف مقدارها ، بأنها حلية المؤمنين الصادقين .

ولا يفوتك أن تقييد الخبر وهو « قول المؤمنين » بقيد « إذا
دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم » محط قصد ، وهو يجعل الفائدة
منتظرة أيما انتظار . أي أن هذا التفويض المطلق والاذعان بالسمع
والطاعة بلا شرط ولا قيد هو شعار المؤمنين حين يدعون ليحكم بينهم .
ولا تسأم من هذه الجملة النفيسة ، فقد دعانا إليها مارأيناه من حيرة
بعض المفسرين في الترجيح بين قراءة النصب وهي المشهورة ، وبين
قراءة الرفع . ولا يستطيع الناظر في تفسير كلام الله — وهو أبلغ كلام
— أن يتخلى عن النظر في دقائق أسرار البلاغة العربية .

وقوله تعالى في بيان مقالة المؤمنين « سمعنا وأطعنا » أمعناه :
سمعنا دعوتكم للتحاكم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأطعناكم فيما
تطلبون ، أو سمعنا قولكم سماع انقياد ، وأطعنا الرسول فيما حكم ، أو سمعنا وأطعنا
إطاعة ثابتة على كل حال ، ليست متقلبة ولا معرضة للزوال ، كما كانت طاعة
أولئك الكاذبين المنافقين . وعلى كل حال : فالطرفان وإن اشتركا في إظهار
الطاعة ، فقد اختلفا في افتراق في محييصها ، فان الطاعة المقيدة بموافقه

هو المطيع ليست من الطاعة في شيء، وإنما هي اختياره لما فيه حظ له، فلا بدع أن كانت غير جديرة بأن تسمى طاعة مطلقا. من أجل ذلك جاء قوله تعالى: «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقنه فأولئك هم الفائزون» بعد بيان حال المؤمنين فيه لفظ (يطع) على إطلاقه، لم يقيد بمثل طاعة صادقة، أو طاعة صحيحة، أو طاعة في كل حال، إشارة إلى أن مازعموه طاعة ليس من الطاعة في شيء، وإنما هي تسمية كاذبة

ومعنى «من يطع الله ورسوله» أي يطع الله فيما كلف، ورسوله فيما بين، أو يطع الله فيما فرض، ورسوله فيما سن. وعلى كل حال: من يطع الرسول فقد أطاع الله. وإنما نص عليه بالذكر تنويها بشرفه صلى الله عليه وسلم، وتنبيها على أن طاعة الرسول مطلوبة للمرسل، جل وعلا. وقوله: «ويخش الله» أي يخشى عذابه فيما مضى له من ذنوب، ويتقنه فيما يستقبل منها. وخشية عذابه في الذنوب الماضية باعثة على الندم على ما فرط منها، وهي تستتبع اتقائه فيما يستقبل، وذلك من أركان التوبة: الندم على الماضي، والعزم على عدم الوقوع في الذنب في المستقبل. ولذلك قال بعض المفسرين إن هذه الآية على إيجازها حاوية لما ينبغي أن يكون من المؤمنين: طاعة الله، وطاعة رسوله، وخشية عذابه لما مضى، واتقاؤه فيما يستقبل. وكيف لا وهي مستجمعة لامثال الأوامر في: يطع الله ورسوله، واجتناب النواهي في: يخشى الله ويتقنه؟ فما أحقها أن يرتب عليها الفوز بالآمال، والظفر بالمطلوب!

فلذا قال جل شأنه : « فأولئك هم الفائزون » بهذا التعبير الدال على حصر الفوز فيمن هذه حاله .

ولقد قلنا مرارا : إن اختيار اسم الإشارة « أولئك » للتعبير في مثل هذه المواطن ليدل على أن المحدث عنه استحق هذا الحكم من أجل الصفات السابقة التي استحضرت مع موصوفها بالإشارة إليه . والفوز : النجاة والظفر بالخير ونيل المقصود . وقد قرىء يتقه بأسكان القاف ، وهي قراءة حفص . وكأن وجهها أن اللفظ وإن كان مركبا من الفعل والضمير الذي هو الهاء ، إلا أنه لاتصاله نزل منزلة الكلمة الواحدة . وهذا الوزن كثيرا ما يسكن وسطه للتخفيف ، كلفظ كتف . وقرىء بكسر القاف على الأصل مع تسكين الهاء على أمها هاء السكت أو هاء الضمير ، ونزل الوصل منزلة الوقف . وقرىء بتحريك الهاء بأشباع الكسرة وعدم إشباعها .

قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا ، طاعة معروفة ، إن الله خير بما تعملون » :

عود على بدء ، وحكاية لحال آمن أحوال المنافقين ، زيادة في فضح حالهم ، وكشفا لمستور قناعهم ، وتقظيعا لشنيع أعمالهم ، حتى يكمل النفور من تقليد هم ، والسير على معوج خططهم . وكثيرا ما نرى في القرآن الكريم عند الكلام على المنافقين أن يفيض القول في شرح سوءاتهم ، وتقليب الأساليب الفاضحة لهم . وما أجدر من يزعم أنه يخدع الله ورسوله والمؤمنين بأن يكشف حاله وتغلن مخازيه : والقسم : اليمين .

وأصله خاص بيمين القسامة ؛ وهي اليمين التي توجه إلى القبيلة في نفي تهمة القتل عن أحدهم ، فيقتسمونها له ، ثم غلب استعماله في مطلق اليمين . وقوله : « جهداً يمانهم » أى أقصاه ومنتهاه ، كأنه جهديمينه ، أى بلغ أقصاه . وهو منصوب على الحال ، أى جاهدين أيمانهم ، أو على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى يجهدون أيمانهم جهداً .

وقوله : « لئن أمرتهم ليخرجن » جواب القسم ، على أنه حكاية لما كان منهم لاحكاية لمقاتلتهم ، وإلا كان مقتضى الظاهر : لئن أمرتنا لنخرجن . ومعنى أمرتهم ، أى بالخروج ، كما يدل عليه الجواب ، وهو ليخرجن . ومعنى الخروج إما للجهاد ، أو الخروج عن أموالهم وما يمتلكون

وقوله تعالى : « قل لا تقسموا » رد عليهم ، وتبكييت لهم ، وكشف خداعهم . ومعناه : أنكم تقسمون لتثبتوا دعواكم في نفوسنا ، ولكن ذلك لا يفيدكم شيئاً ، فطاعتكم طاعة معروفة ، هي طاعة لا تتجاوز اللسان والشفتين ، ولا يخفى من أمركم من شئ ، فيكون طاعة معروفة خبر مبتدأ محذوف أى فطاعتكم معروفة حقيقتها ، أو فالطاعة في حقيقتها أمر معروف ، وليس مما يثبت أو ينفيه دعوى اللسان ، وإنما هي آثار ظاهرة لا يحتاج من اتصف بها إلى ادعائها ، ولا ينفى عن حرمتها أن يدعيها ويقسم عليها . فتكون « طاعة » مبتدأ ، وجاز الابتداء به لأن المقصود حقيقة الطاعة وماهيتها ، لا فرد منها الذى هو محل إبهام يمنع من صحة الابتداء بالنكرة . أو المطلوب منكم طاعة معروفة بينة لا تلك المراوغة .

ولعل الأظهر الوجه الأول ، وهو أن التقدير : فطاعتكم مطاعة معروفة ، أى بأنها اسمية لافعلية . ويشهدله إردافها بقوله تعالى : « إن الله خبير بما تعملون » أى فقد كشف الله سركم ، وهو لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف تحدثكم أنفسكم أن يخفيه عن نبيه الذى يوحى إليه ما فيه الهداية والارشاد ؟

يقول تعالى بعد ذلك خطاباً بالنبيه صلى الله عليه وسلم : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أى قل لهم : لقد كشف حالكم ، وتبين أمركم ، ولا يغنيكم مجالكم ، فخبر لكم أن تعرضوا عن هذا السبيل الملتوى الذى لا يفيدكم ، وأن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم . هذا هو سبيل النجاة لكم . فالمقول لهم فى قوله : « قل لا تقسموا اطاعة معروفة » فضح وتو بيبخ وتبكيكيت . والمقول لهم فى « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » إرشاد وتعليم . فالكللامان نوعان مختلفان . ونظير هذا فى متعارف الناس : كثير . يعمد المرء مع مخاطبه حتى يكشف دخائله ، ويبين تغريبه : ثم يقول له : لا لا ، ليس هذا هو الطريق ، يجب أن تعمل كيت وكيت ، ويرى نفسه قد انتقل من فن فى القول الى فن آخر . وهذا هو السرفى تكرير لفظ (قل) مع (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وعدم الاكتفاء بتسليط قل على لا تقسموا وعلى أطيعوا .

و بعد : فلعلك تشعر بالروعة العظيمة فى ذلك الأمر الجازم الحازم ، يلقى عليه بأبجاز ، فكأنه قيل له عليه السلام : قل لهم هذه الكلمة ، وأمرهم هذا الأمر وكفى ، ولا عليك بعد فيما يكون منهم . وإن هذا

ليشعر بالعظمة والرهبة ، تملك الأمور وتأخذ عليه نواحيه . وقوله بعد ذلك . « فان تولوا » الخ ، يحمل من مكملات الرهبة والتحذير ما يحمل . ثم إن إعادة لفظ أطيعوا مع جانب الرسول يفيد أن طاعة الرسول مأمور بها بعناية مستقلة ، وذلك من بواعث الامتثال ، إذ كانت طاعته عليه السلام قد أمر بها الله ، فيصدق : من يطع الرسول فقد أطاع الله . وقوله تعالى : « فان تولوا فأنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » تولوا ، أى تعرضوا . وأصله تتولوا ، فهو خطاب لهم بعد خطابه صلى الله عليه وسلم . وتغيير الأسلوب بالالتفات كأن فيه إشارة إلى أنه قد أمر فامتثل وقيل له : قل لهم : أطيعوا فقال لكم ، إذ شأنه أنه متى أمر بادر بالامتثال ، صلى الله عليه وسلم ، وليس كشأنكم يحتاج إلى التكرير والتحذير ، ويوجه إليه التخويف ، ليقطع عن التسويف ، لا ، بل متى قيل له : قل ، فقد قال حتما فيبقى الكلام معكم أنتم ، فان تعرضوا عما أمركم وتولوا عنه ، فما ذلك بضاره شيئا ، فأنما عليه ما حمل وقد أداه ، وعليكم ما حملتم ، فانظروا لأنفسكم ، وأنقذوا أنفسكم من الضلال الذى يردكم ، والخيرة التى توقعكم فى التهلكة ، ولا عذر لكم فيما تنكصون ، ففقدت لكم طريق الرشاد والهدى ، وذلك فى طاعته واتباع أمره ، وذلك قوله عز وجل : « وإن تطيعوه تهتدوا » فهو ترغيب بعد ترهيب . وفى ذلك من سوقهم إلى ما فيه سعادتهم ما فيه ، فقد دفعوا بالرهبة ، وجذبوا بالرغبة . وذلك هو الأسلوب الحكيم : تملأ قلب الجانح المغتر رعبا مما هو فيه ، حتى إذا

أخذت عليه الجوانب وتلفت يمينا وشمالا ، فتحت له طريق الخلاص ،
مرغبا له فيه ، فينساق اليه طوعا أو كرها .

وقوله عز وجل : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » معناه : فلن
يضره تأخركم عن إجابته ، ولا يحيق سوء عملكم إلا بكم . وأما هو فما
بعثناه عليكم وكيفا ، ولا يتضرر من قبلكم فتيلًا « فلا تذهب نفسك
عليهم حسرات » .

فالقصر ليس معناه أنه طوبى بالبلاغ ويتركهم بعد ذلك فلا يعالجهم
بوسائل العلاج الناجعة ، بل معناه أن ضرر معصيتهم حائق بهم وحدهم ،
ولا يضره ضلال من ضل متى قام بما طلب منه ، فهى كقوله : « فأنما عليه
ما حمل » وهذا يحمل الآيات التى من هذا القبيل ، مثل قوله : « وما أرسلناك
عليهم وكيفا » . « ما على الرسول إلا البلاغ » . « فأنما عليك البلاغ وعلينا
الحساب » وغير ذلك كثير . فمن فهم منها أن وظيفة الرسول مجرد التبليغ ،
وليس منها أخذ الناس بصنوف التربية اللائقة بمقتضى الحكمة من شدة
واين وغيرهما ، وكل من ذلك فى موضعه ، فقد جهل .

وبعد : فلعلك ترجع الى الآية الكريمة متأملا متديرا ، لتشهد
ماحتوته من معالجة النفاق ، وهو من أشد أمراض النفوس استعصاء
وأعظمها على المجتمع الانسانى خطرا ، فترى كيف بدأ بتحليل نفسيتهم ،
والتعجب مما يجول فى خواطرهم ، بعد ما بزغت شمس الهداية ،
ووضحت أنوار الآيات البينات التى أنزلها الله على عباده ، ثم أطلعهم
وأطلع المؤمنين على حركات نفوسهم متتبعالها على وجه يساير الخواطر

التي تعتر بهم ، حتى يخزوا مما اقترفوا ؛ وحتى يأخذوا من ذلك برهاناً قاطعاً على أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ثم لم يدعهم عند تشخيص المرض ، بل أردفه بالدواء ، يحثهم على التزود منه والاستشفاء به ، واعد لهم بالهداية متى سلكوا طريقه ، مزيجاً عنهم ما قد يهيج بنفوسهم من أن للأمر مصالحة ذاتية تعود عليه منهم ، فتدفعه إلى الإلحاح عليهم في أن يهتدوا ويرشدوا ، اللهم الاما وعد الله به من كان سبباً في الهداية وتوصيل الرحمة الالهية لأحد من العالمين ، كما جاء في الخبر « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

نسأل الله تعالى أن يلمننا الهداية والرشاد ، وأن يوفقنا لطريق

الخير والساداد ، إنه سميع مجيب .

وعد الله المؤمنين باستخلافهم في الارض والتمكين لهم

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وما أولئك النار لئيبس المصير) :

لقد أرسلت الآي السابقة على المنافقين تلك الصيحة الهائلة التي أزعجتهم ، وهتكت سرائرهم ، وفضعت ضمائرهم ، وألقتهم الحجارة ، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، وأقامت في وجوههم الحجة على نفاقهم ، مأخوذة من قبيح أعمالهم ، فلم يبق إلا أن يؤمن المؤمنون على تقاء ، وأن ينسحب المنافقون عن حظيرة الايمان مكشوفين مفضوحين . ولما حاولوا ستر فضائحهم بالقسم على الطاعة رد عليهم بهذا الرد الشديد ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : « لا تقسموا طاعة معروفة » إلى آخر الآية .

ولما كان مثل هذا من شأنه أن يدعو إلى التفكير ، لاسيما عند قوم هم في دور البناء والتكوين ، يهمهم أن يكثر سوادهم ، وتمكن قوتهم ويزداد الاقبال على ما يدعون اليه من هدى الله ودين الحق ، ومن حولهم العرب والأمم تناوئهم وتناصبهم العدا ، فهم بحاجة إلى أن يزدادوا وينضم اليهم غيرهم ، وليس من السهل عليهم أن ينتقصوا وينفصل منهم من انضم اليهم ، فلعل خاطرا يهيجس في بعض النفوس قائلا : « لعل الحكمة كانت في أن يبقى أمر أولئك مستورا ، فربما كان في انضمامهم تقوية لعامل القوة وتكثير لسواد الأمة » فجاءت هذه الآية الكريمة مطمئنة لقلوب المؤمنين ، مسكنة لروعهم ، تزف اليهم البشرى السارة التي تقر أعينهم ، وتشد أزهرهم ، وتثبت عزائمهم ، ذلك وعد الله بنصره للمؤمنين ، بل باستخلافهم في الأرض ، وتمكين دينهم بتثبيت قواعده ورسوخ بنيانه ، إذ يقول جل شأنه : « وعد الله

الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض : الخ .
 ووعد الله ناجز لا محالة ، وقد ناطه بالايمان وعمل الصالحات . وقد
 حقق الله وعده ، فاستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،
 ويمكن لهم دينهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا .

ولا يزال هذا شأن من آمن وقام بحق إيمانه ، وعمل الصالحات
 التي أمر الله عباده أن يقوموا بها ، فأقام العدل ، وضبط النظام ،
 ونشر الأمن ؛ وأخذ الحيلة وإعداد القوة كما أمر الله سبحانه
 وتعالى .

والتمكن للدين تثنيت قواعده ، وإعزاز جانبه ، ليرتب على
 ذلك ثباته واستقراره ، وعدم زعزعته بقيام حجة ضده ، أو وهن
 البراهين المؤيدة له ، وكأنه من التمكن في المكان ، أى الاستقرار
 فيه ، والسلامة من الزعزعة . وفي إضافة الدين لضميرهم تربية لوجه
 الامتنان عليهم . كما أن في وصفه بالذى ارتضى لهم تنويها بشأنه وإعلاء
 لقدره . وقوله : « وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا » فيه طمأنة للمؤمنين
 واقتلاع لجرائم الخوف من أفئدتهم ، ذلك الخوف الذى يلم عادة بقلوب
 الفئة القليلة إذا تألب عليها أعداؤها الكثيرو العدد ، الشديديو البأس
 والطول . وكان مايساور بعضهم من الخوف الشديد يدعوهم الى الحرص
 على تكثير سوادهم ، بالانغماض عما يصدر من بعضهم ، وإن كان كاشفا
 عن سوء النية ، وفساد الطوية ، ليؤمن من جانب أولئك المتحرفين بعض
 الأمن بكونهم فى صفهم ولو بحسب الظاهر ، فجاءت الآية لتثنيتهم

وتقوية نفوسهم ، وطمأنينتهم على أن الفوز مضمون لهم ، وأن النصر قريب منهم ، وأن هذه المخاوف ستستبدل بالأمن .
ثم ذيل الآية بما يقرر هذا الوعد ويثبتته في النفس أبلغ تثبيت فقال عز من قائل : « يعبدنني لا يشركون بي شيئا » . وفي هذا الأسلوب البليغ ما يشير الى أن ما وعد به المؤمنون من استخلافهم ، وإعزازهم في الأرض ، وتمكين دينهم ، وحياطتهم بالأمن الشامل ، إنما كان جزاء إخلاصهم لله في العبادة ، وأنهم يعبدونه لا يشركون به شيئا . ولا شك أن من عبادته امتثال ما أمر به والعمل بما أرشد اليه في شئون الدنيا والآخرة

أما قوله جل شأنه بعد هذا : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » فهي لترتيب حكم يلحقه العقل من سابق الكلام ، أى سيكون الأمر على ما ذكرنا من إعزاز المسامين ، والتكين للدين وتأمين الخائفين ، وحينئذ تنقطع معاذير الضعفاء المترددين ، ويسد باب التضليل في وجوه أولئك الشياطين ، فلا يكفر بعد هذه المظاهر التي أيد الله بها عباده لإلّا من فسق عن أمر ربه ، وخرج عن حظيرة الهداية ، وصار كأنه وراء دائرة التخاطب المعقول وأصل الفسق الخروج عن الدائرة المحدودة المعروفة اللائقة . يقال : فسقت الرطبة ، أى خرجت عن قشرتها التي كانت تحتويها وتحفظها . واستعمال الفسق في العصيان الذي لم يصل الى درجة الكفر استعمال عرفي غير المعنى اللغوي الأصلي المراد هنا .

وقوله : « بعد ذلك » لتقوية الاستبعاد ، أى أن الكفر مع وضوح آيات الهدى لا ينبغي أن يصدر إلا ممن هو عدو لنفسه ، فما بالك وقد تأيدت تلك الآيات بأن صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز دينه ، وأعلى كلمة أوليائه ، أفينتظر كفر بعد هذا الذى صورناه لك ؟

هذا وإنك لتجد فى ترتيب استخلاف الله لهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمنا على الايمان وعمل الصالحات ، وذلك أمر جامع لامتنال أوامر الله فيما يتعلق بالدين والدنيا جمعيا ، ردا على من يرى فى حال المسالمين اليوم حجة على دينهم ، وقد زاد ذلك وضوحا فى قوله تعالى : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » أى فالذنب ذنبهم فى خروجهم عن دائرة الهدى التى رسمت لهم ، وليس العيب فى تعاليم دينهم .

ثم قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » .

يجرى مثل هذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثيرا ، فبعد أن يستوفى أمر الرد على الكافرين ؛ وبعد أن تقام الحجة فى وجه المعاندين ، ويفضح جليا أمر المنافقين المخادعين ، وتبلغ الحجة غايتها وتستكمل نصابها ، يعود الى أهم ما يوجه اليه اهتمام المؤمنين ، فبأمرهم بأقامة الصلاة التى هى عماد الدين . وذلك كما يجرى فى التخاطب المتعارف ، فانك تجد هذا الأسلوب كثيرا ما تنساق اليه العقول ، إذ يفيض المتكلم فى بيان حجته وتقرير دعواه ، حتى يبلغ القصد منها ، ويصبح ولا حاجة

لعفي المزيد على ماقرر بشأنها، فيقول لمخاطبه : ولنعذالى أم مايعنيننا :
 إنه يجب أن نعمل مافيه مصلحتنا ، ونعرض عن الاهتمام بأولئك
 بعد مابلغنا منهم ماأردنا . فلنعمل لصالحنا ولنقوم شئوننا
 والصلاة عماد الدين ، فن أقامها فقد أقام الدين ، ومن أضاعها فهو
 لماسواها أضيع . وحسبك في شأنها قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن
 الفحشاء والمنكر » .

ولا يهولنك وقوع بعض المنكرات من بعض المصلين ، فما كان
 عملهم إلا صورة صلاة خالية عن مضمها ، وهو الخشوع ، وكال الاستحضار .
 فما أجدر أمثال هؤلاء بالدخول في قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين
 هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » !
 والزكاة تكاد تلازم في القرآن ذكر الصلاة ، وذلك لأن فيهما من
 كمال الفائدة العائدة على جماعة المسلمين مايقوى الأواصر ، ويصفي الضمائر ،
 ويزيل الشحناء ، ويؤكد التراحم والتعاطف . والزكاة هي المخبار الذي
 نختبر به من كانت صلاته صلاة حقيقة ومن كانت صلاته مجرد
 حركات وسكنات

أما قوله تعالى : « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » فهو تعميم
 لكل الأحكام التي جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن جهة أخرى
 تنصيص على ماسيق الكلام السابق لتقريره ، وهو طاعة الرسول صلى
 الله عليه وسلم فيما تحبه النفس وفيما تكرهه ، بل أن تجعل النفس هوها
 تبعاً لما أمر به صلى الله عليه وسلم ، ولفظ لعل في القرآن الكريم يفيد

التعليل المصحوب بالرجاء في جانب المؤمنين . وحاصل معناها : أدوا ما أمرتم به ، فانه أرجى للرحمة ، وأدنى الى انتظارها وإحرازها : والتعليل به غير التعليل باللام وكي ونحوهما ، فان ذلك فيما يكون فيه الارتباط بين العلة والمعلول مطردا البتة ، وأما لعل وعسى فهو تعليل يتصل به أشياء لا بد من توافرها ، كأخلاق النية ومزيد التوفيق ، والقبول عند الله عز وجل .

وقوله تعالى : « لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض » يفيد رفع ما عسى أن يلحق ببعض النفوس من استبعاد تحقق الوعد السابق ، فسكأنهم لما وعدوا بهذه العدة العظمى ، وهي أن يستخلفوا في الأرض ببسط السلطان ، وأن يمكن لهم في الدين بالأعزاز وقيام البرهان ، وأن نزول عنهم المخاوف ويعمهم الأمن والأمان ، وكانت هذه المنن بحيث تتطلع النفوس شوقا اليها ، وتتلطف حرصا عليها ، والعادة أن يدركها مع عظيم التشوف شيء من الهواجس والترقب ، وقد قيل : « إن الحريص بسوء ظن مولع » ولا سيما مع ملاحظة ما كان فيه الكافرون من كثرة وقوة وسعة ، أزيلت عنهم تلك المخاوف ، وسد في وجهها كل طريق . فالآية السابقة بددت المخاوف من ناحيتهم هم ، وذلك في قوله تعالى : « يعبدونني لا يشركون بي شيئا » أما هذه الآية ففيها تبديد للمخاوف المؤمنين من ناحية أنه تعالى واسع القدرة ، أي فاذا كنت أنا المهيمن على جميع الأشياء ، القادر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، واهب القوى والقدر ، المعز المذل ، وكان هؤلاء قد وقفوا لعبادتي

لا يشركون بي شيئا ، بينما أعداؤهم قد اتبعوا الشياطين فضلوا عن
 سبيل العبادة ، أفلا يكون حقا أن أنصر عبادي على أعدائي ؟
 ففي هذه الآية إزاحة للاستبعاد الناشئ من استعظام شأن أولئك
 الأعداء ، فكانت النفوس تنظر الى ما هم فيه من كثرة عدد ، واستيفاء
 عدد ، فجاءت الآية مزيلة لهذا الهاجس ، فقال جل من قائل : « لا تحسبن
 الذين كفروا معجزين في الأرض » أى لا تغفلوا عن حالهم الحقيقية ، وأنهم
 لا قدرة لهم من ذاتهم ؛ وكل ما هم فيه فأنما هو إمداد منا ، وهم في كل
 حال في قبضة قدرتنا ، فلا تحسبن حاسب أنهم يعجزوننا أو يخرجون
 عن قدرتنا . فالخطاب في لا تحسبن لمن يتأتى منه الحسبان .

ومعنى الإعجاز : الفوت عن أن تلحق بهم قدرته تعالى ، والهرب
 من وصول أثرها اليهم . وقوله : « في الأرض » تنبيه للأذهان الى ما يقتلع
 جذور ذلك الحسبان . أى فأين يعجزوننا وهم مهما ذهبوا في الأرض
 فهم في دائرة سلطاننا ؟ فأين يذهبون ، وكيف يغلبون ؟ ولا شك أن من
 التفت الى هذا فقد اقتلع من نفسه كل جذور الاستبعاد . فالغرض
 من قوله ، في الأرض ، سد جميع المسالك أى لا تحسبنهم فائتين قدرتنا
 وإن هربوا كل مهرب .

وقوله تعالى : « وما أواهم النار » وعيد لهم بالعذاب في الآخرة ،
 بعد وعيدهم بالأهلاك في الدنيا ، فان الآية الأولى وإن كانت نهيًا عن
 الحسبان فهي دالة دلالة ظاهرة على الاخبار بأنهم هالكون لا محالة .

فكانه قيل : لا تحسبنهم يعجزوننا ، بل هم ألبتة واقعون في قبضتنا ،
 ذائقون في هذه الحياة مر النكال منا ، ومأواهم في الحياة الأخرى النار .
 وقوله : « ولبئس المصير » تذييل لسابق الكلام ، متضمن معنى راحة
 المسامين من ناحيتهم ، فان مثل هذه الجملة إنما تقال لمن ذهبت ريجه ،
 واستراحت النفوس منه الى النهاية .

وإنك حين تتأمل تنويع الافادة في النظم السكريم ، وإيفاء كل
 مقام حقه على أبلغ وجه ، ثم تنقل الافادة من مهم الى مهم ، تجدها هداية
 قد تجلت في كل ناحية من نواحيه ، والنور يشرق من جميع جوانبه ،
 فاللهم اهدنا بنوره ، وأحى نفوسنا بهدايته ، إنك سميع مجيب !

(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين من آداب
 المخالطة في عشرة الاسرة
 لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين
 تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات
 لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضهم
 على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . وإذا
 بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ،
 كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم . والقواعد من النساء
 اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير
 متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم) :

يكون مع المرء عادة في داره فئة ممن تربطهم به رابطة المعيشة ،
 كأعضاء أسرته وخدمه ومماليكه ، ومثل هؤلاء تقضى شئون الحياة
 أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطا متكررا ، فلا يتحاشى بعضهم أن
 يدخل على بعض في خلوته ، ولا يلتفت الى استئذان في كل مرة يريد
 أن يتصل فيها برفيقه في المعيشة .

ولقد بينت لنا الآيات السابقة حكم دخول المرء على بيت غير بيته ،
 وشرع الاستئناس والاستئذان ، والسلام على أهل البيت ، وانتظار ما يكون
 منهم من الأمر بالدخول أو الأمر بالرجوع ، وأن كلا منهما مقبول وحق
 مطلوب الامتثال ، وأزالت ما في ذلك من غضاضة على النفس بأنه حق
 كما يطلب من المرء مع غيره يطلب من غيره معه .

وهذه الآية جاءت مقررة لحكم الجماعة تجمعهم دار واحدة ،
 لاتصالهم في شئون الحياة على ما سبق ، وما من امرئ إلا وله شئون
 خاصة يكره أن يطلع عليها غيره ، فهو في خلوته يطرح الاحتشام ،
 ويتبسط في شئونه الشخصية ، فلا يبالي أ كشف شيء من جسمه ،
 ولا يبالي أن يضطجع أو يستلقي حسبما يجد راحته ، فهو في حل مادام
 في خلوته ، ولكن الحياء والاحتشام ولو مع الخادم والمملوك ، بل مع
 الابن المميز والبنات ، كذلك لهما حكم وأثر في النفس لا يجهله من
 أعطى قسطا من الحياء والاحتشام ، فاحتاج الأمر الى دمطور واضح
 ومنهاج بين ، يحدد لنا ما يكفل للمرء راحته ، ويضمن له احترام خلوته ،
 ويزيل الحرج والمضايقة بين أفراد الأسرة المربوطة بمعيشة واحدة ،
 ذلك هو ما تضمنته هذه الآية الكريمة .

وقد روى في سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل
 غلاما من الأنصار الى عمر رضي الله عنه في وقت قيلولته ، فدق الباب ،
 ودخل بلا استئذان ، وكان عمر نائما ، فكان شيئا كشف من جسده
 فكره ذلك . وقال : لو ددت أن الله نهى آباءنا ، وأبناءنا ، وخدمنا عن

الدخول علينا في هذه الأوقات بلا إذن ! ثم توجه معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد هذه الآية قد نزلت ، فخر ساجدا . وهذه إحدى موافقات عمر رضى الله عنه للوحى ، ويتبين بها وبأمثالها سر نزول القرآن منجما حسب الحوادث ، فانه بذلك تتجلى الحكمة فى التشريع ، فيقوى العون على الامتثال .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنينكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم » :

تتأمل فى أسلوب الآية الكريمة فتجد الخطاب وجه فيها للذين آمنوا ، ثم وجه الأمر بعد ذلك للمملوكين والذين لم يبلغوا الحلم فى قوله : ليستأذنينكم الذين ملكت أيمانكم ، فان اللام فيه لام الأمر ، والأمر إذا وجه إلى غير المخاطب يؤتى مع الفعل باللام . وسر ذلك أن هذا الحكم مما يشترك فيه كلا الطرفين ، وثمرته عائدة على السادة والكمّل البالغين ، ومن أجابهم شرع ، وهم المهيمنون على المماليك والصغار ، فعهد اليهم أن يقوموا بتعليمهم وإرشادهم ، وأن يتبعوا امتثالهم ؛ ويتعهدوهم فى القيام بما كلفوه إذ كان ذلك حقا لهم ، ومعهودا به اليهم . ويجوز أن يكون المقصود أمر الأولياء والسادة أن يأمرؤهم ، وإن كان فى الظاهر قد وجه الى المماليك والغلمان ، وذلك لأن الذين لم يبلغوا الحلم لا يتوجه اليهم التكليف ، فيكون ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر »

وعلى الجملة فالمطلوب منه الاستئذان هو المملوك والصبي . وكون
الصبي غير مكلف لا يمنع أن وليه يعوده على ما يطلب منه من
الآداب والحقوق .

وقوله تعالى : « ثلاث مرات » أى فى ثلاثة أوقات فى اليوم ، هى
ما فصلت بعد فى قوله تعالى : « من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون
ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء » . هى تلك الأوقات التى
يحتاج المرء أن يستريح فيها ، ويخلص من الكلف ومراعاة الواجبات
نحو الغير . هى الأوقات التى يحلو للمرء فيها أن يطرح الاحتشام ،
ويملك فى نفسه حرية التصرف ، فيختار الوضع الذى يروقه ، والهيئة
التى توافقته ، وهو آمن من اطلاع غيره عليه مهما كان ذلك الغير .
ومأمناً إلا من يشعر بأن لابد للمرء من وقت يتمتع فيه بالحرية
الكاملة . وأى وقت هو أحوج فيه من هذه الأوقات الثلاثة ؟ وقت
ما قبل صلاة الفجر حين يستيقظ من نومه ويهب من فراشه فيخلع
ثوباً ويلبس ثوباً ، ولعله بحاجة الى تدليك بدنه أو إلانة أعضائه ،
ولكل امرئ عاداته الخاصة به ، ومن بعد صلاة العشاء حيث يكون
قد فرغ من عمله ، وانتهى من عبادته ، وركنت نفسه إلى أن يأوى
لفراشه ، فهو يخلع ثياب اليقظة ويلبس ثياب النوم ، وربما كان
يميل الى الأنس بأهله ، فلا منغص له فى هذه الحالة أكثر من أن
يفجأ بدخيل داخل عليه مهما صغر سنه ، أو قوى اتصاله به ، متى
كان عنده عقل وتميز . ولم يتعرض لحكم ما بين الوقتين لندرة

الدخول حينئذ . وتلح من هذين الوقتين أدباً في تعجيل النوم بعد صلاة العشاء ، وتبكير اليقظة قبل صلاة الفجر ، فذلك أعون على انتظام الصحة ، وأبعد عما يجره السمر من المنكرات ، أوتنبيه النفس الى فاسد الشهوات ؛ ولا يعين على التبكير باليقظة إلا التعجيل بالنوم أول الليل ، ولقد قال قائل : شباب النوم في شباب الليل . وإن شئت فانظر الى أولئك الذين جعلوا السهر والسمر ديدنالهم وعادة ، تجد صحتهم غالباً في اعتلال واختلال .

وقوله تعالى : « وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة » هو الوقت الثالث ، وهو ليس محدوداً في ذاته تحديداً تاماً ، فرب امرئ دعاه عمله الى تعجل القيلولة ، وآخر يرى صالحه في تأخيرها ، وقد يستغنى عنها بالمرّة . فلذا نيط الحكيم فيها بقوله : « وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة » ولم ينط بنفس الوقت كما في الموضوعين الأولين . والظهيرة : هي وقت الظهر ، أو وقت اشتداد الحر فيه . وقوله تعالى : « ثلاث عورات لكم » بيان لحكمة التشريع ، حتى يدعوهم ذلك الى العناية بالامتنال ، وتترتب في نفوسهم ملكة الاقتناع بالأحكام ، بل الاغتباط بها ، واعتقاد أنها شرعت لمصلحتهم ، ورحمة بهم . والعورات : جمع عورة ، وهي في الأصل من العار وهو العيب ، سمي به كل ما يكره الانسان أن يطلع عليه غيره ويسوءه كشفه ، ومنه عورة المكان لما اختل منه . وقد قرئ : ثلاث عورات ، بالرفع خبر لمحذوف ، أي هي ثلاث عورات لكم ، وبالنصب على أنها بدل من ثلاث مرات .

قال تعالى : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » : بين نفى الحرج في اللقيا فيما عدا هذه الأوقات ، فان المرء اذا كان في داره حيث لم يلتزم مكان خلوته الخاصة ، لا يسوءه أن يلقاه أحد من أهل بيته بلا استئذان . وفي تكليف أعضاء الأسرة الواحدة ومن في حكمهم الاستئذان في كل مقابلة حرج ومشقة لا تحتمل . وهذا غير ماسبق من النهي عن دخول البيوت على أى حال إلا بعد الاستئذان ، فذلك في حق الأجانب . والجناح : الحرج والأثم . وقوله تعالى : ولا عليهم ، ظاهر في المالك ، أما الصغار الذين لم يبلغوا الحلم فليسوا عرضة للجناح شرعا حتى ينفي ، فانهم غير مكلفين ، إلا أن الآية سيقت مساق إظهار الجميع في صورة المخاطبين كلهم بحكم واحد متكافين فيه ، بعضهم على بعض رقيب ، فمن أخل بشيء منه فعلى الآخر إرشاده وتعليمه وتأديبه وتهذيبه . وفي نفى الجناح عن الصغير في غير هذه الأوقات عون على تربيته على التزام الأحكام ، بافهامه أنه على شرف أن يكون واقعا في الحرج . على أن باب التغليب في مثل هذا باب واسع .

وقوله : « طوافون عليكم » أى هم طوافون عليكم ، بيان لوجه الترخيص باللقيا بلا استئذان فيما عدا تلك الأوقات ، كما بين سر النهي بقوله : « ثلاث عورات لسكم » ومعنى « طوافون عليكم » أنهم يصددون مخالطتكم ، والمداخلة معكم في شئون الحياة . وأصل الطواف : الدوران حول الشيء استعمل في كثرة التردد والمقابلة للخدمة ونحوها . وقوله بعضكم على بعض ؛ زيادة

في بيان ما تدعو اليه الحالة مؤكداً لحكمة نفي الحرج عنهم، أي أن كلامكم لا يستغنى عن مخالطة صاحبه، فهم طوافون عليكم وأنتم طوافون عليهم على المعنى المتقدم، فكان في قوله: «بعضكم على بعض» تسليية للماليك والخدم، بأن المعاونة في الحياة أمر مشترك بينهم جميعاً

«كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم»: يأتي لفظ كذلك في القرآن على هذا الوجه كثيراً، وفائدته أنه بعد أن يبين الحكم أو الآية أو القصة أو نحو ذلك بياناً شافياً يملأ القلب روعة وجلالاً، ينبه السامع والقارئ إلى أن هذه هي العادة الإلهية معكم، وأن مثل هذا البيان الذي ملك قلوبكم يكون دائماً تبيين آيات الله التي تنلى عليكم، فهو دائماً على وجه يملأ النفوس اقتناعاً، والقلوب غبطة وابتهاجا. «والله عليم حكيم» أي شامل العلم بكل ما يصلح، وبما كان ويكون، يضع لكم من الأحكام ما يناسبكم، ويكفل لكم سعادتكم.

قال تعالى: «وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم»: هذا لبيان أن حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم، من السماح لهم بمخالطتهم، والدخول عليهم بدون استئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة المبينة، إنما هو ماداموا صغاراً لم يبلغوا الحلم، فإذا ما بلغوا الحلم انسحب عليهم الحكم الذي بين في غيرهم في قوله تعالى: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا». وهذا لاقتلاع ما قد يراه بعضهم من أن هذا وإن بلغ فهو معتاد الدخول والمخالطة فلا حرج في ترداده على سابق عاداته،

وذلك كما تراه كثيرا في أسر محتشمة ، إذ يتساحون مع رجال بلغوا حد الرجولة أن يترددوا عليهم ، بحجة أن هذا معتاد من صغره أن يتردد ويرى كل من في البيت ، فجاءت الآية لاقتلاع هذا الوهم ، وتبيين الحكم صراحة في شأنهم . وكان التعبير في هذا الموضع بقوله : «آياته» ليحملهم على الخضوع لأمره تعالى وإن خالف ما كانوا يزعمون ، فهو أعلم بما فيه مصلحتهم . وأما في الموضع الأول فإن نفوسهم منساقة الى ما بين لهم ، فكانت آية بينة في ذاتها على الإطلاق .

قال الله تعالى : « والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم » .

القواعد : العجائز . سمين قواعد لأنهن لكبرهن أغلب أحوالهن القعود ، أولآهن يلزمن البيوت غالبا ، كل قيل به في وجه تسميتهن قواعد . وقوله : « اللاتي لا يرجون نكاحا » ، أى لا يطمعن فيه لكبرهن ويأسهن من أن يتطلع اليهن ، وهو وصف كاشف لمعنى القواعد ، وممهّد للحكم بعده ، وهو نفي الجناح عليهن في وضع ثيابهن ، والمراد بها الثياب التي لا يفضى خلعها إلى كشف العورة ، مثل القناع ، والجلباب السابغ الضافي كما يفيد قوله : غير متبرجات بزينة . والتبرج : الظهور والتكشف ، خص بتكشف النساء عمدا ليراهن الرجال ، وأصله من البرج ، وهو سعة العين مع ظهور بياضها كله محذوقا بالسواد ، وكأنه سمي تكشف النساء بذلك لأنه يصحبه عادة تطلع المرأة الى من يحيط

بها لتتعرف من يهم بمد النظر اليها ، فعينها دائما واسعة التطلع
 وهذا المعنى هو الحد الفارق بين من يخشى منها الفتنة ، فالمطلوب
 لها أن تتحجب وترعى عليها قناعها ، وتضرب بخمارها على جيبها ،
 وبين من لا يخشى منها الفتنة ، فلا جناح عليها أن تضع ثيابها التي لا يفضى
 وضعها إلى كشف العورة مع عدم التبرج بالزينة ، ومع هذا فلا استعفاف
 والاحتياط بالتستر خير لمن . وعلى ذلك يكون قوله : غير متبرجات
 بزينة ، حالا يقصد بها تقييدنى الجناح بأن محله إذالم يقصدن بالوضع التبرج .
 وحكمته أن التبرج منها قد ينبه عوامل النفس الخبيثة من غيرها ،
 وإن كانت لا ترجو شيئا من ذلك . ومنهم من يراه لبيان حكمة الحكم .
 فيكون المعنى : لا جناح عليهن فى وضع ثيابهن ، فانهن لازينة لمن
 يتبرجن بها . والله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو
 المطع على مقاصد النفوس وحركات الضمائر ، فيجازى كلا بما عمل .
 نسأل الله تعالى أن يوفقنا خير العمل ، وأن يجنبنا الزيف والزلل ،
 إنه سميع عليم ، رءوف رحيم .

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض
 حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم
 رفع الحرج في شأن مداخلة أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو
 الأقارب والعاجزين لمن بيوت أعمالكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت
 يتصل بهم خالاتكم أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن
 تأكلوا جميعا أو أشتاتا ، فإذا دخلتم بيوتا فاسموا على أنفسكم تحية
 من عند الله مباركة طيبة ، كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم
 تعقلون) :

هذه أحوال تتصل بالمعاشرة التي بين من أحكامها ما بين في الآي
 السابقة ، وهي ما تختلف فيها الأنظار ، وتباين فيها الآراء ، يتحرج
 عنها بعض الناس ويستسيغها آخرون ، ويرى كل فريق فيها رأيا
 بحسب ما يوافق مشربه ، وما يتمكن في نفسه من خلق أو عادة ،
 فيحسبه حكم الله الذي لا محيد عنه .

جاءت الآيات الشريفة توضح أن هذه الأحوال ليس لها في نظر
 الشارع الحكيم ما يجعل أحد جانبيها محتوما لازما ، بل هي تدور مع
 ما تستريح إليه أنفسكم ، وما يوافق المألوف ومحاسن العادات بينكم .

فمنها حالات الضعفاء وذوى العاهات ممن أصيب بعمى أو عرج أو مرض . كانوا هم يتخرجون عن مؤاكلة الأصحاء ، لأن الأعمى قد يبدر منه ما يتقزز منه البصير ، فقد تطيش يده على غير هدى فينفر منه من يجالسه في الطعام ، أو قد يتوهم هو ذلك فلا تستقر نفسه للمخالطة في الطعام . والأعرج قد تضطره حالته الى جلسة ربما تضايق منها غيره ، أو حسب هو ذلك . والمريض عادة دقيق الشعور ، شديد الاحساس والمراقبة لمن معه : هل تأذى منه أحد ؟ فكانت الطوائف الثلاث تتحاشى أن تؤاكل كل من من الله عليه بالسلامة . وكذلك كان الأصحاء : منهم من يتخرج عن مخالطة أولئك الطوائف في الطعام ، مراعين في الأعمى أنه لا يرى الطعام الجيد الذى قد تشتهيه نفسه ويستحي أن يطلبه ، فقد تمتد اليه يد غيره دون أن يشعر برغبته . والأعرج لا يتمكن من الجلوس المريح بسهولة ، فلا يملك راحته مع غيره . والمريض لا يتأتى له أن ينال بغيته كما يتأتى للسليم ، فكانوا تجنبوا هذه المظان يفردونهم بطعام ؛ ليأخذوا راحتهم ويملكوا غرضهم .

وأىضا : كان من عادة الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله إذا خرجوا للغزو وتحلف الضعفاء من عمى أو عرج أو مرضى ، أباحوا لهم أن يأكلوا من بيوتهم فى حال غيبتهم ، فكان هؤلاء الضعفاء يتخرجون عن ذلك .

كل ذلك قد روى فى سبب نزول الآية ، ولا مانع من حصول

الجميع ، إذ لا تعارض بينها ، وهى عادات يصح أن تحصل عند طوائف من الناس ، فجاءت الآية لحل هذا الحرج ، وتوسيع الأمر فى مخالطة الناس بعضهم بعضا ، متى حسنت النية ، وطهرت الطوية . وعلى ذلك يكون المعنى : ليس على الأعمى ومن فى حكمه حرج فى أن يؤاكل السليم المعافى ، فليس من شأن النفوس المهذبة أن تغنى بتتبع مثل هذه الشئون الصغيرة ، وليس أمر الطعام من العظم بحيث يحتاط فيه كل هذا الاحتياط . كيف والمؤمنون إخوة ينبغى أن يكون ديدنهم الايتار لا الأثرة ؛ ويجمل بهم أن ينظروا الى الطعام نظارهم الى وسيلة غير مقصودة إلا لحفظ الحياة ، فمن حقهم أن يكونوا ممن يأكل ليعيش ، لا ممن يعيش لياً كل ، فقد قال جل شأنه : « والذين كفروا يتمتعون وبأى كاون كما تأكل الأنعام والنار متى لهم » وينتظر منهم أن يطمئن بعضهم الى بعض ، ويثق بعضهم ببعض ، ويعلموا أن ما يعنى أحدهم يعنى الآخر ، وما يسره يسره ، وعلى هذا البيان تجرد المعنى : ليس على أولئك الطوائف حرج فى أن يأكلوا مع الأصحاء ، وليس عليهم حرج فى أن يأكلوا من بيوت غيرهم حيث أباحوا لهم ذلك فى غيبتهم ، ولا على من يؤاكلهم حرج فى أن تجمعهم وإياهم مائدة واحدة . والمعنى الجامع : ليس فى شأن هؤلاء حرج يتقى ، لا عليهم ولا على من يخالطهم ، فالأمر أوسع مما تتوهمون ، والحرج إنما هو فيما يمس مهمات الشئون . ومعنى الحرج فى اللغة : الضيق : وهو فى لسان الشرع بمعنى الأثم .

أما قوله تعالى: « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » النخ ،
فانه كذلك توسعة على الناس فيما تمس اليه الحاجة عادة بل تستدعيه الصلات
الحسنة ولو بدون حاجة : وقد عدد مواضع رفع الحرج عن الأكل في
الآية ، وهي أحد عشر ، تشترك كلها في استكمال أو اصر القرابة أو المودة
أو المعاونة . والمواضع ظاهرة المعنى ، إلا أن في الموضع الأول سؤالاً ،
وهو : ما فائدة التنصيص على إباحة أكل المرء من بيته وهو ظاهر غنى
عن الايضاح والتشريع ؟ وقد قالوا في توجيهه : إن المعنى من بيوت
أولادكم . وجعل بيوت أولادهم بيوتاتهم ، لأنهم أقرب الطوائف اتصالاً
بهم ، وقد ورد : أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وولده من كسبه . وقال
صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » . ويشهد لهذا المعنى أن الآية
لم يذكر فيها بيوت الأ ولاد مع أنهم أقرب الى الوالدين من الطوائف
المذكورة . ويصح أن يكون ذكر بيوتهم لأظهار أن ما سيذكر بعده
من البيوت هو بمثابة بيت المرء نفسه في هذا الحكم ، فكأنه يقال : ليس
عليكم جناح أن تأكلوا من بيوت آبائكم ومن ذكر معهم ، كما ليس عليكم
جناح في أن تأكلوا من بيوتكم ، وهو قريب مما قيل في قوله تعالى :
« فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » من أن المعنى
لا يستأخرون أصلاً ، كما أنهم لا يستقدمون إذا جاء أجلهم ، فإن الاستقدام
وقد جاء الأجل محال فجعل مثله الاستئخار .

هذا وليعلم أن نفى الحرج في الأكل من هذه البيوت إنما هو
فيما إذا علم أو ظن أن ذلك موضع رضامنهم ، كما هو الشأن الغالب ، وكما هو

المنتظر منهم أن يكونوا عليه . فاذا غلب على الظن أن بعض هؤلاء
 تمكن منه الشح أو الاحتياح الى درجة أن يتأذى من أكل طعامه ،
 لم يحل ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا
 عن طيب نفس منه » . فالآية محمولة على ما هو الغالب من طيب نفس
 الأقارب والأصدقاء ، بل سرورهم لتناول أقاربهم طعامهم ولو بغير استئذان
 منهم ، بل قد يسوءهم ذلك الاستئذان . وإنك لترى من الناس من يقصد
 إلى تناول طعام غيره في حال غيبته ليدخل السرور عليه ، وليعانه أنه
 من الثقة به والطمأنينة اليه وخالص المودة معه بحيث يتبسط في ملكه ،
 ويطلب الطعام من خادمه بدون حضوره . وكم ترى من حالات تفتتح
 بها المحبة بين الناس ، وتثأكد مودتهم بحالة من هذا ؟ فكم يسرك
 أن تدخل بيتك فيقال : حضر فلان هنا وطلب الطعام أو القهوة بنفسه ،
 فيتضاعف له الشكر منك ، وتهتز لذلك ارتياحا ، وقد يقتلع بذلك
 كثيرا من وساوس تكاد تظفيء مصباح المودة بينكما ، بل تجد الصديق
 يقابل صديقه فيقول : لقد زرتك وطلبت التحية بنفسى ، يمتن عليه بهذا ؛
 فيجد من الارتياح ما يكون نعم الجواب . روى أن الحسن البصرى
 دخل بيته فوجد حلقة من أصدقائه فيه قد أخرجوا طعاما طيبا وانكبوا
 عليه يأكلون ، فتهلل سرورا وبشرا وقال : هكذا وجدناهم . أى
 أكابر الصحابة الذين أدركهم . ويحكى أن أحد الصالحين قدم الى بيته
 فأخبرته جاريتته أن فلانا - وكان صديقه - قدم هنا فقدمت له طعاما
 وأكل ، فسر لذلك وقال : إن صدقت فأنت حرة !

ليس الأمر واقفا عند حد الأكل والشرب ، ولكنه يبسط ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في أخلاقهم ومعاملتهم ؛ وتوادهم وتعاطفهم . وإنما ضرب الأكل مثلا لأنه أكثر ما تظهر فيه هذه الأخلاق ، بل أكثر ما يجعل عنوانا لصفاء النفوس وكمال الصلة ، ثم هو من الحاجيات التي تتكرر كل يوم لكل إنسان .

وأما قوله تعالى : « أو ما ملكتم مفاتيحه » فذلك في شأن وكبل الرجل في ضيعته القيم على إدارتها ، أورعى ماشيته أو نحو ذلك : لأخرج عليه أن يتناول من ثمرها ، أو يشرب من لبنها ما اعتيد مثله ، لأن ينقل أو يدخر . وذلك أن النفوس عادة تطيب بمثله . فإذا علم أن صاحبها لا تطيب نفسه بذلك وجب أن يمتنع ، على ما مر من قوله عليه السلام : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

والمفاتيح : جمع مفتاح . وجمع المفتاح مفاتيح . ولما كان محل هذا الحكم هو الأكل بغير إذن ، لأن الأكل بأذن لا يخص هذه الطوائف ، كان ذلك دليلا على جواز الدخول في هذه البيوت بغير إذن ، مع مراعاة أحكام الآية السابقة في الدخول وأوقاته . ولذلك كانت تلك البيوت لا تعتبر حرزا في السرقة ، فاستنبط من الآية بعض الفقهاء عدم الحد في السرقة منها ، ومقووط الحد يكفي فيه الشبهة ، وإلا فالحرمة متحققة ، ووجوب الرد كذلك .

أما قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا »

فانه كذلك إباحة للكيفيات المتعددة التي تختلف الأنظار في تفضيل بعضها على بعض ، فقد كان أناس يتحرجون عن أكل طعامهم وحدهم ، وينتظرون أن يحضرهم من يشاركهم فيه من ضيف أو ابن سبيل يؤاكله ، وقد يمكث أحدهم يومه ينتظر ورود من يشاركه في طعامه ، وكان هذا من العادات الموروثة عند العرب يُمدح بها، ويوصى على التزامها ، قال شاعرهم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكىلا فاني لست آكله وحدي
وقد جاء في الحديث الشريف « شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده » ومعنى الرفد : العطاء . والحديث ذم لمن اعتاد ذلك والتزمه بخلاً أن يشاركه أحد في طعامه . ونفى الجناح في الآية محمول على الحصول اتفاقا بلا تعمد اختفاء عن المشاركين .

وكان أناس يعتمدون الى اكل كل منهم بانفراد ، حتى لا يحصل من أحدهم ما يتقزز به غيره ، أو لا تمتد يده الى ما اتجه اليه بصر غيره . وكان أناس إذا نزل بهم ضيف رأوا ألياً أكلوا إلا معه ، وقد يكون لأحدهم مصالح تدعوه لتعجيل أو تأخير ، فربما أوقعه ذلك في الحرج . فنزلت الآية الكريمة لنفى الجناح في ذلك ، وأباحت كل كيفية ليس فيها إضرار بأحد أو منع رفد . وهذا لنفى الجناح في الكيفية التي بها يتناول الطعام ، كما أن أول الآية لاباحة أصل التناول من طعام الغير . ولعلك تجد في التعبير بنفى الحرج في الأول وهو بمعنى الضيق حيث كان المتوهم التضيق على المكلف في تناول طعام غيره . وفي نفي الجناح في الثاني وهو في الأصل بمعنى الميل

حيث كان المقام مقام تردد بين كَيْفِيَّاتٍ كُلِّ يَمِيلُ إِلَى كَيْفِيَّةٍ ، لعلك تجدني هذا التعبير من الجمال والدقة ماهو جدير بالاعتبار .

أما قوله تعالى : « فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » فهو بيان للأدب الذي ينبغي أن يراعى في حال دخول تلك البيوت التي أذن الله بدخولها ، فكأن الآية تشير إلى أن هذا الأذن ليس معناه الإقتران مع إغفال الآداب وحقوق المؤانسة ، بل ينبغي أن تبدءوا بدخولكم بالسلام على أهل تلك البيوت ؛ فهم منكم وأنتم منهم ، فما أحقكم بتبادل التحايا بعضكم مع بعض ، فسلموا عليهم فهم في المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم ، فكأنكم تسلمون على أنفسكم .

وكأن في هذا إشارة إلى السرف في إباحة تناول الطعام من هذه البيوت ، أي فإن من فيها بمنابة أنفسكم ، فكأن الواحد منكم قد أكل في بيته . وقد قيل في توجيه قوله : « فسلموا على أنفسكم » : إنه لما كان المسلم عليه يرد التحية بمثلا أو أحسن منها ؛ فكأن المسلم سلم على نفسه باستجابة السلام عليها .

وقوله : « تحية من عند الله » أصل التحية مأخوذة من قولهم : حياك الله ، فكانها طلب الحياة ، أو طلب صفوها وسعادتها وكاملها ، مما يجعل الحياة حياة صحيحة ، وتعرف في كل تحية بأي لفظ وأي دعاء ولو كانت بغير لفظ الحياة . ومعنى أنها من عند الله : أنها تحية عظيمة بعظم من طلبت منه ، أو تحية مشروعة من عند الله ثابتة بأمره وإرشاده . والمباركة أي المحتوية

على زيادة الخير للمحيا والثواب للمحيي ، وطيبة أى تطيب بها نفس من
تحيونه بها ويستريح اليها .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » أى على هذا
النحو جرت عادة الحق جل جلاله فيما يبين لكم من آيات تملأ حكمتها
قلوبكم ، وتشمل رحمتها حياتكم ، وإذا تأملتم فيها وعقلتم ما احتوت من
منافع وهدى ، رأيتموها من أجل نعم الله عليكم ؛ ومما يستوجب
عظيم شكركم ، فهو يجاؤها على هذا الوجه البين لعلكم تعقلونها ،
فيزداد تمسككم بها ، وشكركم لله من أجلها .

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على

أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك

الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فاذن لمن

شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء

الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم

لو إذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب

أليم . ألا إن لله فى السموات والأرض قد يعلم ما أتمم عليه ويومر برجعون

إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم) :

من الإيمان
ملازمة الجماعة
في الأمر العظيم

ما أحسن ما يختتم به تلك الأحكام البالغة ، والارشادات النافعة ،
 والبيانات المفصلة ، فيما يتعلق بمخالطة الناس بعضهم بعضا ، فيختتمها
 ببيان حال المؤمنين بالنسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يجب
 أن يكونوا عليه من الاستسلام وتمام الاتقياد، وأن يتأسكروا في الارتباط
 به ، وألا يرغبوا بشئونهم عن مجالسته، وأن يروا السعادة لهم كل السعادة
 في أن يستوفوا أكثر ما يمكنهم أن يستوفوه من رحمت الله تساق
 اليهم عن طريقه ، فلا ينصرفوا عنها ، ولا يزهّدوا فيها ، ولا يتقدموا
 عليها غيرها . ولقد نوه بشأن هذه المحافظة على الاستفادة من مجالسه
 وعدم التفريط فيها حتى جعلها من مقتضيات الايمان، بل جعلها في المرتبة
 الثالثة بعد الايمان بالله ورسوله ، فقال جل من قائل : « إنما المؤمنون
 الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا
 حتى يستأذنه » .

وقد قيل في سبب نزولها : إن قوما من المنافقين كانوا ينصرفون
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة ، لما كانوا يحسونه من الأذى
 والألم إذ يشرح حال المنافقين ؛ وهم يعلمون من قرارة أنفسهم النفاق ،
 فلا يطيعون سماع ما يعلمون أنه منطبق عليهم ، فيتسللون . وقيل : بل
 نزلت في تسليهم يوم الخندق إذ كان صلى الله عليه وسلم هو والمؤمنون
 مهتمين كل الاهتمام في حفره والاستعداد لمقابلة الأحزاب ومقاتلتهم ،
 ونأهيك بلقيا العرب وقد تجمعوا من كل صوب يقصدون غز والمدينة ،
 حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان يعمل بنفسه في ذلك ، تشجيعا للسامين ،

وتقوية لعزائمهم ، وحفزاً لهممهم ، فلا تصرف في مثل هذه الحال من أشد الجرائم . والأمر الجامع عام في كل أمر مهم ، ديني أو دنيوي ، فيشمل الاجتماع للجمعة والعيدين ، والتشاور في الحروب والاجتماع لها ، والاستعداد لدفع الطوارئ ، وما يماثل ذلك من مهمات الأمور . ومعنى كون الأمر جامعاً أنه مدعاة للاجتماع للتعاون أو التشاور . فلا تصرف في هذه الحالة جنابة من المرء على نفسه ، لحرمانها من المشاركة في عظام الأمور ، وجنابة على المجتمعين ، لأنه يفت في عضدهم إذا كان الأمر مما يدعو إلى التساند فيما بينهم ، وإيذاء لهم في شعورهم بوجود تعظيم الشعائر الدينية واحترامها إذا كان الأمر دينياً محضاً كالجمعة وخطبتها ، وإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم وسعادتهم ، وإعلاء كلمة الله ، وتوحيد صفوف الأمة ، وجمع الكرامة ، وتعظيم شعائر الدين . وكل ما فيه إخلال بشيء من هذا كان فيه إيذاء له وإيذاء . فلا جرم جعل الإيمان منوطاً بالاستمسك بمجبل جماعة المسلمين ، ومنع الانصراف إلا بأذن منه عليه الصلاة والسلام ، وذلك قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه » فقد حصر المؤمنين حقا فيمن جمع هذه الصفات الثلاث : أن يؤمن بالله ، وأن يؤمن برسوله ، وأن يلتزم مجتمعه إذا كان في أمر مهم ، فلا يذهب حتى يستأذنه . ويكون من أخلّ بواحدة منها لا يستحق أن يكون في زمرة المؤمنين . وكفى

بهذا في بيان آداب المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه معه صلى الله عليه وسلم

وقوله : « حتى يستأذنه » أى ويأذن لهم إذا شاء ، على ما سيأتى في الآية التالية في قوله : « فأذن لمن شئت منهم » ، فإذا استأذنه ولم يأذن لم يكن لهم أن يذهبوا ، فليس الخروج عن العهدة بمجرد طلب الأذن ولو لم يصدر لهم الأذن ، وإلا لم يكن للاستئذان معنى . ولو ضوح ذلك لم ينص عليه . ألا ترى أنه يعد من السخف في الفهم أن ينصرف مرءوس عن عمله بمجرد أنه طلب الأذن من رئيسه ولو كتابة قبل أن يصدر له رئيسه الأذن المطلوب ؟ وإذا احتج بقوله قد استأذنت قيل له : فهل أذن لك ؟ ولقد أعاد جل وعلا هذا الحكم بأسلوب آخر ، فجعل المستأذنين هم الذين يستحقون الوصف بأنهم مؤمنون دون سواهم ، فقال عز من قائل : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » أى فالذين يذهبون ولا يستأذنون ليسوا من الإيمان في شيء ، ولا يستحقون أن يحشروا في زمرة المؤمنين . وكان في إعادة ذكرهم بقوله « أولئك » إشارة إلى أنهم استحقوا وصف الإيمان بهذه الصفة التي ذكروا بها وهي الاستئذان ، فقد قال علماء البلاغة : إن التعبير عن المخبر عنه باسم الإشارة بعد وصفه بصفات ، يدل على أنه استحق الخبر المذكور من أجل تلك الصفات . ونظيره قوله تعالى . « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » بعد وصفهم بالإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ،

والاتفاق مما رزقهم الله ؛ الى آخر تلك الصفات المذكورة في أول سورة البقرة .

ولا يذهب عنك أن مثل هذا الحكم وربط الايمان ببعض الأعمال لا يراد به أن كل من خالف هذا العمل كان كافراً ، بل ذلك من المبالغة في التنويه بالحكم ، والحث على رعايته ، وشدة الاستمسك به ، وله نظائر كثيرة في الكتاب والسنة . ويصح في هذه الآية الكريمة أن يحمل ذلك على نفي الايمان عن أولئك المنافقين الذين كانوا يتسللون من حضرته صلى الله عليه وسلم ، فتكون الآية لبيان علامة بها يعلم المنافقون الذين يندسون في وسط المؤمنين ، ويتظاهرون بأنهم آمنوا وهم في الحقيقة كاذبون .

وقوله تعالى : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » يفيد جملة أمور : (أولاً) أن الاستئذان لا ينبغى أن يكون لكل شأن طراً ، بل ينبغى قصره على بعض الشؤون ، وذلك بالضرورة هو المهم منها . و(ثانياً) أن الاذن وعدم الاذن موكول الى مشيئته صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن مشيئته عليه الصلاة والسلام مشيئة عن رأى وروية ، وتقدير مصلحة ، وتمييز ما يستحق الاذن وما لا يستحقه ، وليست مشيئة الهوى والتشهى . ومن هذا يؤخذ أن بعض الأحكام يصح أن يسند لمسيراه عليه السلام من المصلحة ، فلا يقيد بحكم بعينه . ولعل مثله عليه السلام في ذلك من يوكل إليه أمر جماعة المسلمين ، فينأط الحكم بما يراه من المصلحة التي

تتغير وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والملايسات . و (ثالثا) أن الأولى والأحق بالموثمين أن يتحاشوا عن الانصراف ولو باذن ولو في الشئون الشخصية المهمة ، فالمصلحة العامة للمؤمنين والأمر الجامع أحق بأن يتفرغ له ، وأن يقدم على الشئون الخاصة .

تفهم هذا من قوله تعالى : « واستغفر لهم الله » فانها تفيد أن هذا الاستئذان من حقه أن يستغفر منه مهما كان داعيه وفي ذلك حث عظيم على الاستمسك بما يدعو اليه صلى الله عليه وسلم من الاجتماع ، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة : وما أحق المسلمين بأن يتفهموا هذا ويفقهوه على وجهه ، ويروضوا أنفسهم على العناية بأمور الجماعة بدل أن يقصر كل امرئ همه على مصلحة نفسه !

وقوله تعالى : « إن الله غفور رحيم » فيه طمأنة للمسلمين وتخفيف الحرج عن نفوسهم ، لكي لا يقعوا في العنت ويضيقوا على أنفسهم ، فيهملوا مصالحهم الخاصة إهمالا كبيرا . فهي كتخفيف للشدة التي قد تفهم من قوله عز وجل : « واستغفر لهم الله » . ومعناها أن الله كثير المغفرة واسع الرحمة ، فلا يكلفكم من أمركم رهقا . وكون الاستغفار صادرا من النبي صلى الله عليه وسلم مما يقوى هذه الطمأنينة ، فترى في قوله واستغفر لهم الله أمرين : (الأول) تصوير هذا الموضوع بأنه مما يستغفر منه ، فحقيهم ألا يعر قوا فيه كثيرا . و(الثاني) أنهم إذا راعوا ذلك فإن المغفرة مضمونة لهم ، فالاستغفر هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار منه بأمر الله ، وفي ذلك مع إردافه بقوله : والله غفور رحيم أعظم طمأنينة

واعلم أن مثل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحكم كل من له ولاية عامة على جماعة من المسامين في أمر ديني أو دنيوي بحيث يجب عليهم طاعته في ذلك ، فانهم إذا كانوا على أمر جامع فليس لأحد منهم أن ينصرف عنه حتى يستأذنه ويأذن له ، ولو كان ذلك المستأذن يشعر بأنه ليس له عمل في الحال ، فقد يكون ذلك المنوط به تدير الأمر الجامع قد رتب في نفسه عملاً لهذا المريد للانصراف ، أو يطرأ عليه من الشئون ما يحتاج معه إليه ، فللأعمال العامة طوارىء ليست في الحسبان عادة . ومثل الأعمال العامة لجماعة المسامين الأعمال التي يشترك فيها فئة من الناس بطريق التعاون والتساند ، فلها تأخذ هذا الحكم بحسب مالها من المقام الذي يوجبها أو يؤكدها . فقاعدة (وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه) قاعدة يجب أن تراعى عند كل القائمين بالأعمال المشتركة التي ينطأ أمر تديرها بواحد يرأس أولئك القائمين بها .

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » :

زيادة في الحث على التزام الطاعة وملازمة الجماعة التي اجتمعت لأمر جامع ، وتنبه على خطر الموقف ، وأنه ليس كبقية المواقف ، فليس دعاء الرسول إياهم أن يجتمعوا ليتشاوروا أو ليتعاونوا أو ليقوموا بأى غرض مهم من أغراض الدنيا أو الدين - وغرض الدنيا المراد به المصالح العامة ، فهي راجعة أيضاً إلى الدين ، والمراد بغرض الدين المقابل العبادة الصرفة - نقول : ليس دعاء الرسول إياهم لذلك كدعاء بعضهم

بعضاً في الشؤون التافهة المبنية على التسامح من الجانبين ، فلا يبالي الداعي أجيب أم لم يجب ، ولا على المدعو في أن يجيب أو لم يجب ، بل هذا أمر خطير يتعلق بمصلحة لها الأثر العظيم . وذلك هو الشأن فيما يدعو إليه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ما أشبهه وأخذ حكمه من دعاء إمام المسامحين أو من ينوب عنه في تدير أمر من أمور الأمة ، فقد أوجب الله طاعته كذلك ، فالمراد بدعاء بعضكم بعضاً فيما لا ولاية فيه لأحد على أحد من قبل الحق جل وعلا ، فتمت الولاية الموجبة للطاعة جاء معها هذا الحكم . والله أعلم .

«قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذأ» :

هذا وعيد لمن تحدثه نفسه بالانصراف خفية وخلصه ، فسدد في وجوههم طريق التفكير في هذا ، وبين لهم أن من تحدثه نفسه بأنه يستطيع الانصراف خفية هل يظن أن يستخفي على الله وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ وأنه هو الذي أمر وأوجب ، فمن حاد عن أمره فأنما عصاه هو ، وليس العصيان واقفاً عند حد المخلوق الذي حسب أن يختلس نفسه منه .

والتسلل : الخروج من البين على التدريج والخفية . واللواذ : مصدر لاوذ ، مأخوذ من لاذبه يلوذ أي التجأ إليه ، كأنهم كانوا في تسللهم يلوذ أحدهم بالآخر يتستر هذا بذلك وذلك بهذا ، أو يخرج واحد كلعتذر والثاني كالتابع له . وهذه الطرق تشاهدها في الكثير من الناس إذا انصرفوا عن مجتمعين ، فإن كل منصرف يشعر بأنه مقترف نحو المجتمعين ذنباً

بمخروجه ، فيترقب أن يوجد من يلوذ به حتى ينسل معه ، وربما اتفق
اثنان أو أكثر على أن يبدأ واحد منهم ويتبعه غيره ، فيشد كل منهم
أزر صاحبه في مقارفة ذلك الذي ينكره عليهم المجتمعون . فكلمة
لو اذا تحدد بالضبط هذا الشعور ، وهو أن كلامهم يلوذ بصاحبه ، حتى
إن المتقدم كأنه يتستر بمن يليه ويشاركه فيما اقترف ، كما أن المتأخر تابع
لمن سبقه ومقتد به ، فيرى الأخرج عليه ، وقد يكون أحدهما لاذ بالآخر دون
أن يلوذ الآخر به ، فقد روى أنه كان بعض المسلمين يستأذن النبي صلى
الله عليه وسلم لعذر لحقه كرعاف أو غيره ، فيشير الى النبي صلى الله عليه
وسلم بأصبعه التي تلى الابهام ، فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج
فيخرج معه الرجل من المنافقين لا ئذاً به ، إما بتستره به ، أو بالتظاهر
بأنه من أتباعه .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم
عذاب أليم » :

زيادة في تعظيم الأمر وتهويل الخطب ، وأنه ليس من الهنات
الهنات ، بل يخشى منه ما ليس لكم على بال ، فرب أمر امتصغرتة
وإذا به يجر الوبال والمصاب الكبير . وما أحق هذا الموضوع بأن يكون
من هذا القبيل ! ولنضرب لذلك مثلاً : هب أن الأمر الجامع كان غزوا
ورابط له جيش كبير ، فتحدث بعض الجنود نفسه بأنه في هذا الجمع
كقطرة في بحر ، فينصرف بلا إذن ، فيتسلل معه آخر يلوذه ، وقد
يكون الخاطر بعينه خطر لغيرها ، فيشجعه عملها على أن يقتدى بهما ،

فتوجد ثغرة في الصفوف يكون منها النكبة على الجميع . وليس الأمر مقصورا على الحروب ، بل تجدد المصالح المشتركة يرتبط بعضها ببعض ، ويتوقف كبيرها على صغيرها ، ويعطل نافعها خطيرها . فالمخالفة مهما استسهلها صاحبها في الأمور العامة قد تجرالى الضرر العظيم ، فكان المقام حقيقا بأن يأمر الذين يعتادون المخالفة أن يرقبوا ما يصيبهم من الفتنة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة . والفتنة تتنوع بحسب الأمر المجتمع عليه ، فقد تكون القتل ، وقد تكون التعذيب ، وقد تكون المذلة والهانة ، وقد تكون تضيق الرزق وأمثال ذلك ، مما يتعرض له المرء بالمخالفة . والعذاب الأليم فسر بعذاب الآخرة ، وكلمة (أو) لاتمنع اجتماعها . هذا وفي الاتيان بلفظ (عن) في قوله « يخالفون عن أمره » تضمين يخالفون معنى يصدون ويعرضون ، وهى في تظميع المخالفة أبلغ من قولك : يخالف أمره ، لما تشعر به كلمة (عن) من الابتعاد والاعراض .

قال الله تعالى : « ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم » :
 هذا أحسن ما يختم به هذه الأوامر والتكاليف ، فيبين فى ختامها أنها صادرة من مالك الأمر كله ، المتصرف فى ملكوت السموات والأرض ، الشاملة قدرته لجميع الموجودات إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، إحياء وإماتة ، إثابة ومعاقبة ، فهى بأسرها فى قبضة يمينه خلقا وتصرفا وملكا ، فله الأمر وله الملك ، وهو على كل شىء قدير . فمن ذا الذى

يستطيع أن يتعرض لعقوبته بمخالفة أمره ، ومن ذا الذي يخرج عن قبضته وهو مالك بناصيته ؟ هذا قوله : «ألا إن لله ما في السموات والأرض» أى فأنتم مندمجون فى ملكه ، مشمولون بسلطانه . وأما قوله : «قد يعلم ما أنتم عليه» الخ ، فهو تهديد من ناحية أخرى وهى ناحية العلم ، فهو يقول : إنكم مع شمول القدرة لكم من جميع نواحيكم فإنه لا تخفى عليه منكم خافية ، فهو يعلم ما أنتم عليه ، يعلم سركم ونجواكم ، يعلم ما تبدون وما تكتمون ، يعلم ما تعملون وما تفكرون ، فيجازى كل عامل بما عمل ، يوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا ، حتى تقوم عليهم الحجة ، ويعترفوا بذنبيهم ، ويعلموا أنه قد أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة ، والله بكل شىء عليم . وفى الاتيان بلفظ الجلالة مظهرا معنى تربية الروعة والمهابة ، ليحمل السامع على تمام الامتنال والخضوع لأحكامه ، استعدادا لنوابه ، وحذرا من عقابه ، وحياء من جنباه .

ولقد ترى فى ختم الآية بل فى ختم السورة المحتوية على هذه التعاليم العظيمة والارشادات الحكيمة بقوله عز من قائل : « والله بكل شىء عليم » إقامة للحجة وتنويرا للمحجة ، وتقريراً للبرهان بشهادة صدورها ممن هو بكل شىء عليم ، فهو يضع أحكامه بقسطاس مستقيم ، وعلى منهج حكيم ، ينفع من تلقاه بقلب سليم

نسأله تعالى أن يجعل طاعته شعارنا ، والزلفى اليه طريقنا ، وأن يهديننا بهديه ، وأن يرزقنا رضاه ورحمته ، إنه سميع الدعاء ، مجيب النداء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

استدراك

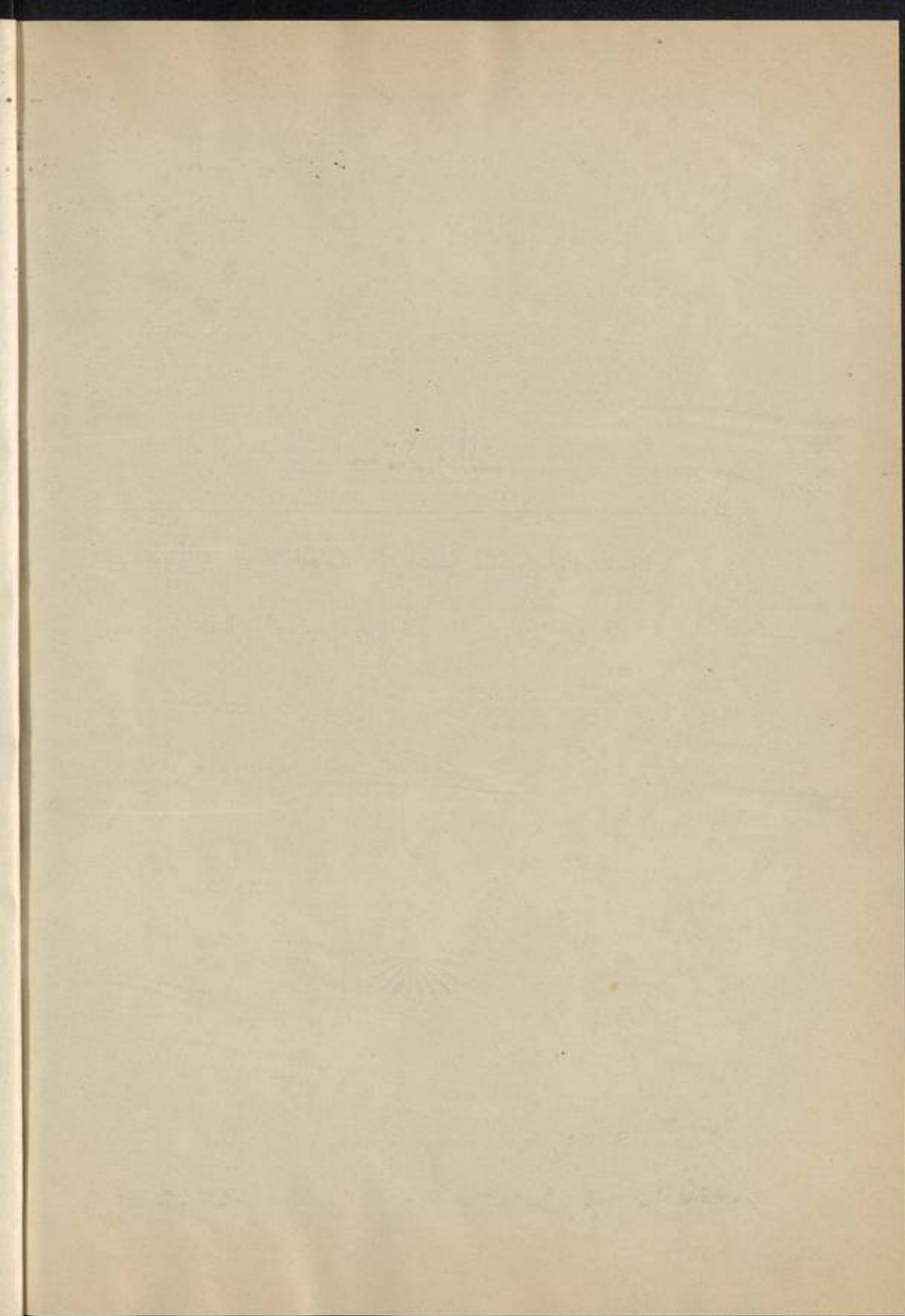
جاء خطأً في السطر الخامس من صفحة عشرين هذه العبارة :

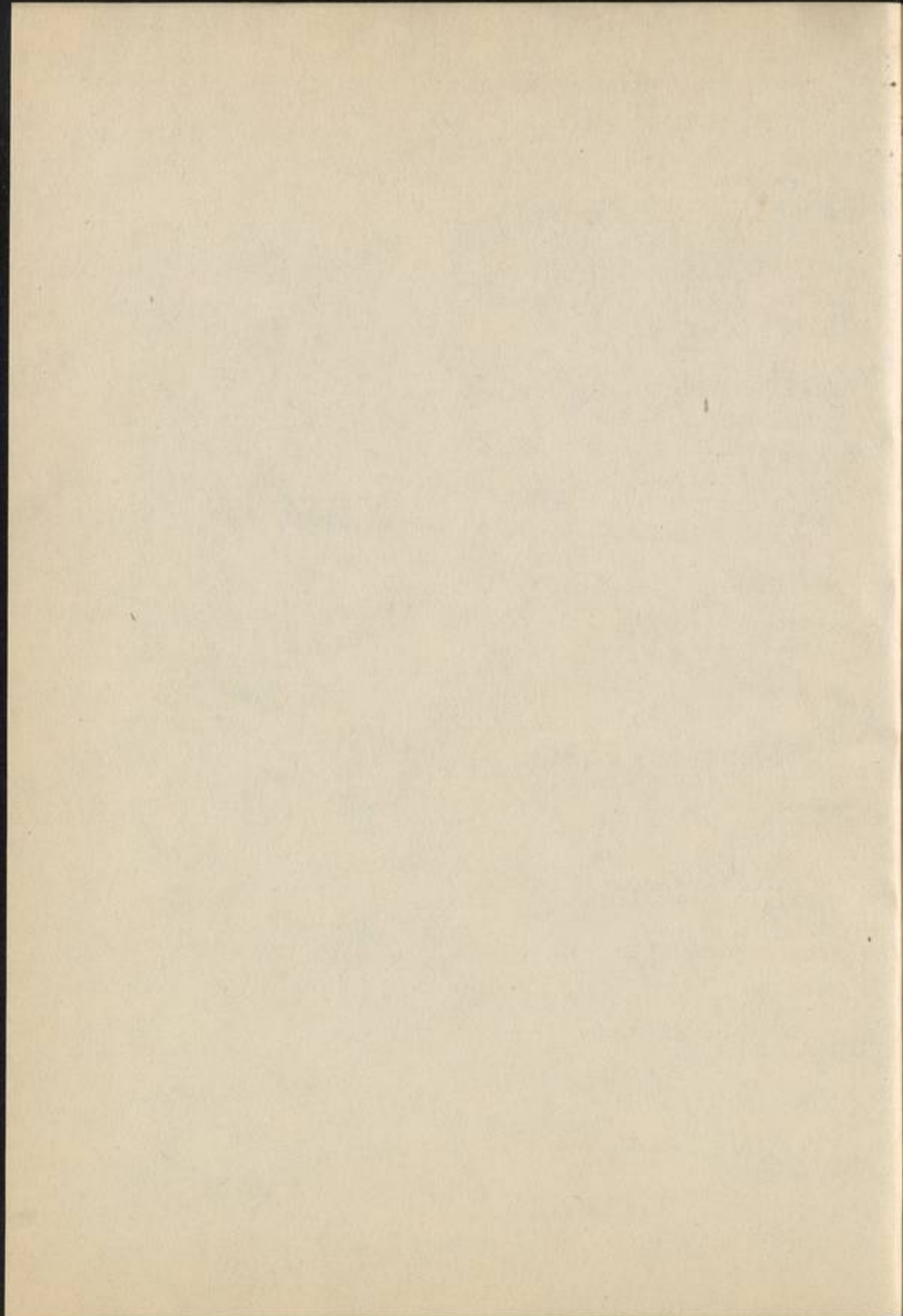
أن حد الزنا للمحصن هو الجلد

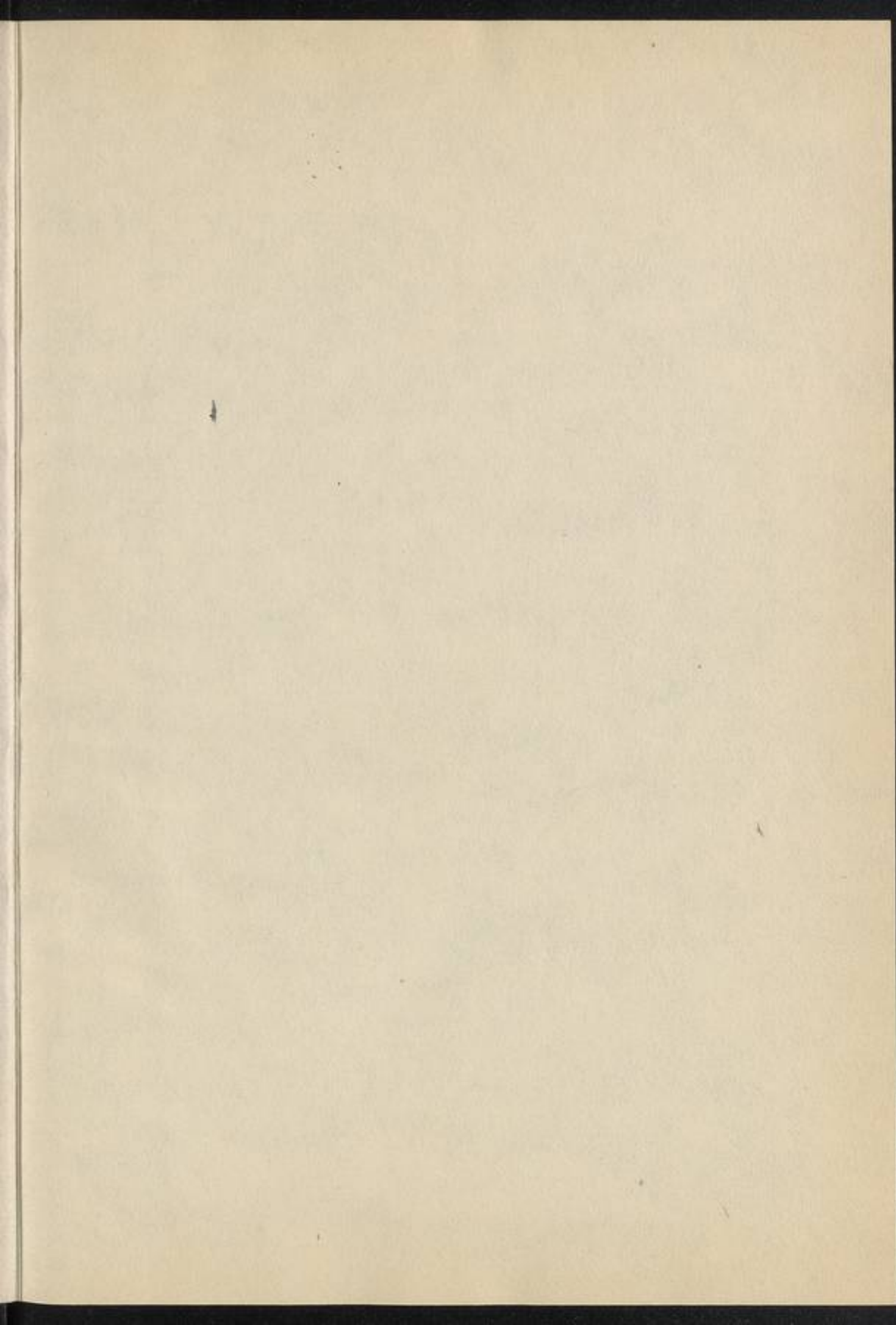
والصواب :

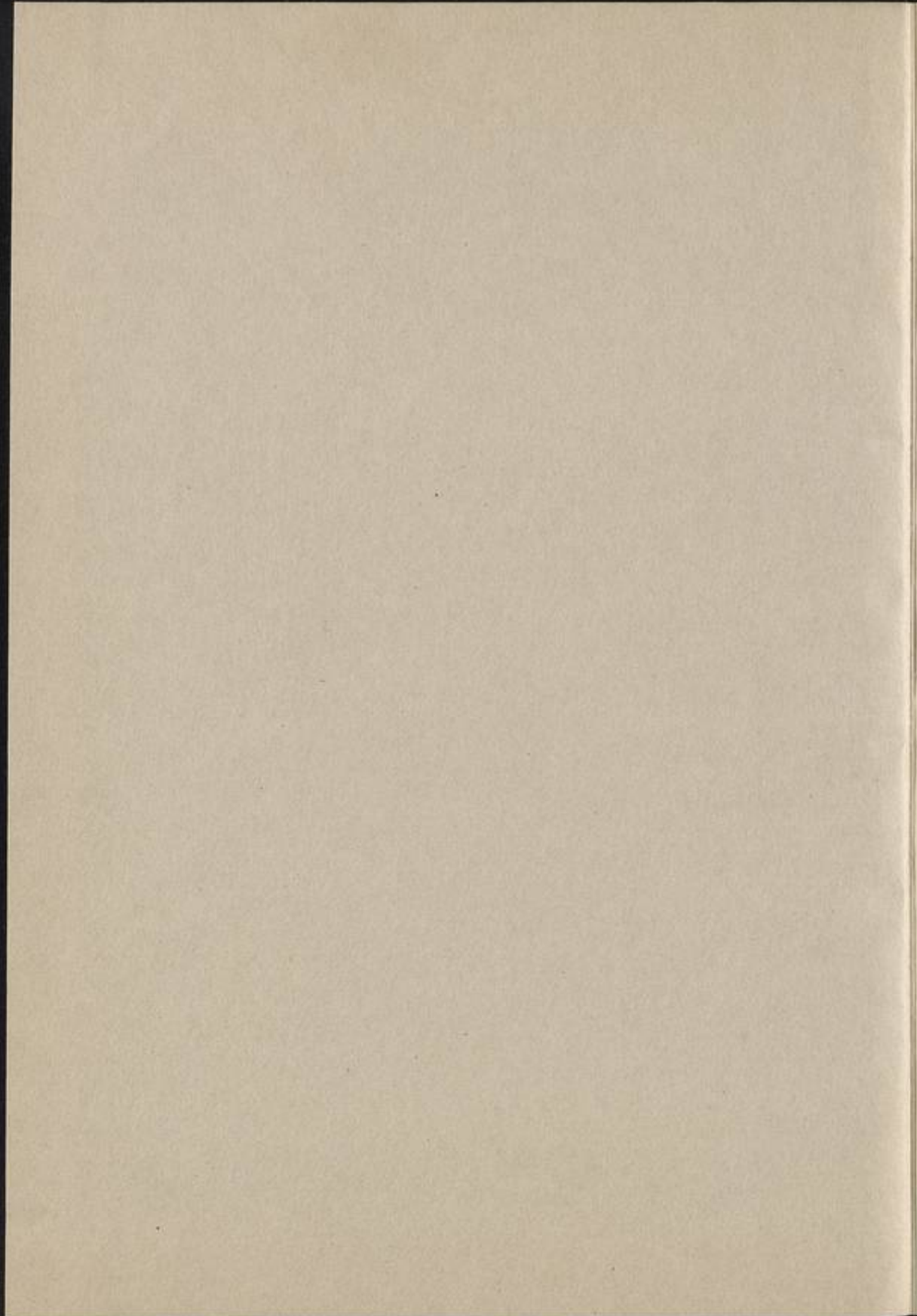
أن حد الزنا لغير المحصن هو الجلد











893.7K84

DJ4

JUN 17 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58886699

893.7K84 DJ4

Shifa al-sudur bi-la